سمير عطا الله



رواية



العبيكان
Obeikan

© مكتبة العبيكان، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عطاالله، سمير

يمنى./ سمير عطاالله. - الرياض، ١٤٢٩هـ.

٢٩٦ ص؛ ١٤× ٢١ سم.

ردمك: ٦_٣٩٥_٥٤_٩٩٦٠_٩٧٨

١ - القصص القصيرة العربية - لبنان أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٦٦ ١٨٨ / ١٤٢٩

رقم الإيداع: ١٨٨ / ١٤٢٩

ردمك: ٦_٣٩٥_٥٤_٩٩٦٠_٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥




إلى رجا الصيداوي
أخاً وصديقاً

المحتويات

عن «يمنى» 9

زجاج من الأندلس ودنتيل من بريتاني 13
(22 تشرين الثاني 1942)

منقسمون مثل فرنسا 37
(2 كانون الأول 1942)

إنكليز وفرنسيون أصدقاء وأعداء 49
(30 كانون الأول 1942)

ما الذي يحوّل القصور إلى فنادق؟ 65
(24 نيسان 1943)

إنه مقهى على البحر وهذا كل شيء 89
(25 حزيران 1943)

الشعر الفرنسي والسياسة الإنكليزية 101
(2 شباط 1943)

ثلاث حدائق وقصران صغيران 123
(23 أيلول 1943)

العشاء الأخير في قصر سرسق 145
(11 تشرين الأول 1943)

على شرفة المس دوروثي 165
(25 أيار 1944)

نشرة الساعة السادسة 189
(20 تموز 1951)

زوجة السفير النمساوي 215
(نيسان 1956)

رحلة ملكية 233
(16 تموز 1957)

مصفاة الذهب الأبيض، مصفاة الذهب الأسود 253
(16 تموز 1957)

لماذا هي بيروت خالية؟ 267
(4 حزيران 1967)

ضعي وردتك في كتاب الشعر 289
(21 كانون الأول 1968)



عن «يمنى»

عندما كتب بيار بنوا روايته «سيدة قصر لبنان» la châtelaine du liban في العشرينيات راح القراء والنقاد يتسابقون لمعرفة هويتها: من هو النموذج الذي بنى عليه «بنوا» صورة بطلته كما يبني الرسام لوحته في محترف فيما موحيته الحقيقية في مكان آخر؟ توصلت المخيلات الخصبة إلى تسمية شخصيات كثيرة، لم يكن بينها طبعاً. ولا كان ممكناً أن تكون بينها المرأة الحقيقية، أو بالأحرى «سيدة القصر» الحقيقية.

لماذا؟ لأن الرواية، في طبيعتها، مجموعة من الاستعارات والشخص فيها مجموعة من الأشخاص، والحياة مسرح يتحرك فيه أناس كثيرون وتتنقل فيه طباع كثيرة، فلا يبقى أمام الروائي سوى أن ينتقي الأحداث والتخيلات من هنا وهناك، ثم يحولها كلها، كما يفعل الرسام، إلى لوحة واحدة.

«يمنى» لا تشبه بطلة بيار بنوا، بل هي بالأحرى نقيضها، فإنها ليست امرأة تمثل الانتداب وفرنسا، بل تمثل لبنان والاستقلال، وفي ذلك الإطار الزمني الجميل تبحث الرواية من خلال «يمنى» عن المشهد السياسي والمشهد الوطني وتحاول أن تقدم، للذين ولدوا في الاستقلال، أو للذين ولدوا في أي عام، من جمالات لبنان وعذاباته، شيئاً من تلك الحقبة الجميلة التي حلت عليها النهاية الدرامية السوداء، يوم أحرقت إسرائيل الطائرات المدنية الرابضة في المطار فيما لبنان يستعد للاحتفال بوصول العام الجديد.

عندما وصل ذلك العام عند منتصف الليل كانت حقبة أخرى قد حلت مكان الحقبة التي عاشتها «يمنى»، أي المرحلة الزمنية والسياسية التي تغطيها الرواية، لكن هل «يمنى» رواية حقاً. بالمعنى الكلاسيكي المتعارف عليه؟ إنها، بالأحرى، أقرب إلى اللوحة وعمل المحترف الفني، وليست «يمنى» في الحقيقة سوى ذريعة للسرد والتنقل بين المشاهد والسنين في سياسات المنطقة وحواراتها ومراحلها التي تبدأ عشية الاستقلال، العام 1942، وتنتهي مع استباحة لبنان، كونه دولة مستقلة بالانقضاض على مطاره الدولي، رمز حريته وانفتاحه ووجوده كدولة تستقبل الفازعين إليها من هذا الشرق المتنوع البراكين والمآسي.

لا شيء في الرواية حقيقي، لكن كل شيء فيها يستند إلى حقيقة ما، إلى تاريخ ما، فالحوارات السياسية الواردة على لسان الرجال والنساء لم تكن حواراتهم، لكن كان يمكن أن تكون الأحداث واللقاءات، وكثير من السرد الروائي يستند إلى المذكرات والوثائق والتواريخ، لكنه يحاول أن يظل رواية، لا أن يتحول إلى تاريخ، ومن خلال المشاهد، التي حلت محل الفصول، تتوسع الرواية: لكي تحاول أن تغطي المشهد العربي في المشرق كله، في مرحلة كان المشرق يعيد صياغة نفسه، فينجح في مكان، ويفقد عروبته في مكان آخر، إذ فيما يستقل لبنان وسورية ومصر تسقط عكا أخيراً في أيدي المهاجرين اليهود من أوربا الشرقية، وتتغير هوية ومعالم ذلك الجانب من المتوسط الذي أخفق نابليون في تغيره.

ليست «يمنى» محاولة «تاريخية». إنها، تكراراً، محاولة روائية تعتمد لعبة النص فيما سمّاه عبد الله العلايلي «المألفة»، أي دمج المراحل، والأسماء، والأدوار من أجل جمالية النص، ونأمل أن تقرأ وأن تعامل في هذا الإطار.



زجاج من الأندلس
ودنتيل من بريتاني

22 تشرين الثاني 1942

خرجت يمنى مبكرة إلى البهو المخملي الكبير، على غير موعدها المتأخر من بعد ظهر كل يوم. وعندما وقفت عند باب الممر الرخامي بين جناح النوم وصالة الاستقبال، توقفت قليلاً، وكأنها نسيت شيئاً ما، ثم عادت على رؤوس أصابعها إلى مرآة الزينة في مخدعها، كأنها تحمل نفسها في مسرح الباليه، ومدت يدها برفق إلى زجاجة «الشاليمار» ورشت من عطرها قليلاً تحت عنقها الناحل الجميل، ثم تطلعت في المرآة، كأنها تمازحها، وداعبت شعرها البني الفاتح، وعادت إلى البهو من جديد.

سمعها الطباخ النوبي تناديه بسحرها الآمر وحنجرتها العذبة، فهبَّ إليها قبل أن تسبقه صوب المطبخ، ووقف أمامها، كما يقف دائماً، معجباً بحضورها الآسر، معجباً بنبرتها الغنائية:

ـ نادت؟ سيدتي يمنى؟

٭ «سيدتك يمنى» قالت بعذوبة فيها شيء من التوسل هذه المرة، «تريد هذا المساء شيئاً مختلفاً فضيوفنا اليوم أمضوا وقتاً في باريس، وأريدك أن تجعل باريس كلها تذوب على المائدة هذا المساء».

ابتسم يوسف كأنه فهم ما لم تقله أيضاً:

ـ أمرت، سيدتي يمنى! أمرت سيدتي يمنى.

راحت تتفقد البهو المخملي مقعداً مقعداً، وكنبة كنبة، وازاحت المقعد الجلدي المفضل قليلاً نحو الشرفة، ونفضت الوسائد الذهبية؛ حتى تبدو كأن أحداً لم يستند إليها بعد، وتأكدت من أن حواشي المقاعد المخملية الحمراء وشرّاباتها مسدولة كلها، غير معقودة، ومرت بالمرآة الذهبية في صدر الدار فتوقفت عندها، كأنها تمازحها، أو تتحداها. وتذكرت فجأة تلك اللمحة من طفولتها، حين وقفت أمام المرآة الذهبية نفسها تسألها: أيتها المرآة على الجدار، هل هناك أجمل من يمنى؟

ورّتبت شعرها البني الفاتح بيديها الاثنتين، طبعاً ليس هناك أجمل من يمنى، ليس في هذه العشية على الأقل، إنه قادم الليلة، وسيكون هذا البهو مليئاً، والشرفة أيضاً.

تذكرت فجأة الشرفة،إنها لم تضع لمساتها عليها بعد، فتحت الباب الشاهق، وتأملت زجاجه المزركش وحدائده الأندلسية الطراز، وتأكدت من أنه سوف يحب أيضاً هذه العلامات الشرقية في منزل تطغى عليه أقمشة باريس وستائر باريس والدنتيل البريتاني الأصفر واللازوردي، الذي يقطع رتابة اللون الأحـــمـــر في كل مكان. منذ الصباح، وهي تبحث عن شيء من المشرق، شيء يشبه طربوشه الأحمر، المعتدل الشرّابة، الذي يشبه أيقونة معلقة في سوق شرقي

تتدلى من سقوفه الحرائر والقناديل، أو يشبه قطعة ضاعت من لوحة قديمة في أسواق بخارى ومقاهي الصوفيين، كانت تريد أي شيء من الشرق، أي شيء ينتقل هذا المساء في صمت بين عينيها الخضراوين وبين ابتسامته، تلك الحنجرة الأخرى التي يعّبر من خلالها بترفع عما يغلب النفس ويذيب الكبرياء.

رتبت شعرها البني الفاتح من جديد. وبدلاً من أن تدقق في مقاعد الشرفة، تدفقت أمامها بيروت منبسطة، مثل منظومة من مباني القرميد، وقد انزلقت إلى المتوسط تستحم في زرقته، وبدا المرفأ الصغير أمامها، لولا البحر وبعض سفن الشحن، مثل قرية في توسكانا، لكن أين توسكانا الآن.

غريب هذا الزمن كيف يحول كل شيء إلى ماض، ويظل وحده يمضي إلى المستقبل، كل شيء أصبح ماضياً الآن. فصول الصيف مع الأولاد في فلورنسة، الرحلة البحرية كل عام إلى المتوسط والإدرياتيكي، والعطل الطويلة على شواطىء المتوسط، حيث تبدو الأيام مبحرة في انتظام هائل بين المرافىء التي تبدو في النهار، مثل غابات مأهولة، وفي الليل مثل ثريات منسية على الضفاف.

لقد توقفت الرحلات العائلية منذ فترة الآن، الأولاد صارت لهم مشاريعهم الحياتية، وقد دخلوا عالماً جديداً من الأصدقاء، والرجل الهادىء خرج هو أيضاً إلى عالم خاص به، كأنه بمحض اختياره، قرر أن يبني لنفسه قصراً جميلاً من العزلة، فهو موجود، لكنه ليس

حاضراً، وهو يعمل، لكنه لا يتخاطب مع الآخرين، لقد خرج من عالم يمنى وبقي حاضراً في حياتها، خليطاً من الأمس واليوم والغد، أمس جميل وحاضر هادىء، لكنه مثل الشرفة في هذا المنزل: عندما ينغلق الباب الأندلسي الطراز تظل الشرفة متلاصقة، وتبقى وحيدة في الخارج، تدخل الرتابة على الجمال والفرح، فتحول كل شيء إلى ملل، والملل سوس الحياة.

تشممت يمنى شيئاً من رائحة الغروب في بيروت فيما دقت ساعة الجدار السادسة، وتفقدت الحديقة تحتها، وتأملت البوغانفيليا الليلكية التي أصبحت تغطي الجدران الآن، وتتدلى من فوق النوافذ. كانت صغيرة، هي البوغانفيليا، عندما فتحت عينيها على هذه الحديقة، وعلى بيروت وعلى أول هذا القرن، اثنان وأربعون عاماً الآن، من سنيه ومن سنواتها، ومن حياة بيروت، كم تغيّر القرن، كم تغيّرت يمنى، كم تغيّرت بيروت.

كادت تدمع، وهي تتابع بعينيها أغصان البوغانفيليا والياسمينة على سياج الحديقة والنخلات الكبيرة في الممرات، وأشاحت وجهها وتطلعت من جديد صوب بيروت، كان العتم قد غطى الغياب البنفسجي، كما يفعل كل غروب، وتحول الميناء إلى مشاعل متفرقة، وهرعت المربية سعاد تنادي شبه مذعورة:

ـ سيدتي يمنى، سيدتي يمنى، لقد وصل الضيوف، وصل رياض بك،

تظاهرت يمنى بالهدوء، وهي تحاول أن تخفي هذه الرعشة العذبة، وسارت متباطئة بالحذاء العالي الكعب، الذهبي اللون، وكان رياض بك قد سبقها إلى منتصف البهو تسبقه أيضاً ابتسامته، وقد خلع طربوشه، فأمسكه بيد، وصافحها بالأخرى، وهو يسأل: ألم يأت ضيوفك بعد؟ هل أنا أول الواصلين؟

على أن رياض بك لم يكن يعرف أنه أول الواصلين، وإن أحداً لن يأتي قبل السابعة!

هل يفضل رياض بك الجلوس على الشرفة؟ لقد أرادته أن يمر أولاً بالباب الأندلسي، لكن رياض بك كان قد اتخذ المقعد الجلدي الإنكليزي العالي، وغرق بين حاضنتيه، وقال في ثقة الرجل الذي يعرف كل الأشياء، ويحتاط لكل الأمور:

* لا يغرَّنك الدفء في أول المساء، نحن في تشرين، وما يبدأ دافئاً تبرده أنسام الشمال بعد قليل.

جلست يمنى على حافة الكنبة المقابلة بعفوية، ووضعت رجلاً على رجل، فلمع حذاؤها الذهبي تحت فستانها البني الطويل، وتطلعت إليه تريده أن يقول شيئاً ما - أي شيء - إنها المرة الأولى التي يأتي إلى هذا العالم الذي صنعه ذوق يمنى، عاماً بعد عام. ثريات صغيرة زرقاء عادت بها من البندقية، لوحات شاعرية الأحزان عادت بها من مدريد. منحوتات عادت بها من فيينا، كتب حملتها من باريس، مزاهر شغلت في براغ، انتقاءات من كل مكان. آه، وأيضاً ذلك المصباح

الإسطنبولي الأزرق، وعليه صورة قائد عسكري عظيم اللحية والشاربين، لقد أصبح الأتراك صورة أثرية الآن لا تضايق سوى الذكريات، هل هو القائد نفسه الذي شاهدته يمنى عندما جاء يزور والدها، وهي في الرابعة عشرة من العمر؟ وفي هذا البهو بالذات. لم تره ذلك اليوم. لم يسمح لها ولا لأشقائها بالخروج إلى السهرة الكبرى في البهو، وقال لها والدها في حنو وحزم: «ابنتي لا تطلع على الأتراك»! لكنها لم تفهم ما يقول، ولا عرفت لماذا يقول ذلك، كل ما تذكر الآن أنها سمعت ذلك المساء صوت عربات الخيل تتوقف أمام المنزل، وعساكر يترجلون بجزماتهم اللماعة وأصواتاً تختلط وألقاب التفخيم، ووالدها يرحب بضيوفه، وقد ذهبت هي إلى النوم، تاركة كل ذلك العالم لألقابه وخداعاته.

قطعت على نفسها هذا الإغراق في التذكير، وعادت تتأمل الضيف بإعجاب مفضوح، وشعرت بشيء من الحرج، كأنما أدركت أنه إدراك معنى ارتخاء الأهداب فوق العينين الخضراوين الواسعتين، وقطعت الحرج بسؤال عادي، متوقع، كان يمكن أن يطرحه أي إنسان يعرف رياض بك.

* كيف تركك الرجال تأتي بمفردك؟ أين تقي؟ أين زهير؟ أين سعيد؟ أين محمد؟ ابتسم رياض بك في سخرية واضحة هذه المرة، ورد بجواب عادي، متوقع:

- سوف يصلون جميعاً في موعد العشاء. ألم تقولي إنك تريدين رؤيتي على انفراد قليلاً قبل المدعوين الآخرين؟

لم يضايقها التذكير، بل حقن شجاعتها. قامت من على جانب الكنبة، وجلست في المقعد الملاصق للكرسي الجلدي، ووضعت يديها على حافته، الواحدة فوق الأخرى، فتحرك حولها عطرها، وأصبحت أهدابها وأنفاسها قريبة من ابتسامة رياض بك، فتنحنح كأنه يغسل حنجرته من غبار العطر الذي علق بها، وتململ في مقعده، مثل صبي يرى عينين خضراوين من مثل هذا القرب للمرة الأولى، وأنقذت هي البلبلة الجميلة بأن رفعت يديها عن جانب الكرسي الجلدي، وتراجعت قليلاً إلى الوراء، ثم وضعت يديها فوق ركبتيها المعقودتين، وتنحنحت بدورها، إيذاناً بانتهاء شيء وبدء شيء آخر. لقد شعرت أنها حققت الانتصار الذي تريد، وفي وسعها الآن أن تترك الأشياء تتباطأ ما تشاء، لقد نفذ السحر إلى الرجل الذي يتظاهر بأنه لا يعرف كم هو آسر، ولا يقر كم أنها ذات رونق.

⁂ أريد أن أعترف لك بالهدف الحقيقي من هذه الدعوة، يا رياض! ثم توقفت قليلاً: لكي تقرأ في عينيه الضاحكتين أبداً، صدى المناداة. إن أشقاءه ينادونه رياض بك، أقرب الناس إليه ينادونه رياض بك، فالبك هنا جزء من الاسم المركب وليست لقباً، مثل عبد الوهاب، مثل أحمد شوقي. هل ينادي أحد أمير الشعراء يا أحمد؟ مثل شارل ديغول، آه، شارل ديغول، الزائر الآن على بعد مئات الأمتار فقط يتمتع برائحة الياسمين على شرفات بيروت ورائحة أزهار الكولونيا من حدائقها وبانبساط هذا المتوسط الأزرق حول نفسه، من سفح الجبل إلى سفح السماء، بلا نهاية، بلا ادعاء، زرقة تمدد نفسها طوعاً، كأنها مرآة للسماء الساهرة فوق، بنجومها المتراكضة، ببعدها المتلألئ،

بانحدارها في نهاية الأفق، حيث تبدو، والبحر مثل قوس قزح ليلي يغلب فيه اللون الذهبي على كل الألوان، إنه اللون الذي تطعّم به يمنى كل ألوانها الجميلة.

تململ رياض بك في المقعد الجلدي بارتباك، لقد فاجأته المناداة بكل وضوح، ليست مناداة بل هي رسالة صوتية واضحة، ملفومة بأهداب يمنى، وبشيء من عينيها الخضراوين. وشبك ذراعيه حول صدره كأنه يحمي هيبته من السقوط. وشعر، ربما للمرة الأولى في حياته، أنه في حصار مطبق، حصار من ياسمين بوغانفيليا، وهذا الجمال العذب، البني الشعر، البني الفستان، الذهبي الكعب، العاشق الأهداب المتباعدة. كان مستحيلاً الصمود أمام أهداب يمنى.

لم تترك له الفرصة لأن يقول رأيه في صيغة النداء. قامت إلى «الفونوغراف» الخشبي، واختارت أسطوانة كانت تنتظر هناك، وتركت جاكلين فرنسوا تغني «الحياة الوردية». وكادت هي تحلق في فرحها، مثل الفراشة.

۞ ۞ ۞

دقت ساعة الجدار السابعة، وسمعت أصوات السيارات في الخارج دفعة واحدة، وعلت ضحكة زهير تقهقه ثم تشتد، فقال رياض بك: «إنها طريقة زهير في إبلاغ بيروت أين نسهر هذا المساء» ووقفت يمنى في الباب ترحب، وتتوقع، كالعادة، إطراء ما، من تقي الدين، وهو ينحني لتقبيل يد مضيفته:

ـ آه، لو كان لي أن أطلب هذه اليد الجميلة.

دفعته يمنى برؤوس الأصابع التي قبلها، لكي تمنحه شيئاً من طعم ما افتقد.

كان هناك ضيف غير متوقع هذا المساء. وقبل أن تدق ساعة الجدار الثامنة، سمع صوت سيارة «فورد» أخرى تدخل الحديقة. وقامت يمنى فوراً إلى الباب، وهي تعلن لضيوفها أن القادم هو الشيخ بشارة، وعندما أصبح في الباب راحت الساعة تضرب جرسها بقوة، فلم تسمع يمنى كلمات الثناء التي منحها الضيف الذي سارع إلى خلع قبعته الكحلية الواسعة، وعلقها على المشجب الأسود خلف الباب، وهو يرسل إلى الحاضرين التحيات، واندفع فوراً إلى مصافحة رياض بك:

ـ لم أعرف أنك عدت من باريس إلا عندما أبلغتني يمنى بأمر هذه الأمسية، لا شك أنك تحمل أخباراً طيبة من هناك.

كانت أحاديث الشيخ بشارة إحدى مباهج الحياة عند يمنى. منذ أن تعرفت إليه قبل سنين، وكانت تشعر دائماً أن ذكاءه الحاد وثقافته العارمة وأناقته في التعبير، هي الكفة الأخرى في ميزان حياتها الدقيق، هذه الحياة لها كفتان: الأهداب المتباعدة مثل سنابل الصنوبر الأخضر، والعقول التي تمنح الجمال الطمأنينة التي تحتاج إليها، الجمال دائم الخوف، قال الشيخ بشارة على الفور: «دعوني أعترف أنني أنا الذي طلب من صديقتنا يمنى أن ترتب هذا اللقاء. الفرنسيون يضيقون الرقابة على تحركاتنا، والسيارات الشاحنة المحملة بالسنغاليين جعلت طريقها في الذهاب والإياب، من أمام

منزلنا في فرن الشباك، وبعد فشل الترغيب جاء الآن دور الترهيب، لذلك اقترحت على يمنى أن ترعى هي هذا اللقاء. متعة المذاق ومتعة الذوق معاً».

قال الشيخ بشارة ذلك، وهو يداعب الساعة الذهبية في صدريته، مؤكداً شهيته إلى لذائذ المائدة، ولم يكن ذلك في حاجة إلى التأكيد. فلولا الخضرة في عينيه لما بقي من وسامته شيء. بلى، ربما هذه النضارة أيضاً في وجهه الأبيض المستدير، أما الباقي فحكمة الكبار تتراكم والشباب ينزلق إلى الجانب الآخر من الحياة! تفقد الساعة الذهبية وراح يملأ البهو المخملي بحضوره، لكن ابتسامة رياض بك ظلت تهيمن على المجلس. وتطلعت يمنى في ضيوفها بلمحة سريعة، فلاحظت الفارق بين الرجلين: الأول خليط من الحنكة والحكمة و أمثولات التاريخ، الثاني من طينة الذين يصنعون التاريخ. الأول بحر من الأشياء، من الضعف والقوة، من الرقة والرفاهية، من القدرة على الحكم، ومن شهوة الحكم. الثاني شلال يتدفق من دون أن يتطلع إلى الوراء. يهدر ويندفع ويرسل الرذاذ والموج، ويحكي وعلى الآخرين أن يصغوا. يضج وعلى الآخرين أن يهدؤوا. يغضب وعلى الآخرين مراضاته.

ضحكت يمنى في سرها، لكن أمرها انفضح. وسأل رياض بك في صوت عال:

- ما الذي يضحك يمنى؟ هل لأنها العذوبة الوحيدة وسط هذا الحشد من الرجال؟

ـ وردت يمنى بمزيج من العتب والاعتراف:

ﮦ إنك دائماً تفضح المكامن يا رياض!

التفت إليها الرؤوس، كأنما في حركة واحدة: ماذا تريد هذه المرأة أن تقول؟ من ينادي رياض الصلح «رياض» مجردة في مجلس عام، حتى بمثل هذا الصوت العذب؟ أما هو، فتلقى المناداة هذه المرة كمن يتلقى رسالة موقعة أمام شهود. واحتار بين مشاعر الفرح ومشاعر الحرج. وقرر أن يفرح. فوضع يده على طربوشه الموضوع جانباً، وتظاهر أنه يريد أن يعتمره، ولم يفعل.

دقت ساعة الجدار التاسعة في ليل بيروت. وأخذ الخدم يتدافعون بسرعة، يجهزون الطاولة الإسبانية الطراز. وقامت يمنى إلى «الفونوغراف» من جديد. وأعادت أغنية «الحياة الوردية» مرة أخرى. رسالة مرددة بلا تعب! وقام الجميع إلى مقاعدهم.

قال رياض بك: «إننا نعرف جميعاً لماذا نحن هنا هذا المساء طبعاً وأولاً، من أجل لطائف يمنى. هذه متعة، لا سبب، لكن أيضاً أحببت أن أطلع الشيخ بشارة على آخر ما بذلنا في باريس، وعلى محادثاتي مع جميل مردم ورجالات سورية. وأنتم تعرفون جميعاً كل هذه اللقاءات، لكن الذي لا تعرفونه أنني مررت سراً في مصر والتقيت سعد زغلول ومصطفى النحاس وبشارة تقلا. وعقدت لقاءات كثيرة أخرى. وقد وعدوا جميعاً بأن يدعموا معركتنا من أجل الاستقلال. جميعاً».

قال الشيخ بشارة: «إن أشياء كثيرة تتوقف على نتائج الحرب يا رياض بك، فهل بدا لك أي مؤشر حول نهايتها، وأنت في فرنسا؟».

قال رياض بك: «الحرب مسألة طويلة، يجب ألا ننتظر نهاية الحرب، إذا انتظرنا نهاية الحرب تحولنا إلى نتيجة من نتائجها. لقد انتظرنا في الماضي نهاية الحرب الأولى فتقاسمنا الإنكليز والفرنسيون، مثل خريطة بالية. وبدلاً من أن ننتظر اتفاقهم يجب أن نستغل صراعهم الآن».

تدخل تقي الدين ضاحكاً: «لقد استفادت بيروت من الصراع بين المفوض السامي الفرنسي والجنرال سبيرس إلى أقصى الحدود. لندن وباريس تبحثان عن قطعة السكر، وهما هنا يمدان المقاصف بلا حدود، وبيروت تتغدى هنا وتتعشى هناك».

قال رياض بك: «كف عن دعاباتك يا تقي، المسألة بين الفرنسيين والإنكليز أعمق بكثير من مآدب إدوارد سبيرس. إنها خريطة الشرق بأكمله، ونحن الباب إلى هذا الشرق. نحن عنوان لفصل طويل معقد. تأملوا جيداً ماذا يحدث: الألمان جاؤوا برومل من الجبهة الروسية من أجل أن يعبر قناة السويس. فالقناة تعني البحر الأحمر. والبحر الأحمر يعني النفط. الإنكليز يريدون بأي ثمن الإبقاء على طريق إلى الهند، ومن أجل ذلك قد ندفع فلسطين ثمناً جاهزاً. وماذا يبقى للفرنسيين؟ إن ديغول حتى الآن رهينة بين لندن والمكتب السياسي في القاهرة. وعندما يأتي إلى بيروت يأتي لأنه لا يشعر هنا بأنه محاط بأوامر تشرشل أو برجاله. يجب أن نستقل قبل نهاية الحرب. إذا انتهت قبل أن تقبل باريس باستقلالنا حلت كارثة. المنتصر لا يعطي شيئاً، ولدي شعور بأن الحلفاء سوف ينتصرون، لقد تمددت ألمانيا

فوق طاقتها وخلف مداها. وحليفها موسوليني يبحث في أفريقيا عن آماله وأحلامه. والضعفاء وحدهم يدفعون الثمن. نحن في هذا الشرق ضحايا ميزاتنا الجغرافية. الأنهار تسقي السهول والأنهار تجرفها».

لم يمد أحد يده إلى صحن الحساء الذي أمامه. كانوا جميعاً يصغون إلى رياض بك، يعرض لهم لوحة عالمية لم تخطر في بالهم من قبل. وأعجب الشيخ بشارة بهذه الرحلة في آفاق هذا العالم المعقد، لكنه شعر أيضاً بشيء من القلق. الغموض يثقل الصدور، ويحير العقول، ويشل الأوطان.

نادت يمنى على الخدم أن يسحبوا صحون الحساء الباردة كما هي. وحذرت ضيوفها ضاحكة، من أن السمك أيضاً سوف يبرد ويسحب، إن استمر رياض في الحديث عن شؤون العالم، لكنها في سرها كانت تتمنى أن يستمر في الكلام. ألا يتوقف.

غير أن تقي الدين أخذ الكلام، بلباقته. إنه يعرف جيداً متى يريده رياض بك أن يتحدث. ويعرف أنه يحب ما يقول. وترك المدعوين يتناولون طعامهم، فيما جلست يمنى عند رأس الطاولة تراقب حسن المأدبة وكفايات الضيوف، تتأكد من أن الفوط البريتانية الزرقاء ملفوفة جيداً بعقدتها الذهبية، تحاول أن تعرف هل تنبه رياض بك إلى أن الوردة التي أمامه مختلفة اللون عن الورود الأخرى التي وزعت على بقية المدعوين؟ هل رأى أن حمرتها أكثر عمقاً؟ هل لاحظ أنها تريد أن تقول شيئاً عبر الوردة؟ هل يقرأ لغة الورود؟ وضع الشيخ

بشارة المئزر حول عنقه بلا حرج. لا يريد أن يفسد متعة الأكل. ولا القميص الأبيض المنشي، ثم وضع السكين والشوكة جانباً، بحيث سمعت رنتهما. وقال موجهاً الكلام إلى رياض بك في الجهة المقابلة:

- أحببت أن أطلعك على أمر يجب أن تعرفه، لقد أرسلت ابني خليل قبل يومين إلى الجنرال سبيرس في مهمة عاجلة، الفرنسيون يبالغون في مضايقتنا، أرسلت خليل، لا لكي نشكو بل من أجل أن نعرف: هل سيؤيدون حركتنا أم لا؟ نحن جميعاً نعرف أن سبيرس هو الذي نقل شارل ديغول في طائرة حربية من فرنسا المحتلة إلى لندن، لكن كل شيء تحول الآن إلى عداء، المصالح تفتت الصداقات أو تفسدها، نحن هنا شعب صغير وأناس بلا مال، في مواجهة إمبراطوريات ودول كبرى، لابد لنا من دعم، الثورة وحدها لا تكفي، العالم مأخوذ بهمومه في كل مكان. والحرب قائمة على الجبهات تحصد الأرواح حصداً، ألمانيا تفقد شبابها وروسيا تفقد كهولها في الثلوج، وثمة قوة هائلة تنتظر خلف الأطلسي، ونحن هنا بلد صغير في هذا الشرق الكبير، الثورة وحدها لا تكفي، الفرنسيون لن يخرجوا لمجرد مشهد من الدماء، يجب أن يدركوا أيضاً أن ثمة قوة خلفنا. الجيش السنغالي لا يخيفه سوى رجال الغوركا الهنود.

قال رياض بك: «إن ما نفعله الآن هو على ما أعتقد السلوك النموذجي، إننا نفاوض الفرنسيين، لكننا أيضاً نلوح بالثورة، الفرنسيون يعرفون أن الذي يخيف ليس الثورة، بل صداها، وهم لا

يخافون فقط على وجودهم في بيروت، بل أيضاً على الجزائر والمغرب. إن الثورة، بعكس النظام، أشبه بالوباء، أما أن يدعمنا الإنكليز أم لا، فهذا أمر طبيعي، نحن في حاجة إلى الدعم من أي مكان، وهناك دعم يأتينا من قلب فرنسا نفسها، هناك تيار فرنسي قوي ضد البقاء في الخارج، والاشتراكيون يعتقدون أنه يجب أن يحدث في باريس ما حدث في أنقرة بعد الحرب الأولى: التضحية بالإمبراطورية الضعيفة من أجل فرنسا قوية، لقد ناء الفرنك تحت أعباء الإمبراطورية، والآن تحت أعباء الحرب».

تدخل تقي الدين: «نحن لا نستطيع الرهان فقط على الصراع بين باريس ولندن، بل أيضاً بين فيشي و فرنسا الحرة».

قال رياض بك: «كَبِّر عقلك يا تقي، الفرنسيون ارتضوا فيشي تحت الاحتلال الألماني، لكن إذا ما انتهت الحرب بهزيمة المحور، فإن فيشي ستزول. إن الرؤوس سوف تتدحرج والمقاومة سوف تصل إلى الحكم وتقيم المحاكم أيضاً، يجب ألا ننسى أن هذا البلد المحتل هو فرنسا، لقد دفع الفرنسيون مئات الأعوام وآلاف الرجال في حروبهم ضد ألمانيا، ولن يتراجعوا اليوم، إن بيتان لا يمثل فرنسا، المهزوم لا يمثل أحداً. وفي أي حال نحن هنا بلد صغير. ويجب ألا نعطي أنفسنا أكثر مما نستحق، ولا أن نقبل بأقل أيضاً».

اعترض الشيخ بشارة، وهو يرفع المئزر عن صدره العريض مؤذناً بأن العشاء شارف الانتهاء، قال: «يجب أيضاً ألا نقلل من أهمية لبنان لدى فرنسا يا رياض بك. أنت تذكر أن باريس سحبت المفوض السامي

عمانوئيل ساراي بعد ثمانية أشهر من وصوله؛ لأن اللبنانيين اعترضوا على سلوكــه. هـذا يعني أن لنا مكانة مــا فـي باريس، ولو كنا تحت الانتداب. إنهم يطلقون خلفنا السنغاليين بقبعاتهم الكاكية الواسعة، لكنهم يدركون أيضاً أننا بوابتهم الثقافية نحو الشرق».

قــال رياض بك: «أدرك ذلك جـيـداً. لكن المســألة الآن أبـعـد من مـسـرحـيـات مـولـيـيـر. إن فـرنـسـا تقـاتل من أجل وجودها فـي الداخل والخـارج، وباريس تعـرف أن عين الألمان على اللوفر. لكن عـين الإنكليـز على القاهرة ودمشق وبغداد والسويس. إنه الصـراع الذي لا ينتهي بين دولتي المانش، لقـد بنى دوليـسـبس قناة السـويس، ثم جـاء دزرائيللي واشـترى نصفـهـا تقـريبـاً. وكاد يطلق على ظهـره من الضـحك، وهـو يبلغ الأمـر إلى الملكة فكتـوريا! لقـد اتكل الإنكليـز دومـاً على انفـعـاليـة الفـرنسـيين. لكن الآن عندهم شـارل ديغـول: كلمـا غـضب من تشـرشل قام بزيارة السفير السوفيتي في لندن. يجب ألا نستهين بالأمر».

دقت ساعة الجدار الحادية عشرة. قام الجميع إلى البهو. ومضت يمنـى إلى «الفـونوغـراف» مـرة أخـرى، لكن رياض بك ناداها بلطف: «دعينا نسمع نشـرة الأخبار الآن. أسمعينا مـاذا تقول برلين؟ أين أصبح الألمان هذا النهار؟».

بان النعاس على الشيخ بشارة الذي ارتخى في مقعده، شابكاً يديه فـوق صـدره، ومـلأ الصـالون دخـان سـجـائـر «البـلايرز» بعطره القـوي، وبدأت السـهـرة تنهي نفسـهـا بنفسـهـا. وبعد قليل نزل الجمـيع الدرج

الرخامي العريض، وأخذ رياض بك يتأمل اللوحات والصور المعلقة على انحدار السلم الرخامي، العائلة، الأولاد، لوحة من هولندا، صورة كاريكاتورية لدون كيشوت وخلفه بانشو وحماره، وعند آخر السلم قبالة الباب الرئيس تلك اللوحة الأخيرة: رسم يمنى يوم كانت في الخامسة والعشرين من العمر، بسترة بنية، تربط شعرها البني المرخي على جبينها بربطة ذهبية اللون، وترخي أهدابها المتباعدة وتتطلع، كأنها تتأمل سعادتها، تظاهر رياض بك بأنه يعجب بالرسام. توقف قليلاً، ثم ودع، واقتربت منه يمنى فجأة ووضعت في عروة سترته وردة حمراء، وأدار الجميع وجوههم، وكأنهم لم يدروا بما حدث.



لم تنم يمنى.

ودعت ضيوفها، ثم عادت تتوقف أمام رسمها عند المدخل، يتطلع، هنا كان يتظاهر بأنه إنما يتأمل الريشة لا الصورة، هنا كان يستقرئ عيني يمنى، الأهداب، الربطة التي تلف الشعر المرخي على الجبين على طريقة غريتاغابور، ماذا لو حدثته اللوحة!! ترى أين أصبح الآن ذلك الرسام الذي وقفت أمام ريشته أياماً طويلة في محترفه الباريسي في السان جيرمان؟ إنها لا تذكر حتى اسمه لولا هذا التوقيع العريض، تمنت لو استطاعت أن تمحو التاريخ من جانب توقيعه، لكن إلى الآن لم يفعل العمر شيئاً بالأهداب المتباعدة، تمر السنون بطيئة بالجمال، ويمر الجمال سريعاً بالسنين، المناعة المولودة.

لم تنم يمنى.

كانت تريد أن تحكي شيئاً ما إلى مخلوق ما غير هذه المرآة التي تبادلها عذوبتها، تبادلها تثاؤبها في الصباح، آخر من يراها عندما تطفىء النور. لكن ها هو الليل يفسح مكانه للفجر. وهي لم تنم بعد، وقامت إلى نافذتها فرأت بيروت تستحم تحت أول مطرة خريفية. كان الرذاذ الخفيف يغسل البوغانفليا عرقاً، عرقاً ويساقط أوراق الياسمينة، مثل هر يداعب عصفوراً وأمام المنزل المقابل كان الجندي الذي يحرس بيت الكولونيل الفرنسي، يدخن أولى سجائر الصباح، معتقداً أن أحداً لا يراه، وعلى شرفة أخرى كان متري وثريا بسترس. قد استفاقا وأخذا يعدان المارة والأيام والزوار الذين لم يعودوا يأتون إليهما، والتفتت يمنى إلى المرفأ فرأت، أضواءه تطفأ، الواحد بعد الآخر، وبيروت تستيقظ، والمتوسط يخرج من العتم إلى صباحه اليومي، متثاقلاً، باسطاً نفسه لأشعة الشمس الأولى، نافضاً عن وجهه بقايا النجوم واللآلئ. كما تنفض يمنى «الشامة» الواسعة عن خدها الأيسر، لدى انتهاء العشية، ثمة مخلوق واحد تستطيع يمنى أن تخبره بأنها في ذروة الانتشاء، بأن رياض كان هنا، وبأنه ساعة كان هنا قامت إلى «الفونوغراف» وعبأته بيدها وتركت جاكلين فرنسوا تغني. ثمة مخلوق واحد.

كان الطباخ يوسف وحده قد أفاق، وهي تحاول الخروج. إنه يقوم قبل الجميع من أجل صلاة الفجر، وعندما رآها تنزل الدرج هرع متسائلاً:

ـ ماذا يوقظ سيدتي يمنى في هذه الساعة؟ هل أنادي على أحد؟ هل أنادي على السائق؟

ابتسمت يمنى وخرجت، وبرغم البرودة القليلة التي لم تطردها شمس تشرين بعد، كشفت سقف «الباكارد» الضخمة واعتلت مقعدها المخملي البني، وتركت للريح أن تعبث بكل شيء جميل. كانت السيارات قليلة جداً في الطريق إلى صيدا، وكلما مرت بالمزارعين على جانبي الطريق كانت تحييهم بفرح ويحيونها بفضول. وظل المتوسط يواكبها بزرقته الأخاذة حتى مدخل المدينة عندما استدارت يساراً؛ لتبدأ طريق الصعود إلى الجبل، كان شعرها لا يزال يتطاير، والشمس بدأت تغطى، وهذه الأرض تعرفها يمنى حافة حافة، تعرف بياضها الكلسي والغبار الذي يغطي شجر الزيتون، وتعرف متى، بعد «عازور» بقليل، يتغير لون الأرض وطعم الهواء، ويمتد الصنوبر بخضرته الرائعة وقاماته الباسقة، يمتد، ما استطاعت العين أن تتسع والقلب أن يبتهج. إنه سيد النسيم في الصيف، أمير الريح في الشتاء.

أخذت تسرع أكثر، كلما اقتربت من بكاسين، تفعل ذلك، كلما اقتربت من بساتينها وسطوحها القرميدية وساحتها الصغيرة تشعر برغبة في العدو من أجل أن تعانق أمها وأشياء طفولتها، ما أسعد الطفولة التي تعطي هذا الإطار! ما أهنأ الحياة التي تتعرف إلى الهدوء في ظل هذا الصنوبر!

هذه هي أخيراً بكاسين، تلة على ظهر واد بين واديين، تناور من حولها الشمس ويفاجئها القمر، وفي سفوحها يمر «الأولي» حاملاً راية الجنوب، وكل ما جمع من غناء وتغاريد وتقاسيم على إيقاع واحد ولازمة واحدة: الهناء والجمال.

شعرت بشيء من الجوع، الهواء العذب يوقد الشهية، وقبل البيت بقليل توقفت عند بائعة الخبز المرقوق، وهب الجميع بفرح: ما الذي يحمل السيدة يمنى إلى هنا في مثل هذا الوقت. ما أجمل صباحك يا سيدتي يمنى! ثم تقدمت بائعة الخبز بفستانها القروي المليء بغبار الطحين، وسوت الشال الذهبي حول عنق يمنى وقبلتها في جبينها شاكرة مرورها بنفسها لشراء الخبز:

ـ آه يا سيدتي يمنى، ليس هناك من هو أجمل منك، مثل قمر الصباح يا سيدتي يمنى، مثل قمر الصباح.

قطعت المسافة القصيرة إلى المنزل، وهي تدندن، ليس لحناً معيناً، لكن شيئاً فيها كان يغني، وفي القاطع الآخر طالعها شلال جزين، يعزف منفرداً لحن الأنهر والينابيع، فجأة عادت بها الذكريات عاماً واحداً إلى الوراء، هنا، فوق هذا الشلال، بين تلك الروابي، كانت تدور قبل عام واحد المعارك الثقيلة بين الفرنسيين المتقاتلين، وإلى بيتهم بالذات جاء عدد من الجنود يطلب شيئاً من الأدوية وبعض الخبز، وقد ذهبت بنفسها أيضاً إلى بائعة الخبز وتدبرت لها الطحين وطلبت منها أن تمضي نهاراً كاملاً في الرق على الصاج، هي وأولادها.

كم تتغير الأشياء، والناس في هذا البلد الغارق في الصنوبر، مرة يكون ساحة حروب بين الدول في حروبها الكبرى، ومرة ينسى وحيداً، مثل شجرة على ضفة بحيرة، قبل عام فقط كانت بيروت تطلب السهر عند الجنرال دنتز، ممثل فرنسا البيتانية، واليوم يدعي الجميع أنهم

لم يعرفوه، كم يظلم التعميم بعض الرجال، فكرت يمنى لنفسها، فقد كان دنتز في حد ذاته ضابطاً نموذجياً وسياسياً عريقاً، واسع الثقافة، جم الأدب، يدرك ذلك الفارق في المشاعر بين رجال الانتداب وأهل البلاد، ويتصرف دائماً من هذا المنطلق، لكن مأساة دنتز الشخصية أنه كان ضابطاً مع بيتان، والآن خسر معركته في بيروت، لقد قصف كعدو، الهزيمة أسوأ الأقدار.

وقفت أمها في الباب واضعة يديها حول خاصرتيها بتعجب واضح: «ماذا يحملك إلى هنا اليوم، وفي هذه الساعة؟ لماذا تقودين السيارة بنفسك؟ هل الأولاد في المدارس؟ دعيني أخبر والدك أولاً أنك هنا لكي لا ينقزّ»، عانقت أمها كأنها تحاول إسكاتها، ثم دخلت فرأت البيت يزدحم بالعمال الذين تناولوا للتو طعام الفطور، وها هم يعودون الآن إلى الحقول، إنها أيام القطاف الأخيرة: الزيتون والصنوبر وبقايا العنب، «والموسم كان عظيماً هذه السنة»، قال والدها، وهو يستأذن لكي يرافق القطافين، إلا أنه استدرك فجأة، بنبرة أبوية نصفها قلق ونصفها تأنيب:

ـ يمنى، لماذا لست في بيروت؟ لماذا لست في بيتك؟

لن تقول له يمنى، الآباء لا يفهمون مدى الضعف البشري، ولا يقبلونه، ثمة مخلوق واحد سوف تخبره يمنى ما بها يمنى، ثمة مخلوق واحد.

ألقى جميع العمال التحية على سيدتي يمنى، ورمقوها جميعهم بنظرات الإعجاب الخفرة، وتشمموا جميعاً عطر المدينة من خلال عطرها الصباحي الهادئ، ثم مضوا إلى رائحة الأرض وعطر الزيتون الأخضر، مشققة أيديهم مثل الأرض، مقساة وجوههم مثل جذوع الزيتون، إنهم لا يرون المدينة إلا من خلال أهلها.

جلستا على الشرفة المطلة على ساحة القرية، هي، على الكرسي العالي، بحيث تسند ساعدها الجميل إلى الحافة الرخامية، كما فعلت دائماً، وأمها على الكنبة في الزاوية القريبة، وقد تمزقت أطرافها قليلاً، وبدأ يظهر عليها العتق، وسألتها أمها من جديد ما الذي يحملها إلى هنا؟ لكنها لم تكن مستعدة للكلام بعد، راحت تتأمل طفولتها مسترجعة الأشياء التي لا تعود، الأشياء التي تستعاد ولا تعاد، وسمعت صوت أجراس رتيبة تقترب، فانحنت تتطلع، فإذا به الراعي والقطيع، لم يتغير فيه شيء، يشبك عصاه الصغيرة خلف عنقه بيديه الاثنتين، ويترك للقطيع أن يعثر على طريقه المتعرجة، البطيئة، عبر حفاف الحقول ومجانيات العشب، لا هو يسأم هذه الرتابة، ولا القطيع يطلب التغيير، والحملان تزداد كل عام، وتقل كل عام، وهو لا يتغير، لقد أرسل أولاده هذه السنة إلى بيروت ودخلوا ثلاثتهم في «جيش الشرق»، ولم تعد له هموم، أصبح جنى القطيع يكفيه وزوجته، وله أن يعزف «المنجيرة» من الصباح إلى الغروب، ويغني لنفسه، من يملك قناعة الاكتفاء يملك سعادة الوهم.

قطيع آخر بدا أمام يمنى، بعيداً في الساحة الصغيرة، الأولاد، بمرايلهم السوداء، يقفون صفاً واحداً أمام المدرسة. حربان عالميتان الآن، وهي بعد في الثانية والأربعين، على هذه الشرفة كانت ترقب الأولاد يدخلون المدرسة في الحرب الأولى، كانوا أقل عدداً وأكثر فقراً وبلا مرايل سوداء، كانوا يرتدون «قنابيز» بسيطة، ولا شيء تحتها، وكانوا ناحلين، ساهمين، يكادون لا يلعبون في ساعة اللعب، هذا جيل آخر الآن، وهذه حرب عالمية أخرى، وهذا بلد صغير، يمر به المهزومون والمنتصرون، ويهلل للجميع.

☼ قلت إنك جئت لتخبريني شيئاً، وإلى الآن لم أسمع منك كلمة واحدة، ماذا تقول يمنى؟ كيف تبدأ؟ هل من الضروري هذا البوح؟ ماذا تقول يمنى؟ كيف تبدأ؟ أين تبدأ؟ هل من الضروري أن تحمّل أمها هذا الثقل وهي في هذا العمر؟ ألا يكفيها يوم جاءتها في مثل هذا الوقت، في مثل هذا الخريف، قبل خريفين أو أكثر، لكي تبلغها أن السقف مهدد بالسقوط فوق البهو المخملي وأدبياته؟ لقد حلّ العطف مكان الحب، وتبادل الاحترام مكان تبادل الشوق، وقد خافت أمها يومها خوف الأم، ما أصعب خوف الأم! هل من الضروري أن تخيفها مرة أخرى اليوم؟ لم تدر ماذا تفعل.

قامت إلى الشرفة وتأملت شلال جزين من جديد، وبدا يتساقط، وكأنه حقاً يخرج من قصيدة أمين نخلة في وصفه، كانت تحب شعر أمين، وتستظرف مجلسه، وتحلو لها أكاذيبه الصغيرة وشهواته السياسية المضحكة أحياناً، وكان يضحكها ويؤلمها معاً، حين ترى هذا العملاق الغزير الثقافة الوافر الآداب، يقف مسكيناً أمام سياسي أو

مسؤول، الناس تطرب لقوافيه، وهو يطرب لأصفر لقب من الألقاب، والناس تتجمع حول نثره الجميل، وهو يتجمع مثل أحدب ابن الرومي أمام أي صاحب لقب.

ماذا أخذها إلى أمين نخلة الآن؟ ماذا يفعل هذا الشلال أمامها، عالياً شاهقاً يرسل الماء في الهواء من فوق، من أعاليه، رتيباً رتابة الفصول، يتراجع مع الصيف، يندفع معربداً مع الشتاء، يزهو مع الربيع؟ والآن، في هذا الخريف، يلملم الورق الأصفر من على الضفاف ثم يرمي به إلى النهر، بلا اكتراث، بلا توقف، أخافتها فكرة الخريف، اندفعت نحو أمها وغمرتها وبكت، وبكت، ثم ركعت عند ركبتيها ووضعت رأسها في حضنها وراحت تبكي، وتبللت الأهداب المتباعدة، ولم تعد الأم تريد أن تسأل شيئاً، لقد أدركت كل شيء، وأمسكت بالرأس البني الشعر وفكت الربطة من حوله، ونزعت من أذنيها القرطين الماسيين، ورفعت رأس يمنى عن حضنها برفق، وقالت لها: «ادخلي واغسلي وجهك قبل أن يعود والدك من الكروم، إذا رآك تبكين هكذا لن يعرف النوم بعد الآن»، لكن يمنى ظلت ترخي رأسها في حضن أمها، وأخذها النوم للمرة الأولى منذ بعد ظهر الأمس، وفي حنو نقلت الأم رأسها إلى الكنبة العتيقة وجعلته تحت مسندها، وعندما أفاقت يمنى كان أول ما سمعته أجراس القطيع العائد مع بدايات الغروب المبكر، وشعرت بشيء من الخجل، ودخلت بسرعة إلى البيت فقبلت أمها وعانقت والدها، وخرجت إلى «الباكارد» فأغلقت سقفها، لن تترك الهواء يعبث بكل شيء جميل، في طريق العودة إلى بيروت.

◆◆◆

منقسمون مثل فرنسا

2 كانون الأول 1942

رنّت ساعة الجدار معلنة بأعلى صداها انتصاف النهار، فيما كان جرس الهاتف الضخم يرن هو أيضاً بإلحاح شديد. كانت يمنى لا تزال تقرأ الصحف وتقلب المجلات في المكتبة، والمطر يهطل على النافذة كأنه لم يعثر على غيرها مصباً. رفعت السماعة العاجية بإهمال مَنْ لا يتوقع مكالمة أحد في هذا الوقت، وقال عامل السنترال الفرنسي بلهجة متعالية:

ـ هل هذه بيروت 185؟

يشتغل عمال الهاتف لاثنين: سلطة الانتداب وحديث الصالونات، إنهم يسمعون كل شيء، سواء طلب منهم ذلك، أم لا. وقد أجابت يمنى بكبرياء شديدة: «نعم! 185» ثم جاءها صوت الرجل الطالب:

ـ يمنى، أنا رياض، هل يناسبك أن نمر بك في السادسة من هذا المساء؟

كان جدياً، رسمياً ومقتضباً، ولم يتسنَّ لها أن تلمح ابتسامته من خلال هذه اللهجة الصارمة، ولعله تعمد ذلك من أجل الرقيب الفرنسي، لكن لماذا يتكلم بعد كل هذا الانقطاع؟ لكن لماذا يجيء بعد كل هذا الغياب؟ لكن ماذا حدث؟

نفضت كل هذه الأسئلة عن بالها وتركتها حتى السادسة، كان العتم

قد لف بيروت منذ الرابعة بعد الظهر، وكيفما تلفتت عبر النوافذ رأت المطر يهطل بلا انقطاع، وسمعت في الخارج أصوات البلابل الفازعة تختبئ في سقوف النوافذ، والشارع في الخارج خال إلا من المصابيح، والحارس على باب الكولونيل الفرنسي يدخل تحت معطفه الكحلي ومع معطفه دخلا معاً تحت قمرته الخشبية المثلثة الألوان، وبالإضافة إلى ضوء المصباح كان يبدو ضوء سيجارته من خلال العتم الكالح، ماذا يحمل رياض في مثل هذا الطقس؟

عادت يمنى إلى المكتبة تدفن بين كتبها لحظات الانتظار، واعتزل الأولاد كل في غرفته كالمعتاد، وأرادت أن تقوم إلى «الفونوغراف» لكنها تراجعت، إنه يوم كالح لا يحلو فيه الغناء.

دقت ساعة الجدار السادسة فيما كان جرس الباب يقرع، ونزلت الدرج بسرعة، لكن سعاد كانت قد فتحت الباب، ودخل رياض بك بسرعة وهو يمسح عن كتفيه البلل، يتبعه تقي الدين، وللمرة الأولى شاهدت حرساً ومرافقين، طلبت إليهم جميعاً الدخول، هذا طقس لا يبقى فيه أحد في الخارج، سوى حارس الكولونيل الفرنسي، والبلابل، لم يجلسوا في البهو المخملي هذه المرة بل تقدمت رياض بك وتقي الدين إلى المكتبة الخافتة المصابيح، جلس رياض بك خلف المكتب المذهب كأنه صاحب البيت، وجلس تقي الدين ويمنى كأنهما من الزائرين أو أصحاب الحاجات، تحدث كأنه وحيد في الغرفة، ولم يكن يتطلع إلى سامعيه بل إلى الكتب المرصوفة خلف الزجاج مثل عقود من الذهب.

قـال رياض بك: «ليس من الضـروري أن أسـتـعـرض أمـامك مـا تعرفينه مثلي، البلد منقسم حول الاستقلال، منقسم حول السياسيين، حول الانتداب، حول الإنكليز والفرنسيين، وسبب الانقسام هو الخوف من المجهول، من الغموض، لذلك قبل أن نحصل على الاستقلال يجب أولاً أن نعثر على رجال تتحد الناس خلفهم، المسيحيون قطبان، الشيخ بشـارة وإميل إده، والمسلمـون يد واحـدة وآراء عـديدة، والدروز أعلنوا الثـورة في العـشـرينيـات ومـسـتـعـدون لإعـلانهـا اليـوم، لذلك يجب أن نسعى أولاً إلى الاتحاد الداخلي، وإلا فإن الفرنسيين مثل الأتراك، مثل الإنكليـز، سـوف يلعبون على انقسـامنا، سـوف يزعـمـون أننا شـعب لا نريد الاستقلال ولا نستحقه».

قالت يمنى: «إنك تخاطبني كما لو كنت أملك زمام كل شيء، لست أدري ما هو دوري في الأمر، إن أنا إلا امرأة عادية».

تدخل تقي الدين: «لست امرأة عادية، يا يمنى، السياسة لا تصنعها النساء، لكن المرأة القـادرة تصنع الصداقـات وتفتح الطريق للتحـالفات، لسنا في حـاجة إلى وسـاطة مع الشيخ بشـارة، فقد كان في الإمكان أن نلتـقـيـه مبـاشـرة، لكن هـنـاك أشـيـاء من الأفـضل أن تقـال بالـواسطة، الرجـال الأقـويـاء يخـشـون الاصطدام بمواقـفـهـم، نحن لا نريـد إثارة الجدل مع الشيخ بل الهدف هو الاتفاق، السياسيون كثيرون، الطامعون كثيرون، والطامحون، جميع الناس طامحة».

تسـاءلت يمنى في براءة أذهلت الجـمـيـع: «هل هناك من يسـعى إلى الرئاسة غير إميل إده والشيخ بشـارة؟».

ابتسم رياض بك للمرة الأولى هذا المساء العاصف، لكنه لم يكن يبتسم ليمنى بل لسذاجتها:

- نصف اللبنانيين مرشحون للرئاسة، اليوم وغداً، كل لبناني رئيس حتى يثبت العكس، نحن بلد صغير يا يمنى، وفي البلدان الصغيرة الناس تعرف بعضها جيداً وتميل إلى ازدراء بعضها البعض، ثم إننا سياسيون بلا سير، بلا تاريخ، أربعة قرون في ظل سلاطين تركيا، ثم جاء الفرنسيون والإنكليز واقتسموا هذه المنطقة، الآن فقط نعرف ما هو العمل السياسي الحقيقي، لا سياسة بلا حرية، ولم نكن نملك شيئاً منها، تدخل تقي الدين:

- يجب أن ندرك يا يمنى أننا لسنا في حساب أحد، الفرنسيون والإنكليز يتصارعون من أجل مصالحهم لا من أجلنا، ويتصالحون من أجل مصالحهم أيضاً، في الحرب الأولى أرسل الإنكليز مارك سايكس إلى الفرنسيين: لأنه كاثوليكي يجيد الفرنسية تماماً، انتقوه: لكي يغلب الفرنسيين بإثارة مشاعرهم التقليدية: من أجل لغته، يبيع الفرنسي نصف الأرض، ومن أجل جملة أنيقة يبيع النصف الثاني، ومن أرسلوا في هذه الحرب إلينا في المشرق؟ لقد بعثوا بالجنرال سبيرس الذي يرفض التحدث إلى أحد إلا بفرنسيته الأرستقراطية، إننا نخطئ تماماً عندما نعتقد أن الجنرال سبيرس هو مجرد رجل عادي أرسله الإنكليز إلى هذه المدينة الصغيرة، إنه يمثل للأميرالية تماماً ما

يمثله الجنرال جورج كارتو «لفرنسا الحرة». هذا الرجل يدير من هنا شؤون المشرق لا شؤون بلدنا، إن له استقلالية «مكتب القاهرة» ونفوذه.

قال رياض بك: «الفرنسيون سيئو الحظ. وهذا من حظنا طبعاً، من يضعون في وجه داهية مثل سبيرس؟ إنهم يضعون المسيو هللو، خمارة متنقلة، يعرفون أنه يثور بسرعة فيثيرونه كل يوم، وشكراً للمسيو هللو فإن أخطاءه وحدها تشعل الحركة الوطنية في البلاد، حتى الذين يريدون بقاء فرنسا تحرجهم سياسات هللو وتصرفاته. مسكين المسيو هللو، فهو لا يدري كم يساعدنا».

زاد كل ذلك في حيرة يمنى وإن يكن زاد أيضاً في معرفتها، لكن إلى الآن لم يقل رياض ماذا يريد حقاً، تطلع في عينيها البعيدتين وسط هذه الأضواء الخافتة فقرأ تساؤلها، قال:

ـ دعيني أكمل قبل أن نصل إلى الهدف من هذه الزيارة. البلد منقسم يا يمنى، كل لبناني، أكرر، يريد أن يصبح رئيساً، لقد كان جبران خليل جبران أشهر كاتب في أميركا ومع ذلك كان يريد شيئاً واحداً، وهو أن يصبح رئيساً على لبنان، كانت كل أميركا تشتري كتبه وتصغي إلى عظاته. أما هو فكان يقدم نفسه على أنه أمير من الهند أو أمير من لبنان، وسوف تعجبين عندما أبلغك أنني أخبرت في باريس بأن فرنسا كانت تؤيد رئاسة جبران وأن وسيطه الأكبر في الأمر كان الرئيس السابق أيوب تابت.

قالت يمنى: «هذا مستحيل»، وبدا النبأ وكأنه فاجأ تقي الدين أكثر من يمنى، فتساءل متعجباً: «هل يعقل ذلك يا رياض بك؟ أليس من المحتمل أن يكون الفرنسي الذي أبلغك قد خدعك؟».

ـ لا، أجاب رياض بك، إنني أعرف ذلك تمام المعرفة، ولو لم تخنه كبده المقروحة لربما عاد جبران خليل جبران رئيساً إلى «مارسركيس» بدلاً من أن يعود جثماناً، لكن موضوعنا هنا ليس جبران، لقد تحدثت عن الرئيس أيوب تابت من أجل أن أثبت نقطة مهمة أريد أن تنقليها إلى الشيخ بشارة، كان أيوب تابت أفضل رؤسائنا الإداريين، نظيف الكف، عفيف النفس، لكن ولاءه لفرنسا أساء إليه، أريد أن أقول إن الرجل كان بروتستانتياً، وبترو طراد، المتخرج من باريس في العشرينيات، كان أرثوذكسياً، وقد عرض الفرنسيون الرئاسة على المسلم محمد الجسر. فإذا كان الشيخ بشارة يعتقد أن الرئاسة كرست للموارنة، الطائفة الأكبر بين المسيحيين، فيجب أن يعرف أن ذلك لا يكرس إلا في حل وطني وشراكة وطنية، الانتداب ينتقي ما ومن يناسبه. أما الميثاق الوطني فنحن فقط الذي نضعه، وقبل أن نتفق على الهدف يجب أن نتفق على الطريق، لا يمكن الوصول إلى أي هدف من الفراغ، ويجب ألا نسقط معاً من اللحظة الأولى، لابد من أن نبني جبهة تصمد في عملية الانتقال.

قامت يمنى إلى النافذة فرأت المطر لا يزال ينهال عليها، وشعرت بشيء من الذنب، لأنها، بصفتها امرأة، لم تكن تفكر في تلك الأشياء.

من أين يأتي هذا الرجل بكل هذه المعرفة؟ كم من الوقت يمضي في متابعة التفاصيل الكبرى فيما هو يبدو للآخرين وكأنه يمضي الوقت مع جماعته ومحازبيه الذين لا يفارقونه؟

رنت ساعة الجدار الثامنة وكأنها تعلن ساعة متأخرة من ساعات ما بعد منتصف الليل، ودخلت سعاد بالفستان الأسود ذي القبة البيضاء ومعها فناجين القهوة ووعاء ماء الزهر، وقد وضعت على «صينية» واسعة فرحة الرسوم، طيور تشبه البلابل التي كفت في الخارج عن الغناء، لم يترك هطول المطر فسحة لأي صوت آخر.

- «شيئان يجب أن يعرفهما الشيخ بشارة»، قال رياض بك ينهي الاستراحة القصيرة من هذا الدفق السياسي الحاد اللهجة: «الأول، أننا قد نضطر إلى العنف. الثاني أننا يجب أن نعلن جبهة واحدة تنهي حالة الانقسام، يجب أن تتضح المواقع».

قالت يمنى بالبراءة السياسية نفسها:

- لكن، رياض بك، كنا حتى الآن نعتقد أنك صديق إميل إده.

- مازلت صديق إميل إده، السياسة ملعب كرة، إميل إده في الجانب الآخر. كان صديقي قبل أن نبلغ مرحلة القرار، في مرحلة ما، في لحظة ما، تتغير الأشياء في حياة الرجال وعلى

المرء أن يقرر موقعه، خيار إميل إده هو الذي أبعده عنا، هذه المسألة لم نقررها نحن.

تدخل تقي الدين، أفق رياض الآخر وبحاثته غير المعلن: «قد يكون مريراً هذا الكلام يا يمنى، لكنه الحقيقة، نحن اليوم نشبه تماماً فرنسا، إنها منقسمة بين رجلين، كل منهما يعلن أنه المنقذ. بيتان يقول إنه أنقذها من التدمير الألماني بعدما رأى عدد الهاربين من القصف يبلغ 11 مليوناً عند بوردو، وديغول يقول إن على فرنسا أن تقاتل من الخارج مهما حدث في الداخل، غريب قدر فرنسا مع رجالها، إنها تتطلع في الأزمات الكبرى دائماً إلى رجل واحد، إلى منقذ، إلى نابليون بعد الثورة، إلى أدولف تيير Thiers بعد هزيمة 1871، إلى كليمنصو عام 1917 من أجل أن تتحاشى هزيمة أخرى، إلى بوانكاريه 1926 من أجل أن تربح الفرنك، والآن تقسم نفسها بين رجلين، بيتان وديغول، من منهما سوف يربح»؟

قال رياض بك: «ماذا فعل ديغول؟ لقد فعل عملياً الشيء الذي فعله تشرشل في بريطانيا، إنه يفرض على طبقة سياسية متهالكة متراخية، العمل والعرق والدماء، الإنقاذ بالاستسلام أو الإنقاذ بالصمود، تلك هي المسألة، إن قاعدة المفاوضات الأولى مع فرنسا الحرة، يجب أن تكون هكذا: هل تريدون أن نكون أحراراً أم بيتانيين، هل تقبلون أن ترفعوا راية المقاومة وتدوروا بها في كل مكان وترفضوا لنا الاستقلال؟».

قام رياض بك وتقي الدين والمطر لم يتوقف بعد. ولم يتأمل اللوحة عند المدخل هذه المرة، بل خرج على عجل، وعندما انطلقت سيارته من الحديقة تنبه تقي الدين إلى أضواء سيارة بيجو سوداء تتبعهم، فقال لرياض بك ضاحكاً: «الحماية مؤمنة».

في منزل رياض بك في الجانب القديم الآخر من بيروت، كان «الشباب» ينتظرون في شيء من القلق، الطرقات شديدة العتم والظلام الشديد مرعى الزعران والنوايا السيئة، وهو لم يبلغهم إلى أين ذهب ولا متى يعود، لقد أبلغ فقط «أم البنات» ولا أحد يجرؤ على أن يسألها، تلك كانت حلقة رياض، مجموعة من الصحافيين والمحامين والقبضات أيضاً. وكان يلونها بحضوره دائماً «أبو عفيف» الشخصية التحدرة من عشايا القرن الماضي: قبضاي يقلده جميع قبضايات المدينة، نموذج البيروتي الذي وجد لنفسه موقعاً من خلال اختلافه الوحيد عن الآخرين: الجرأة، تجرأ على العسكر التركي فصارت له هيبة يخافها أو يقدرها الآخرون، ممتلىء الجسم، معقوف الشاربين، ملتوي الطربوش، مذهب القنبار، حذاء يلمع باستمرار، مسدس فضي نصف ظاهر ونصف مخفي بحيث يراه الذي يجب أن يراه ولا يراه من لا يحب أن يراه، وأركيلة طهمازية تسبقه إلى المقهى حيث يتحلق الرفاق حوله وهو يلعب الطاولة، أو يصر على النوادل، أو يأمر بأن تصلح الجمرات فوق التبغ العجمي المعسل، أو يداعب مسدسه، أو يحدث الجميع، في صوت عال أجش، عن أحوال العالم وخبرات الدنيا، دائماً في صوت عال، دائماً في لهجة بيروتية لا

تخطئ، فـلا يجـوز للرجل أن يخـفض صـوته ولا للرجـولة أن تـرخم لهجتها، ولا لأبي عفيف أن يفقد شيئاً من صورة القبضاي الذي يبعث من حوله مشاعر الرهبة.

تململ أبو عفيف يريد أن يقول شيئاً ما، ثم تراجع، وتولى سعيد إلهاء الجـميع قليـلاً بإضـفـاء جو من المرح على الـوجوه القلقـة، وأخذ يحـاور عليـاء، الابنـة الكبـرى، التي بدا عليـهـا ذلك القلق الطفـولي بوضوح، وفجأة أطل رياض بك، يسبقه المرافقون، ولم يجرؤ أحد على معاتبته، إنه هنا الآن.

قال رياض بك إنه أمضى وقتاً طويلاً في الطريق إلى البيت بسبب المطر والحفر والفيضان الذي يغرق بيروت، ولذلك لم يسمع نشرة التاسعة. فهل سمعها أحد؟ كالعادة تقدمت مساعدته الصغيرة علياء، بفستانها الكحلي الطويل، وأبلغته أنها سمعت في أخبار البي، بي، سي «أن الأميرال دارلان قد اغتيل في الجزائر».

دارلان؟ ماذا يعني ذلك للشرق؟ ماذا يعني الاغتيال للبنان وسورية؟ أراد تقييماً سريعاً من تقي الدين:

ـ لم تعد فرنسا الآن ثلاثة أجزاء، على الأقل اطمأن ديغول إلى إنه يستطيع أن يضم جبهة أفريقيا الشمالية، دارلان لم يذهب إلى الجزائر من أجل بيتان، بل ذهب إلى هناك لحسابه الخاص، وبعضهم يقول لحساب الأميركيين، إننا ننسى جميعاً أن الأميركيين بدؤوا يطرقون أبواب العالم في كل مكان، وعلاقات

ديغول بهم مثل علاقاته بتشرشل بدأت ممتازة وأصبحت سيئة الآن، أما إذا كنت، رياض بك، تسألني عن تأثير اغتيال دارلان في وضعنا، فلست أرى ذلك التأثير الحقيقي، لقد كان لفرنسا فيشي هنا نحو أربعين ألف جندي ولم يبق منهم لفرنسا الحرة أكثر من ستة آلاف، سيمضي وقت طويل قبل أن تجمع فرنسا الحرة صفوفها هنا، يجب أن يعرف الفرنسيون أن من الأفضل أن يخرجوا كانتدابيين: لكي يبقوا كأصدقاء، إن هذا المشرق سوف يتعبهم أكثر مما يعتقدون.

تطلع رياض بك باسماً في «أبو عفيف» ورأى في وضوح أنه متألم من الجوع أكثر مما هو معني بحادثة دارلان، لذلك قال ضاحكاً:

ـ قوموا بنا إلى العشاء.

انفرجت الأسارير، وقد عاد رياض بك، وما إن جلسوا جميعاً إلى العشاء حتى قال زهير:

ـ أريد أن أروي لكم أهم حادثة وقعت في حياتي اليوم، لقد كنت عائداً في سيارتي من عاليه هذا الصباح وصندوقها مليء بالأسلحة، قلت في نفسي، في هذا المطر لن تكون هناك حواجز، لكن ما إن وصلت إلى فرن الشباك حتى رأيت عدداً كبيراً من رجال الشرطة، ولم أعد أستطيع لا التقدم ولا العودة، لقد شعرت أنني علقت، وفي النهاية قررت أن أمتحن شجاعتي ووطنية ضابط الحاجز، فترجلت وذهبت إليه مباشرة، وقلت له

في صوت عال أمام رجاله: هل أنت لبناني؟ قال: طبعاً، قلت: هل أنت وطني؟ قال: لا أريد دروساً منك في الوطنية، قلت: معي في هذه السيارة سلاح من أجل معركة الاستقلال، فما هو قرارك؟ قال: قراري أن تسير في سبيلك وأن تخفض صوتك قليلاً على الأقل، فضحك رجاله وضحكنا جميعاً ومضيت.

وضحك رياض بك حتى استلقى، وقال لزهير: إذا توليت حضرتك أمر السلاح، فهل نعين أبا عفيف مراسلاً «للاثنين»؟ وانتهى المساء ضاحكاً برغم العتم والمطر والأخبار والتوقعات.



إنكليز وفرنسيون
أصدقاء وأعداء

30 كانون الأول 1942

السيارات الفخمة تتوقف أمام مقر الجنرال إدوارد سبيرس، الواحدة تلو الأخرى، ومنها تخرج النساء بلباس السهرة الطويل فيتعثرن قليلاً «بالرفاريف» العالية، فيساعد الرجال الزوجات على تعثرات الأناقة. كان الجو صحواً كأن بيروت في يوم ربيعي وليست في أواخر أول وآخر كانون من العام الذي جاءت لتوديعه على أنغام الفرقة الموسيقية التي استعارها المستر سبيرس من مقهى «الأيف». إن بعض الرجال سوف يشعرون بحرج شديد عندما يرون عازف الكمان أنجيلو، يؤدي ألحانه وهم هذه المرة برفقة زوجاتهم، لقد اعتادوا على سماع أنغام أنجيلو على الشرفة البحرية في «الأيف»، تزيد من رقة الأنسام المحلقة من فوق البحر، وتساعدهم على اختراع الأكاذيب الجميلة في ليل بيروت القصير، الخاطف، الذي يبدأ متأخراً وينتهي مبكراً، قبل أن ينتهي أنجيلو من بث الأنغام والتقاط الهبات، من خلف أكتاف رفيقات، ما أوحش الليل بلا أنسام!

كان محرجاً وجود أنجيلو وفرقته في وجود السيدات الكريمات، وقد تنحنح الرجال جميعاً عندما شاهدوه، كأنهم يتوسلون السترة، وتصنعوا جميعاً بأنهم لا يعرفونه من قبل، وقد تفهم أنجيلو وفرقته

الوضع قدر المستطاع، وكان ينحني فوق كمانه بطريقة توحي بالاطمئنان لجميع المتضررين والمتخوفين.

كان إدوارد سبيرس، يرقب كل شيء بطرف عينه، ويضحك، لقد نجح في تكريم ضيوفه وإحراجهم معاً.

لم يكن في الباب الخارجي سوى الحارس الهندي، بثياب «الغوركا» العسكرية، وهو أيضاً أصبح يعرف الكثير من الوجوه البيروتية الآن، لكن مهمته الوحيدة هي الحراسة والصمت، وإذا كان من دلالة في وجود هذا «السيخ» الملتف الشعر على باب رجل بريطانيا في المشرق، فهي مدى ما تعنيه الهند للإمبراطورية، إنها الامتداد الآخر للتايمز، الامتداد الأكثر حرارة، وكل شيء يدور في لندن لا يأخذ في الحساب لندن وحدها، بل دلهي وبومباي وكالكوتا، هناك الهند، وهناك الطريق إلى الهند.

المشرق، شيء ما في الطريق إلى الهند، لكن الطريق إلى الهند ليست في هذه البساطة، ففي البداية كان لا بد من العراق وعدن والخليج: لأن الطريق إلى الهند بحري، أما الآن فالطائرة اختطت لنفسها طريقاً غير متوقع في الأجواء، ولا بد من حمايتها، كلما اتسعت الإمبراطوريات كبرت همومها وكثرت نقاط ضعفها وزادت سرعة العطب، لقد استعمر الإنكليز عدن من أجل أن تكون قاعدة للفحم الحجري، والآن يريدون قواعد تهبط فيها الطائرات وتقلع: من أجل حماية الوجود في العراق لا بد من قواعد في الأردن، من أجل الأردن لا بد من قواعد في فلسطين. أفٍّ. إنها سلسلة لا تنتهي.

أرسل إدوارد سبيرس إلى المشرق من أجل أن يضمن استمرار الحضور في المشرق، لا تريد بريطانيا البقاء العسكري في سورية أو لبنان. وقد حدد ذلك صديقه ورئيسه ونستون تشرشل بكل وضوح أمام مجلس العموم، لكنها تريد أن تظل كل الطرقات مفتوحة ومضمونة حول الطريق إلى الهند، لا تريد أن تترك شيئاً للألمان في هذه الحرب المصيرية حول هوية العالم: من جهة السويس والطريق إلى النفط ومن جهة المتوسط والطريق إلى اليونان وإيطاليا وأوروبا، كل أوروبا تقريباً. فالإمبراطوريات مثل النسور الخرافية، متعددة الأجنحة، كثيرة القوائم، كلما ثقل جسمها نبتت لها أجنحة جديدة، وكلما نبتت أجنحة جديدة ازدادت سرعة العطب.

الجنرال سبيرس لا يريد أن يفكر في ذلك الآن. إنه يريد، الآن، أن يقدم لبيروت أفضل حفلة شهدتها، خصوصاً في حضور ضيفه العزيز جان هللو، هل يصل هللو مخموراً؟ لا، وصل هللو غاضباً، فهو يعرف تماماً ماذا يريد المقيم البريطاني من هذه الحفلة ومن غيرها، لقد تحول الرجل الذي سمي في الثلاثينيات في مجلس العموم بأنه «نائب باريس» تحول إلى كاره لفرنسا، وتحولت صداقته المطلقة لديغول إلى إحدى أشهر روايات العداء الشخصي والسياسي في التاريخ.

قصة ديغول وسبيرس بمفردها، دراما شخصية في عالم السياسة، فالجنرال الإنكليزي الذي حارب في المارن الحرب العالمية الأولى هو الذي هرّب بطائرته العسكرية مؤسس فرنسا الحرة من بوردو قبل لحظات من اعتقاله، لكن ما إن أصبح في لندن حتى وضع ديغول

فرنسا فوق كل اعتبار. وكان عليه أولاً أن يتحرر من الولاء، أو بالأحرى من الوفاء للرجل الذي نقله من بوردو فيما كانت فرنسا كلها تدخل معتقل فيشي وذل الاحتلال. ألم يكن بالمرستون هو الذي قال لا صداقات دائمة في السياسة؟

بدا إدوارد سبيرس بطقمه الرمادي وربطة العنق الداكنة والشعر الأملس اللماع، إنكليزياً تقليدياً خارجاً لتوه من مقر حزب المحافظين. أما الليدي سبيرس، بالتايور الفاتح والشعر المكوي الأطراف والقامة الطويلة شبه المملوءة، فقد بدت هي أيضاً اميركية تقليدية، لكن ليس من فلاحي «الغرب الأوسط» الذين كان الجنرال يزدريهم أشد الازدراء، على أنها لم تكن الشخص الأميركي الوحيد ذلك المساء، كان سبيرس يقول ضاحكاً باستمرار «إنك لا تحب الهواء الذي يطير قبعتك»، عندما يتحدث عن الأميركيين القادمين حديثاً إلى المنطقة. لقد شعر بالدهاء السياسي والتأمل العسكري، إن الأميركيين بدؤوا حول العالم السعي إلى وراثة الإمبراطوريات المتعبة. لذلك عندما دخل الوكيل الديبلوماسي الأميركي المستر وودسورث الحفل. لم ينتبه أحد إليه سوى الجنرال سبيرس.

تطلع المستر وودسورث حوله بين الحاضرين يبحث عن وجه هادئ يتحدث إليه. كان الجمال وافراً في كل الزوايا، وتطلع في الحلقة التي تتصدرها يمنى فتذكر شيئاً من «غاربو» واتجه في هدوء لكي يقدم نفسه. لم يعنِ الاسم شيئاً كثيراً لأحد، واخذ البعض يسأله عن اقرباء مفتربين في أميركا أو عن جنود يحاربون في صفوفها. لكن بدا أنه لا

يعرف أحداً منهم، هو، على العكس، من يريد أن يطرح الأسئلة، ويريد أجوبة سريعة وعاجلة، الأميركيون لا يملكون الوقت ولا الأناة، ألم يقل موفد روزفلت لرئيس الجامعة الأميركية بريان دودج قبل أشهر فقط: «أخبرني ماذا يدور من خلاف بين الإنكليز والفرنسيين، معك ربع ساعة كاملة من أجل ذلك»!

قطعت الليدي سبيرس الحوار مع مواطنها المستر وودسورث، وراحت تتفقد ضيوفها حلقات حلقات. توقفت قليلاً عند يمنى، تحييها بإعجاب المرأة وغيرتها معاً، ثم وجهت كلامها إلى وودسورث بشكل مفاجئ ومتعالٍ، شديد التعالي:

- أعتقد أنه قبل أن ترسل حكومتك القناصل إلى بلدان العالم يجب أن تلقنهم شيئاً من السياسة والدبلوماسية، ففي هذا الحقل لا مكان لمحدثي النعمة والقرويين. أريد أن أخبرك أنه لولا زوجي لكانت أزمة كبرى قد وقعت بين واشنطن ولندن وهذا ليس أوانها.

وتساءل المستر وودسورث بصدق ظاهر ماذا تكون تلك الأزمة التي لا يدري عنها شيئاً؟ فعادت الليدي سبيرس توضح:

- لقد قبل مواطنك ومواطني، سعادة القنصل العام، لجوء الرئيس اللبناني ألفرد نقّاش بحجة أنه يخشى أن يقدم الجنرال سبيرس على اعتقاله، منذ متى كان الوزير البريطاني يعتقل رؤساء الدول؟ إذا كانت للسيد نقاش أسبابه في أن يخاف فإننا لا

نعرفها، بل على العكس، كان الجنرال سبيرس يعتقد دائماً أن النقاش سياسي جم الأدب والخلق بصرف النظر عن ولائه للفرنسيين، إن ذلك أمر يعنيه وحده، لكن تصرف القنصل الأميركي يوحي بأنه لم يخرج من الريف إلى المدينة بعد .

تلقى المستر وودسورث سيل الإهانات بابتسامة هادئة، وأقر مع الليدي سبيرس بأن القنصل لا يزال فلاحاً برغم فترة عمل قصيرة في باريس، لكنه لم يقرها بأن التصرف كان خاطئاً :

- نحن ننظر إلى الرئيس نقاش على أنه أسدى خدمة سياسية ووطنية كبرى لبلده وللحلفاء، عندما أعلن بيروت مدينة مفتوحة ورفض أن يحولها إلى ساحة مواجهة بين قوات فيشي وقوات فرنسا الحرة، لقد كان ذلك قراراً حكيماً على مستوى عال، وعندما يطلب رجل في مثل هذا المستوى اللجوء السياسي لا بدّ من أن نأخذه في الاعتبار والاحترام.

ثم أضاف ضاحكاً:

- أما كون الجنرال سبيرس يوحي بالخوف والسطوة، فأعتقد أنه أمر لا تجهله مواطنتي العزيزة الليدي سبيرس.

تقدم نحو الحلقة من بعيد كولونيل فرنسي طويل القامة، نحيل الجسم، يرصع قبعته بالخيوط الذهبية وصدره بالأوسمة، واستأذن المتحلقين بأدب، داعياً يمنى إلى حلبة الرقص، واستأذنت يمنى

بدورها لكي تقبل دعوة الرجل الغريب، وعلا صوت الموسيقا والفرقة تعزف «البوليرو»، مكررة مقاطعها التي تعلو شيئاً فشيئاً. وما إن أصبحا في الحلبة مع بقية الراقصين حتى بادر الكولونيل الفرنسي رفيقته بالقول:

- إنني أعرفك و لا تعرفينني، أراك دائماً لكنك لا تلحظين وجودي.

❊ كيف ذلك؟

- أنا جاركم في المنزل المقابل، وقبل أن أنتقل إلى السكن هناك طلبنا تقريراً مفصلاً عن الجوار. وقد سألت بصورة خاصة عن أصحاب حديقة اليوغانفيليا.

❊ والآن عرفت؟

- الآن عرفت! إننا هنا هذا المساء من أجل استقبال العام المقبل ولن أزعجك بالأحاديث السياسية، لكنني أتمنى أن تسمحي لي بزيارتك، لا شيء شخصي في الأمر، أنت تعرفين أن كل هذا العالم على مفترق.

جميعنا على مفترق، فرنسا على مفترق، لبنان على مفترق، الكبار والصغار.

اعترضت يمنى ضاحكة:

❊ هذه المفترقات لها رجالها، كما تعرف.

ـ أجل، لكن تأثير النساء عظيم هو أيضاً، انظري إلى الليدي سبيرس، انظري إلى هذا الجمال الذي تجره خلفها السيدة شمعون. إن القاعة منقسمة بين سحرك وجمالها، ألا يبدو ذلك واضحاً؟

☉ ليس تماماً، إنني لم أنتبه إلى الأمر، وما زلت أعتقد أن الناس ليسوا مشدوهين إلى هذا الحد، وفي المناسبة، أليست زوجتك بين الحضور؟

ـ عائلتي لم تصل من فرنسا بعد، إنها الآن في مرسيليا تنتظر الباخرة التالية. لقد عطلت الحرب كل شيء و عقدت كل شيء، إنني أشعر بالخجل؛ لأن فرنسا تبحث عن شيء من الخبز والزبدة و نحن نرفل هنا بالترف.

☉ لكنكم تقاتلون! هذه مكافأتكم.

ـ إننا نقاتل بعضنا بعضا. منا من يقف مع ألمانيا من أجل ألا تموت فرنسا ومنا من يموت من أجل ألا تموت فرنسا.

في أي حال، هل أستطيع زيارتك؟

☉ لم تقل لي لأي سبب!

ـ أليس واضحاً لك بعد؟ إننا نريد أن نقنع الشيخ بشارة بأن يتمهل قليلاً في طلب الاستقلال، إنكم تعقّدون كل شيء، ونحن نفضل أن نخرج من هنا كأصدقاء، إذا كانت الهند جوهرة التاج البريطاني فإن لبنان ياسمينة الجمهورية الفرنسية، لا بد أن نأخذ الأمور بالروية.

قالت يمنى وهي تترك الحلبة بأدب واستئذان:

☉ لا أعتقد أن الشيخ بشارة سوف يقبل هذه اللغة، ليس مني ولا منك ولا من أحد. أعتقد أن الاستقلال قد بدأ.

اعترض الكولونيل الفرنسي الطويل القامة:

ـ الشيخ بشارة سوف يصغي إليك، أنت صديقة يحترمها، وتأثيرك فيه كبير، إننا نعرف ذلك جيداً، الجميع يعرفون ذلك، لا أسرار في هذه المدينة.

انتهت الرقصة وعاد الكولونيل الفرنسي يرافق يمنى إلى حلقتها فوجد الجنرال سبيرس يحادث أفرادها. كأنه تعمد أن يسبق الكولونيل:

ـ هذا أمر مسلٍ حقاً، فرنسا الحرة تستخدم المفوضية البريطانية من أجل استمالة اللبنانيين!

وضحك الجميع للدعابة، إلا الكولونيل الفرنسي، فقد تظاهر بأنه لم يسمع ولم يفهم، وترك إلى حلقة أخرى لا يكون فيها الجنرال سبيرس حاضراً، لكن سبيرس كان في كل مكان، في كل المشرق، من القدس إلى بيروت، مروراً بدمشق، ومعه دائماً الليدي سبيرس، درءاً لكل الشائعات، لكن عين وزير التاج على الحسن اللبناني كانت واضحة ومقروءة تماماً، وكم سمع يقول، هو القادم من جميلات باريس... وأريستقراطيات لندن. إن «هذه أجمل امرأة شاهدتها في حياتي»، مرة كان يقصد ابنة ألفرد نقاش، الرجل الذي احترمه ولم يَخَفْه، ومرة يقصد يمنى، ومرة يقصد أي امرأة في هذه المدينة الصغيرة التي تفوح منها كل مساء روائح الياسمين وتملأ بساتينها أزهار الليمون.

إنها أمسية غير عادية، لم يتعب أحد من الرقص، لم أجد سوى الخدم الذين كانوا يحملون صحون الأطعمة كما تحمل الجمال أحمال المياه، ومعظم الأحاديث في أي حال كانت حول النقص الشديد في القمح وعن التجار والاحتكار، وقال رئيس الجامعة الأميركية المستر دودج موجهاً الكلام إلى يمنى، إنما بحيث يسمع الجميع:

ـ لقد عرفت أنا نفسي بعض حوادث الموت جوعاً، يجب أن تفعل هذه الخطوة شيئاً ما، سهول سورية تفيض بالحبوب وبعضهم هنا يجوع، هذه سياسة الاحتكار.

لماذا كل من أراد أن يقول شيئاً يوجه كلامه إلى يمنى؟ حتى هذا الوقور، المستر دودج، طرحت يمنى السؤال بشكل ضاحك، لكن بطريقة لا تخلو من الخوف أبداً، لقد أسعدها أن تكون محط الاهتمام، لكن ذلك أقلقها أيضاً، ماذا تريد منها كل هذه العيون؟ ماذا تريد هذه العيون أن تقول؟

عاد الجنرال سبيرس إلى هذه الحلقة مرة أخرى، وهذه المرة هو الذي بدا متأثراً قليلاً بفعل الخمر بدلاً من المسيو هللو، وقال بشيء من الفظاظة وبلا مقدمات كأنه يكمل حديثاً سابقاً:

ـ عجيب أمر هذه المدينة، إنها في حجم ضاحية من ضواحي لندن، ومع ذلك فإن فيها كل مذاهب العالم، وهي في حجم دائرة من باريس ومع ذلك تتصارع عليها كل قوى العالم، إليكم ما

حدث في هذه السهرة: الفرنسيون والأميركيون ونحن، نحاول استرضاء اللبنانيين.

انظروا إلى كاميل شمعون في الجهة الأخرى كيف يرقبنا، انظروا إلى سامي الصلح يكاد الفضول يفقده وقاره وهو يريد أن يعرف إن كان هناك من طبخة سياسية ما، ما رأي يمنى في الأمر؟ هل تعتقدين أن في المسألة طبخة ما؟

ضحكت يمنى في صوت عالٍ، وقالت مازحة:

❁ اسمعوا من يطرح هذا السؤال، كبير الطباخين يدعي أنه لا يعرف شيئاً!

لم تضحك الليدي سبيرس، الدعابة ممنوعة بين الشعوب الصغيرة والدول الكبرى، وشعر الجنرال سبيرس بالحرج فتعمّد إنقاذ الموقف بدعابة أخرى، وتطلع إلى الزاوية البعيدة فرأى المطران مبارك، بقامته القصيرة وقلنسوته الحمراء، وقال ضاحكاً:

ـ المطران مبارك يعمل في السياسة طوال الوقت ويصلي في أوقات الفراغ، إنني أستقبل من رجال الدين في مكتبي أكثر مما أستقبل من رجال السياسة، من جميع الطوائف.

ازداد الضجيج في القاعة، وبدأ منتصف الليل يقترب ومعه يقترب العام 1943 وفجأة انقطعت الكهرباء وعلت الأصوات، وقال الجميع إنها غارة مقبلة، لكن الجنرال سبيرس أمر الخدم بالشموع، مطمئناً

ضيوفه إلى أن لا غارة في المسألة بل هم الفرنسيون قطعوا التيار، ونادى على رئيس الخدم وقال له، كأن شيئاً لم يحدث: إذا طلب الضباط الأستراليون المزيد من الكحول، حاولوا أن تتحاشوا ذلك، إنهم قادرون على تحطيم كل شيء.



استُقبِل العام 1943 على أضواء الشموع، وتبادل الجميع التهاني والتمنيات بأن يكون هذا عام الاستقلال، وكان المسيو هللو قد خرج مبكراً. وكذلك فعل الكولونيل الفرنسي، وبدأت الفساتين الطويلة تسحب نفسها وتخرج، بحيث لا يبقى سوى المقربين من الوزير البريطاني، وأرادت يمنى وزوجها الاعتذار. إلا أن الليدي سبيرس أصرت على أن يبقيا:

ـ ما هي إلا ليلة بين عامين، لا قيمة للزمن عندما يكون بين زمنين، لا قيمة للمراحل عندما تكون بين مرحلتين.

صغرت الحلقة كثيراً وبقي كميل شمعون بأناقته وبقيت زوجته زلفا التي لم يكن الجنرال سبيرس يخفي إعجابه بعينيها الزرقاوين العميقتين، ولكن بشيء من التعالي، كأنما يستكثر على امرأة في هذا الجمال أن تكون من هذا البلد الصغير، لقد رأى نفسه مغرقاً بجو أريستقراطي يماثل نوادي لندن العريقة، وكان حائراً من أين يأتي اللبنانيون في هذه الساعات الحالكة بكل هذه الفخامة التي تحيط بهم؟

تناقصت حلقة الساهرين أكثر فأكثر، وظلت عينا يمنى المتأهبتان بكامل خضرتهما وظلت أهدابها المتباعدة ترسل الغوى بعفوية طاغية وبساطة مفحمة، وقطع الجنرال سبيرس الطريق على النعاس المحتمل عندما فاجأ أواخر الضيوف بالقول:

ـ إن بيروت مليئة بالشائعات حول مقتل أميرة الأطرش، الإنكليز قتلوا أسمهان، الإنكليز دبّروا الحادث لغرق أسمهان ورفيقتها التي قيل إنها أميرة هنغارية.

تساءلت يمنى: «هل هي حقاً أميرة هنغارية؟».

ـ ليست حتى امرأة عادية من هنغاريا أو من أي مكان في أراضي الإمبراطورية السابقة، إنها امرأة عادية من هنا طاب لها الانتساب إلى هنغاريا، لماذا؟ لا أدري، ربما لاعتقادها أن أحداً لا يتكلم اللغة المجرية، أما لو زعمت بأنها فرنسية فلن تستطيع أن تخبئ الأمر طويلاً.

ثمة من سأل: «ما هي حكاية أسمهان يا جنزال؟ من يقول إن البريطانيين قتلوها؟».

ـ الجميع يقولون ذلك، أنتم هنا لا تقولون «البريطانيين» بل الإنكليز، أريد أن أعرف لماذا يريد الإنكليز قتل مغنية من جبل الدروز تعمل في مصر وأحياناً في فلسطين؟ بعضهم يقول لأنها كانت تعمل للإنكليز، فلماذا يقتل الإنكليز امرأة تعمل لهم؟

دعوني أطلعكم على التحقيقات النهائية: إن السائق يدّعي أن السيارة غرقت بالراكبتين في حين أن ثيابه لم تبلل بقطرة مياه واحدة، فكروا قليلاً بالأمر، إن هذه المرأة المدعوة أسمهان والتي لم أرَ أجمل من عينيها الخضراوين في العالم، هي ابنة عائلة كبرى وشديدة المحافظة، ويوم أرادت أن تغني من أجل أن تصرف على حياتها الشخصية الباهظة التكاليف، ارتضت العائلة ذلك على مضض، لكن أسمهان بالغت في كل شيء، ووجود أعداد من الضباط البريطانيين في حفلاتها أعطى انطباعاً معيناً.

تدخلت الليدي سبيرس بلهجتها الجازمة:

- يريد الجنرال أن يقول إن أسمهان قتلت في جريمة شرف، هذا كل ما في الأمر.

فاجأ التفسير الجميع، وفاجأهم تعمّد الجنرال سبيرس بإطلاعهم على الأمر في مثل هذا التوقيت، لماذا فعل؟ من أجل أن ينفي عن البريطانيين سمعة الغموض والقتل؟ من أجل أن يبرّئ أسمهان من تهمة العمل لحساب التاج؟ من أجل أن يؤكد القاعدة الخلقية في جبل الدروز؟ من أجل أن ينشر النفي في بيروت كما انتشرت الشائعة عن موت امرأة ارتعش لحنجرتها الشرق؟

من الصعب معرفة مقاصد رجل بريطانيا في المشرق، العسكرية والديبلوماسية في حقيبة واحدة، رجل أحب فرنسا حتى العشق وها هو يخاصمها حتى الموت، رجل طعنه ديغول وفرنسا الحرة فقرر أن

يطعنهما حيثما استطاع، وها هو الآن في بيروت، نقطة ضعف فرنسا منذ أيام الثورة.

انتقل فوراً من الحديث عن أسمهان التي لم يسأله عنها أحد، لكي يسأل يمنى فجأة:

ـ والكولونيل الفرنسي، يا عزيزتي الجميلة يمنى، ماذا به؟ لقد أظهر اهتماماً هذا المساء بالجمال اللبناني الساحر.

⊛ إنك تجرح تواضعي يا حضرة الوزير.

ـ لا، إنني أؤكد واقعاً يعرفه الجميع، لكنني أريد أن أحذرك من اللطف الفرنسي، خصوصاً ذلك الصادر من أصحاب البزات العسكرية.

⊛ لم يكن الرجل لطيفاً، كان واضحاً ومؤدباً.



ما الذي يحوّل
القصور إلى فنادق؟

24 نيسان 1943

وقفت يمنى على مدخل فندق «عمر الخيام» في الزمالك تتأمل البوابة العالية والأدراج الأثرية والأعمدة الضخمة. فيما انهمكت مجموعة من الحمّالين الفتيان بجلأبياتهم وطرابيشهم الداكنة في إنزال حقائبها من سيارة «الفورد» التي نقلتها من ميناء الإسكندرية هذا الصباح، وهرع مدير الفندق، بطربوشه الأنيق وبذلته السوداء، الطويلة السترة، الرمادية السروال، يرحب بها بلغة فرنسية فصيحة، ومن حوله مرافقان:

- سيدتي، يمنى هانم، لقد استنارت مصر، إننا ننتظرك هنا عند المدخل منذ نصف ساعة، لعلّ الطريق أخرّت وصولك.

شكرته يمنى على اهتمامه، ثم أوضحت:

⊙ الطريق لم يكن سيئاً، لكن الناقلات العسكرية كانت تسدّه في كل مكان، وأريد أن أشكرك على إرسال السيارة لنا يا «جان - بيار»، هل أنت سعيد في القاهرة؟

وتنهد «جان - بيار» فرحاً وهو يفتح الباب الزجاجي المحفور بماء الذهب أمام الشعر البني الذي عبثت به رمال الطريق وشيء من الهواء الحار، وأجاب:

ـ سعيد؟ إنني فرح هنا يا سيدتي يمنى. لم أكن أدري أنه سيكون في إمكاني أن أحب مدينة أخرى غير باريس. لكنني عشقت القاهرة. وبعد قليل سوف أتزوج، للمرة الثانية بالتأكيد، من فتاة لبنانية الأصل، آه، اللبنانيات يا يمنى هانم، يا لسحر اللبنانيات!

استلقت متعبة على السرير، لقد قدم لها «جان ـ بيار» أفخم أجنحة هذا القصر القديم. وإذا تأملت سقف الغرفة ونقوشه ورسومه قالت في نفسها: ما الذي يحول القصور إلى فنادق؟ ما الذي يحل بأصحابها؟ ما الذي يحل بثرواتهم؟

قبل عشرين عاماً تماماً، في مثل هذا الربيع، حلّت ضيفة في هذا القصر، في هذا الجناح، في هذا الجانب من الحديقة، لكنه لم يكن قد حُوِّل إلى فندق بعد، كان لا يزال قصراً يحمل اسم صاحبه، الأمير لطف الله، وهؤلاء الحمّالون اليافعون كان في مكانهم حرس بألبسة رسمية مذهبّة، وكان القصر هو العنوان الذي يهتدي به الناس في هذه الضاحية من القصور التي توزعت حول النيل كما توزعت باريس على السين.

تحاملت على الإرهاق وقامت إلى النافذة الوسيعة ففتحتها وأسندت يديها على حافتها فجاءها نسيم القاهرة مع أوائل المساء الربيعي، حاملاً ما استطاع من روائح الحدائق والبساتين وزهور الطرقات، وقطع عليها تأملها سرب من فتيات الفندق اللواتي بعث بهن «جان ـ بيار» من أجل ترتيب حقائبها، فتركت لهنّ الأمر وعادت إلى حافة النافذة العالية تخاطب القاهرة من بعيد.

لقد لاحظت، في شيء من الأسى وشيء من الحمد، أنها أصبحت في عمر يحملها دائماً على التأمل في ذكريات الأيام الماضية كلما وقفت أو مرّت بمكان عرفته قبل زمن، ولم يذكّرها القصر الذي صار فندقاً فقط بما تؤول إليه حال الأغنياء بل تؤول إليه كل الأحوال، من الشباب إلى الثروة ومن الجاه إلى السلطة، لكن ذكرى الأمير لطف الله جعلتها ترتعد قليلاً، من دون أن تدري سبباً.

عندما سألت إدارة التشريفات في الخارجية المصرية عن الفندق الذي تنصحها به، لم يخطر في بالها إطلاقاً أن قصر لطف الله قد حوّل، بكل حدائقه وأجنحته، إلى فندق، وآخر ما سمعت عن الأمير هو ما كانت تضج به بيروت من نكات وشائعات عن مغامراته السياسية والاجتماعية، فقد عاد الرجل إلى موطنه الأم بعدما أقنعه رجل أو أكثر، أو ربما بعدما أقنع نفسه من دون مساعدة أحد، أن لبنان يبحث عن رئيس للجمهورية، فجاء من مصر في «قطار الشرق» كما يسافر الملوك، وكانت له في القطار ثلاث حافلات غطيت جدرانها بالمخمل الأحمر والأخضر، وقد وُضِعَت في إحدى الحافلات صناديق الذهب وثياب الأمير، وفي حافلة سافر الخدم ورئيس الخدم، وفي حافلته كانت مساعدته الفرنسية ومدير القصر الإيطالي وعازف الكمان اليوناني الذي يلجأ إلى جعبة شوبان وباغانيني كلما دبّ السأم في الأمير، وكان العازف «خريستو» يعرف ذلك بمجرد أن يضع الأمير لطف الله يده اليمنى في جيب «روبه» الأحمر وينفض بعصبية

السيجارة من حاملها العاجي الرفيع الذي تغير لون أطرافه من كثرة ما مرّ به من نيكوتين، فوراً، كان يتناول خريستو كمانه بسرعة ويبدأ بشيء من باغانيني، وعندما يشعر أن سيده هدأ قليلاً ووضع السيجارة وحاملها العاجي في المنفضة إلى جانبه، كان ينتقل إلى أي موسيقي آخر، ويظل يتنقل إلى أن يطلب الأمير من رئيس الخدم إبدال سترة «الروب» الحمراء بسترة الطقم، عندئذ، يبدأ فصل آخر في نهار الأمير، ويضع خريستو كمانه على كنبة قريبة في حال تأهب.

لم تخرج الناس في بيروت وحدها للتفرج على الحافلات الثلاث في قطار الشرق، بل ثمة من وزع الكلمة في القدس وفي حيفا وفي صيدا، حيث أمضى الفضوليون نزهة الأحد في انتظار مرور القطار، وفي كل محطة كان الأمير لطف الله يترجل ويقف على درج حافلته وخلفه مساعدوه وخدمه وموظفو «الأورينت إكسبرس» بقبعاتهم الكحلية الواسعة التي ألصقوا عليها ما شاؤوا من نجوم ورتب، ومن بعيد كانت الشرطة العسكرية البريطانية تراقب وتتظاهر بأنها غير مهتمة بذلك.

لم يبق شيء من زهو الأمير لطف الله في حدائق الزمالك، لم يبق سوى الستائر الثقيلة المتدلية من أعالي النوافذ وبعض الكنبات والأسرة التي تركت للفندق وسجادة الدرج العريض، العريض، كأنما مهندس القصر أو صاحبه كان يشكو من مرض ضيقِ الأمكنة فجعله في عرض خط العرض.

عـاد الأمـيـر لطف الله من بيـروت بـعـد إقـامـة غـيـر طويلة بطريق البـحـر، وبلا حـافـلات مـخـملية، ولم يكن في وداعـه أحـد. وقد أفـرغ جـمـيع الصناديق المحمّلة بالذهب من دون أن يعرف كيف وأين. فـقـد أقنعه كل من التقـاه أن في إمكانه أن «يصنع» منه رئيـسـاً للجـمهـورية، وكان كل رجل يحذره من الآخـر. وانتهى الأمـيـر بأن صدّق الجميع ولم يَحْذَر أحداً. وعندما بانت له المسـافة الحقيقة بينه وبين رئاسة الدولة وبينه وبين الناس، كانت أشياء كثيـرة قد تبخرت، بعضها غيـر مرئي كالأحلام وبعضها أصفر كالذهب، أو ورقي، كالليرة الزرقاء العريضة، التي كانت لها جـاذبية خاصة، منفردة، أو ضـمن ربطات ذات أحـجـام مختلفة لدى الجميع.

في بيروت، كانت يمنى تعتقد أن المسألة مضحكة حقاً. ثري متقدم في السن يحلم بأن يعود من هجـرة آبائه إلى بلد الأجداد رئيساً فـيفرغ صناديقه وتذوب ثروته ويفقد شيئاً من كرامته، ويعود من حيث أتى من دون أن يستطيع أن يقـرر: هل هو الذي طعن نفسه عندما صدّق نفسه وصدّق الآخرين، أم الآخرون هم الذين طعنوه؟

كانت النتيجة واحدة: من يصدّق أحلامه السياسية يدفع الثمن، في جـروح النفس وفي حطام الصناديق الذهبـيـة، وليس مـا هو أفظع من الخيبة بالناس سوى الخيبة بالذات.

من النافـذة، والمساء يهبط بطيـئاً فـوق النيل، تراءت حكاية الأمـيـر لطف الله على أنهـا مـأسـاة لا دعـابة. هـا هـي ترى بقـاياهـا الآن. هل ستـفعل السـيـاسـة الشيء نفسـه بالشيخ بشارة؟ هل ستـؤذي رياض؟

طردت الفكرة من نفسها بسرعة، فيما بدأت مصابيح القاهرة تضاء واحدة بعد الأخرى ومصابيح الغاز على الجسور تلمع وترمي بأنوارها على سطح النيل كأنها تدعوه إلى مسامرتها تحت أشجار «المستحية» الضخمة التي تمد أغصانها وأوراقها وكأنها تحاول أن تعانقه، عبثاً.

رنَّ جرس الهاتف في الثامنة والنصف تماماً، إنه «جان ـ بيار» يطمئن: هل استراحت يمنى هانم؟ لم يغير «جان ـ بيار» لياقته منذ أن تعرفت إليه للمرة الأولى في «البرنس دوغال»، في باريس كان هو الذي يهتم بكل شيء: تذاكر اللوفر، حجوزات المطاعم، المسرحيات التي يجب أن يراها الأولاد، دور الأناقة التي يجب أن تزورها، صحيفة الصباح، كل شيء.

لقد كان «جان بيار»، بطريقته، فناناً من نوع خاص، سلاحه تهذيبه وذاكرته ولغة فرنسية أشبه بلغة أوائل القرن منها بلغة الأربعينيات، لكن الآن كان يبدو قلقاً ومتردداً في طرح سؤال ما، لا، ليس بسبب فضوله، بل محبة بسيدتي يمنى، وشعرت يمنى فوراً بمحنته الصغيرة:

⊙ لقد جئت من دون عائلتي إلى القاهرة يا «جان ـ بيار» لأن إجازة الفصح لدى الأولاد تنتهي غداً، ولن أكون هنا وحدي، فالشيخ بشارة يصل بعد يومين، لكننا نريد أن نترك الأمر سراً، وكذلك سوف يأتي رياض بك من فرنسا، وسوف تصل مجموعة من صديقاتي على باخرة الشيخ بشارة، إنهما قادمان في زيارة سرية، ونحن الأصدقاء هنا من أجل أن يبدو كل شيء اجتماعياً، مجرد زيارة لحضور «شم النسيم» في مصر.

ـ وكيف يمكنني أن أكون في خدمة سيدتي يمنى؟

☉ شكراً «جان ـ بيار»، فهذا المساء أنا متعبة،، ومساء غد أتناول العشاء أيضاً في الجناح، وبعد غد يكون الشيخ بشارة وعائلته قد وصلوا ولا أعود وحيدة.

ـ سيدتي العزيزة يمنى لن نقبل إطلاقاً بهذا البرنامج الذي لا يشمل سوى النوم المبكر والنزهة غداً في حدائق القصر، أنت ضيفتنا، خطيبتي وأنا، هذا المساء في مطعم الفندق، سهرة هادئة ليس فيها سوى وصلة صغيرة من تحية كاريوكا، غداً عند الظهر ترافقك إلى نادي الجزيرة.

☉ شكراً يا «جان ـ بيار»، هذا المساء في رفقتكما، أما غداً فإنني على موعد مع صديقة مصرية.

لم تكن السيدة المصرية، مصرية تماماً، في الثانية عشرة ظهر اليوم التالي توقفت سيارة إنكليزية فارهة أمام الفندق، عرف الجميع وجه صاحبتها على الفور عندما أزاحت الستارة الخلفية الجانبية لكي ترى ما إذا كانت ضيفتها في المدخل أم لا، وخلال لحظات كل «جان ـ بيار» يرافق يمنى من البهو إلى السيارة التي في الانتظار.

صعدت يمنى رفراف السيارة المرتفع بصعوبة ومدت يدها تصافح صاحبتها، لكن «روز اليوسف» لم تكتفِ بالمصافحة، عانقتها بدفء شديد، وإن تكن لم تشاهدها من قبل: «أهلاً بك في مصر، لقد

سمعت عنك الكثير من أصدقائنا المشتركين، القاهرة هذه الأيام بيروت صغيرة خصوصاً في صحافتها، الجميّل وتقلا في «الأهرام»، زيدان في «الهلال»، إلى آخره».

⊛ زينتهم أنت، قالت يمنى، هل أستطيع أن أناديك فاطمة، من دون ألقاب؟

ـ لا، تناديني كما يناديني الجميع: «روزا»، لم يعد أحد يناديني «فاطمة»، حتى إنني نسيت أن هذا هو الاسم الذي جئت به إلى مصر، أهلاً بك في القاهرة، أي نسيم عطر حملك إلينا؟

⊛ لن أدخل في الموضوع بعد، أريد أن أسمع عنك أولاً، إن سمعتك كسيدة وكصحافية تسحر الشرق، امنحيني فرصة التعرف إليك، أولاً.

استأذنت يمنى ثم أزاحت الستارة المخملية من جهتها قليلاً، لكي يتسنى لها أن ترى شوارع القاهرة للمرة الأولى منذ سنوات، وكانت تلك الشوارع مليئة بالجنود الهائمين جماعات صغيرة، بريطانيون ونيوزيلنديون وأستراليون وهنود.

وقالت «روزا»:

ـ إننا ننتظر باستعجال شديد نهاية الحرب، كل شبر من القاهرة يذكّرنا بأن الحرب العالمية في قلب مصر.

⊛ لقد لاحظت ذلك في الطريق من الإسكندرية، إن مصر تبدو وكأنها ساحة رئيسة من ساحات هذه الحرب.

ـ إنها تؤخر علينا الاستقلال، فطالما أن ذريعة الحرب قائمة فالإنكليز يماطلون، والشعب يتململ، والملك فاروق يتململ،لا الشعب يعرف مدى ضغوط الإنكليز عليه ولا الإنكليز يقرّون بمدى الضغط الشعبي على القصر. مسكين فاروق، مهان من شعبه ومذلّ من الاستعمار.

ولاحظت أن يمنى لم تدرك أهمية ما تقول، فأضافت:

ـ منذ أن سحب السفير البريطاني المسدس في وجه فاروق اعتبر أن ملكه قد انتهى، وفي هذا المعنى يشبه ملكنا، نابليون إلى حد بعيد، لم يذلّه أحد سوى النساء والإنكليز.

كانت «روز اليوسف» تتدفق جمالا وشجاعة وحيوية وذكاء، الآن عرفت يمنى لماذا تحقق امرأة من لبنان كل هذا النجاح في بلد مثل مصر. لقد بدا أن «روزا» تملك القدرة على اقتحام كل شيء ومجابهة كل شيء، وفي هذا العصر والزمن لم تكن هناك امرأة في مثل شجاعتها في أي مكان. ففيما كانت النساء تختبئ أو تتدلل خلف الجدران كانت «روزا» تتصدر مجالس الرجال في الصحافة وفي السياسة، وفيما كانت القاهرة تخشى في الزمن العرفي وأحكام الحرب، الملك والإنكليز وعيون الإنكليز، كانت هي لا تخشى أحداً، وكانت مكاتبها ملتقى الرجال إذا أرادوا شيئاً من الشجاعة، وكانت ملتقى الجريئات من أهل الحركة الوطنية.

تأملتها «يمنى» في إعجاب واضح وهما في المصعد إلى مكتبها في الدور الثالث، ولعل أحد أسباب هذا الانبهار أن روزا نقيضتها تماماً الأمس ومن اليوم ومن الغد، ويمنى مرهفة أمام كل شيء، تخاف العيون والآذان والألسن، تخاف العيون الحاسدة والعيون الفارغة والعيون الواشية والعيون الحاقدة.

دفقة من العطر خرجت من المصعد قبلهما، وركض الصحافيون والعمال والحجاب يحيطون بـ «روزا» ويفتحون لها الأبواب، رمت «روزا» قطعة الفراء الأبيض التي كانت ترميها بإهمال فوق كتفها، قائلة: «خلاص، بعد كده ما فيش فرو، أهوه أبريل شرّف»، ثم تابعت وكأنها تخاطب نفسها: «الشيء الوحيد الذي أفقد من لبنان هو الجبل، كل شيء آخر هنا، اللبنانيون كلهم هنا، بكل مشاكلاتهم، بكل خلافاتهم»، ثم ضحكت حتى كادت تفقع: «ولا تنسي أن تزوري الشيخ أنطون الجميّل باشا، في «الأهرام»، إنك ترين عنده كل باشاوات مصر ومع ذلك لا يدعوك إلى مطعم، بل إلى العشاء في المكتب: أقلي لك يا حبيبتي بيضتين»، وضحكت روزا من جديد، وضحكت معها يمنى، البخل يذل أشجع الرجال وأقواهم.

انتقلت «روز اليوسف» فجأة من الهزل إلى الجدية كأنها عادت إلى أمجادها على خشبة المسرح، وخيّل إلى يمنى أنها حقاً أمام «سارة برنار» عندما سألتها بطريقة تكاد تكون قاسية:

ـ ما هو السبب الحقيقي لزيارتك إلى القاهرة؟ كيف أستطيع أن أخدمك؟

كانت يمنى تتوقع، في لحظة ما، مثل هذا السؤال، لكن ليس بهذه الطريقة، وحارت كيف تجيب: هل تبقى على ودّها أم تجاري قساوة «روزا»؟ وهل هذه قساوة حقيقة أم مجرد حنين مفاجئ إلى المسرح؟

۞ لست هنا من أجل خدمة شخصية يا «روزا»، نحن نعرف نفوذك في مصر، إن معركة الاستقلال في لبنان على وشك أن تبلغ ذروتها، ونحن في حاجة إلى دعم من القاهرة ومن دمشق، نريد أن نتجنب الدماء، لبنان بلد صغير لم يعد يتحمل الكثير منها، القرن الماضي كان قرن القتل، وأوائل هذا القرن كان زمن الموت، مئة ألف في مجاعة الأتراك وفي حربنا ضدهم، مئة ألف من 450 ألف نسمة! لا نريد أن نهرق دماء كثيرة في الحرب ضد الفرنسيين، نريد استقلالاً لا حرباً، وفي إمكان مصر أن تساعد.

ـ دعينا من مصر، كيف أستطيع أنا أن أساعد؟

۞ اللبنانيون في مصر قسمان يا «روزا»، بالفقراء، وهم كثيرون، هربوا من المجاعات التركية، والأغنياء، وهم في كل مكان، ولم ينتهوا جميعاً كما انتهى الأمير لطف الله، أكثرهم ناجحون ونافذون، نريد أن نوحدهم في موقف واحد خلف جماعة الاستقلال، خلف الشيخ بشارة ورياض بك.

عادت «روزا» إلى مزاجها الضاحك:

⊛ سيبك من توحيد اللبنانيين دي! لا شيء سوف يوحد اللبنانيين على رأي واحد، ولا حتى الاستقلال، أنتم في حاجة أكثر إلى دعم المصريين.

كأنها أعطت يمنى ما تريد:

⊛ هل تساعديننا في لقاء غير رسمي وغير معلن مع النحاس باشا؟

رفعت «روزا» السماعة وقالت لعامل الهاتف بلهجة آمرة:

- اديني سعادة الباشا يا موفق!

بعد عشر دقائق رن الجرس ورفعت السماعة من جديد:

- واحشنا يا باشا، لا والله، أنت واحشنا أكثر، حتروح فين من اللبنانيين ومشكلات اللبنانيين، آه، وسحرهم برضو! زي ما سيادتك تقول، إنما قاصداك بخدمة! سلمت يا باشا، يسلم راسك يا باشا، بأقولك أيه، الشيخ بشارة عاوز يشوفك من غير هيصة، ويمكن رياض بيه ييجي القاهرة كمان، دول جماعة جديين ومش عاوزين الحكاية تبان على أنها معركة ضد رفاقهم ومنافسيهم.

صمتت قليلاً، ضحكت قليلاً، ثم تابعت:

- هوه فيه باشا غيرك يا باشا؟

أغلقت السماعة ثم ضغطت على جرس المكتب، ودخل الحاجب، فقالت له، آمرة، «نادِ الأستاذ أنور هنا»، وبعد لحظات دخل الأستاذ أنور ومعه قلمه الرصاص وأوراقه العتيقة والعرق يتصبب من تحت طربوشه، وزعقت فيه «روزا» كما تزعق كلما نادته. وبين المزاح والغضب طرحت عليه السؤال الذي تطرحه منذ عشر سنين: «إيه الكرافتة الزفتاية دي؟ تبيعها بجنيه؟».

ثم تطلعت إلى يمنى، ضاحكة، باشّة، مسرورة بما أظهرته من انتصار في مكالمتها مع النحاس، وقالت لها:

ـ جنيه إيه؟ دي كرافتة أنور فيها زيت بخمسة جنيه!

وبعدها تطلعت إلى أنور المتمتع بوضوح بهذه البهدلة، وقالت له:

«اكتب»! وراحت تملي عليه افتتاحية الأسبوع: «الرجال الوطنيون والحركة الاستقلالية في لبنان»!

هل تدرين ما هي المفاجأة الحقيقية في كل ذلك؟ قالت «روزا» للسيدة الجميلة، البسيطة، السريعة العطب،

ـ النحاس باشا لم يوافق على استقبال الشيخ بشارة، لقد اقترح أن يلتقيه في منزلي، هكذا يبدو كل شيء طبيعياً ولا يبدو اللقاء أكثر من سهرة في منزل سيدة من لبنان، ما رأيك في مساء السبت المقبل؟ وحتى ذلك الوقت تقومون جميعاً بجولة في آثار مصر، ليس أجمل من مصر في مثل هذا الوقت.

حضرت مصر كلها إلى عشاء «روزا»، كل من يحمل لقب باشا من القصر، حضر، كل من كان معجباً «بسارة برنار الشرق» على المسرح، وأصبح يخشاها الآن في دنيا الصحافة حضر! جميع الفنانين الكبار، كانوا هناك، ويوسف وهبي كان «البك» الوحيد بين الساهرين، الآخرون جميعاً كانوا باشاوات، وبدا منزل «روزا» مثل إستديو يمثل فيه فيلم معاصر عن تاريخ مصر، كل مصر كانت هناك، حتى طه حسين حمل عصاه وجاء، والعقّاد حمل قلنسوته وجاء، والزيات كان حاضراً! وبكامل أناقته وشبابه وطربوشه المنحوت نحتاً في المخمل الأحمر الداكن، دخل محمد عبد الوهاب فلفت الرؤوس وعلت الهمسات: هذا هو! هذا هو! ونادت عليه المضيفة الجميلة، الصلبة وهو يصعد الدرج ضاحكة: «محمد»! فلما توقف والتفت إلى أعلى، صرخت ضاحكة: «محمد، يحيا الحب، يا محمد»، وتلعثم الرجل، وكاد يتعثر بنفسه فيما تعالت الضحكات.

جلس الشيخ بشارة وزوجته ويمنى ومرافقه العسكري «منصور»، في ركن من البهو الكبير وجلس رياض بك وتقي الدين وكاظم ومحمد في ركن قريب آخر، لم يعد في إمكان أحد أن يسمع رفيقه أو أقرب الجالسين إليه، وبين فترة وأخرى كانت «روزا» تقدم الضيوف إلى مواطنيها الزائرين، وكانت تقول ضاحكة: «تعالوا أقدمكم إلى فخامة الرئيس المقبل، تعالوا أقدمكم إلى دولة رئيس الوزراء المقبل»، لكن الضيوف كانوا لا يلبثون أن ينصرفوا، كل إلى حلقته وضجيجه، ورأت

يمنى نفسها تضيع للمرة الأولى وسط هذه المظاهر الهائلة من العز، فقد ذابت اناقتها الهادئة في الألوان البراقة وتراجعت رموشها المتباعدة أما هذه الرموش التي ترتفع وتهبط فوق كل هذه العيون السوداء الوسيعة، وبدا أن «روزا» تعرض كل ما لديها من معارف وأن القاهرة، بجزئها اللبناني، أيضاً، تعرض كل ما لديها من جواهر وحُلى وجمال.

وصل أنطون الجميل باشا متأخراً واندفع يصافح الشيخ بشارة ورياض بك بالكثير من الاعتذار: «لم أستطع أن أغادر قبل الإشراف على عناوين الجريدة الأساسية، إن الحرب تتحرك في سرعة غريبة هذه الأيام»، ولم يكمل حتى أعلنت المضيفة، بالكثير من الوقار هذه المرة، وصول السيد رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا، وهدأ الضجيج فوراً، وقام الشيخ بشارة بسمنته ووقاره مسرعاً لمصافحة رجل مصر القوي، ثم تقدم رياض بك وتقي الدين، وعاد الضجيج من جديد، وارتفع صوت الموسيقا.

ضاع الضيوف في حلقاتهم، وكاد عدد المدعوين اللبنانين في مصر يساوي عدد أنفسهم، ثم جاءت «روزا» وهمست شيئاً في أذن يمنى، وقامت يمنى وهمست شيئاً في أذن الشيخ بشارة: «الرجل هناك هو كريم ثابت»، لقد أرسله الملك فاروق إكراماً «لروزا» ولضيوفها، هذا اللبناني ظل الملك، ومثل كل ظل لكل حاكم فإن الناس لا تحبه، وهو

يعرف ذلك ولا يحب الناس أيضاً، هناك دور واحد له في هذه الدنيا: أن يكون في خدمة الملك، في كل شيء، ولا يفعل شيئاً آخر، هكذا تقول «روزا».

اقترحت «روزا» على الشيخ بشارة ورياض بك أن ينتقلا في هدوء إلى الدور الأعلى، للاجتماع منفردين إلى النحاس باشا، وكان الرجل قد سبقهما، ثم ابنها «إحسان» ورافق الضيفين، وإذ مشى رياض تاركاً رفاقه خلفه شعرت يمنى أن عملاقاً يترك كل هذا الفراغ الهائل وسط هذا الحشد، ليس عبثاً تعلّق فوق سريرها كلمة لا مارتين: «تفتقد كائناً واحداً فإذا العالم قفر».

تساءلت إن كانت تحق لها مشاعرها في هذه الساعات، لكن ثمة أشياء لا تطرد من النفس، ثمة مشاعر هي النفس، أين يقف الحق من المشاعر؟ أين تقف الحقيقة من الضعف البشري؟ أين الإنسان من هذه اللحظات الجميلة التي هي أيضاً اللحظات الحائرة، اللحظات الشاردة، لا وقت للدمع الآن، ليس وسط هذه الجموع، وكأنما شعرت «روزا» بأن ضيفتها تضغط ألماً جميلاً ما، فتركت ضيوفها واتجهت صوبها من جديد، وبشخصها الطاغي ولهجتها المسرحية قالت للمرأة السريعة التأثر:

ـ سارحة فين حضرتك؟ واحشاك بيروت ولا إيه؟ أهي بيروت يا ستي كلها هنا، لبنان بحالو هنا.

ثم التفتت صوب كريم ثابت وأمسكت به من ساعده بقوة فسقطت «الأوركيدي» التي لا تتزحزح من عروته، لكنها لم تتركه يرفعها، بل مضت به إلى يمنى:

ـ أهي الحلاوة تباع بلادك يا كريم باشا، منورّة ومزينّة مصر، ممكن تقولّي فين تلاقي جميلات زي كده؟ أنتَ والطلاينة بتوعك!

وانحنى كريم باشا يقبّل يد يمنى باحتراف ومهارة، وقال كأنه يقرأ من كتاب أمامه:

ـ أبوك وأبويا كانوا صحاب قوي، وولاد حتة واحدة.

وسألتَ يمنى بأدب وافر:

۞ من أي قرية جاء والدك؟

ـ من دير القمر!

وأوضحت بأدب:

۞ هناك خطأ صغير على ما أعتقد، تلك قرية كميل شمعون، أنا قريتي بعيدة جداً عن هناك؟

ـ صحيح، صحيح، بس أنت عارفة لبنان كلو حتة واحدة.

ازداد الضجيج وارتفع صوت الموسيقا وازداد شعور يمنى بالوحدة، وكان صوت الموسيقا يصل خافتاً إلى الدور الأعلى حيث كان «إحسان» نفسه يوزع الشاي على الضيوف، بدأ النحاس باشا الكلام كأنما يكمل لقاء سابقاً:

ـ إني أشكر «روزا» على هذه الفرصة. قد يخيّل إليكم أن اللبنانيين مدينون لمصر، ولكن أحب أن أقول إن مصر مدينة لكم أيضاً، ناس أوادم وولاد حلال. من المكوجي إلى السمان إلى ولاد صروف وزيدان. تحدث أحياناً بعض المشكلات، قبل مدة تقدم اللبنانيون بعريضة وذهبوا إلى الشيخ خليل ثابت والشيخ أنطون الجميل لتوقيعها، ماذا كان رد الرجلين؟ كان ردهما أنهما عضوان في مجلس الشيوخ المصري وأنهما يوقّعان أية عريضة فقط باسم أبناء مصر! نحن لن ننسى ذلك، اللبنانيون أنشؤوا على مدى سنين عشرات الصحف، صغيرة وكبيرة، شيء مثل «الأهرام» وحاجات هلافيت، لكن كلها كانت مخلصة لمصر وشعب مصر! الطلاينة طلاينة، اليونان يونان، الفرنسيون فرنسيون، اللبنانيون لبنانيون ومصريون معاً، كبار قضاتنا لبنانيون، ونحن نثق بأحكامهم ونسلّم لهم، وكل مصري يعود من جبال لبنان يتحدث عن المعاملة التي يلقاها من بسطاء الناس ومن أغنيائهم، أنتم هنا في بلادكم، أي خدمة.

ترك الشيخ بشارة الكلام لرياض بك. لكن رياض بك أصرّ أن يتحدث الشيخ بشارة أولاً.

ـ نحن بلد صغير يا دولة الباشا، لكننا في قلب هذا التحول الذي تحدثه الحرب في خريطة هذا العالم، ومن كل حرب تولد قوى جديدة وتختفي إمبراطوريات، لكن مهما كانت التغيرات فإن العالم العربي سوف يبقى واحداً، مصيرنا واحد، طريقنا واحد،

نحن هنا من أجل الحديث عن المستقبل، صحيح أن لا صفة لنا بعد، لكننا نعتقد أننا نمثل العدد الأكبر من الناس، همّنا الآن الحصول على الاستقلال، وعندما نستقل يصبح في إمكاننا أن نفكر في كل شيء آخر.

قاطعه النحاس باشا:

ـ كيف نستطيع هنا في مصر أن نساعدكم.

أجاب رياض بك هذه المرة:

ـ سواء أكانت مصر مغلولة اليدين أم لا، تبقى هي كبيرة الدول العربية، نحن نخشى أن يقال لنا غداً: لماذا هذه العجلة على الاستقلال الكلي بينما مصر تقبل المعاهدات والوجود الأجنبي، نريد منكم أن تقولوا: فليستقل لبنان، لا يهمّنا أن يستقل قبلنا أم لا، نريد ثقل مصر إلى جانبنا، موقفكم يدعم موقف سورية وموقفنا.

قال النحاس باشا:

ـ فلنكن واقعيين، إن الدول تخوض الآن معركة البقاء أو الامّحاء، كل دولة تبحث عن قطعة أرض إضافية على أساس أن كل بقائها متوقف عليها، انظروا كيف يتقاتل الألمان والإنكليز في الصحراء بلا نقطة مياه وبلا نقطة وقود وفي حرارة تزيد عن 60 درجة أو تنقص ثلاثين، ومع ذلك فهم يقاتلون، هنا من أجل تلة وهناك من أجل

بقعة، وفوق ذلك كله فهم يشعرون أن الرأي العام العربي ضدهم، إن التطورات في فلسطين كشفت النفوس، وهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن الناس تقف في قلوبها مع الألمان بسبب وعد «بلفور»، وهذا يخيفهم، إن الأمر ليس في هذه السهولة، فلنكن واقعيين!

قال الشيخ بشارة:

ـ الناس لا تعرف مع من تقف لكنها تعرف ضد مَن، لقد سقط وهج الثورة العربية الآن والشعوب ترى أمامها دولاً من كل الأنحاء تتقاتل على أرضها، إليك ماذا يفعل الإيطاليون في ليبيا، إليك ما يحدث في كل مكان حيث لا تمثل شعوبنا أكثر من جنود في الجيوش المتقاتلة، لقد كان الأتراك يسوقوننا إلى معاركهم بالسخرة، من غير أجر، من غير طعام، كانوا يتركون للانكشارية الجائعين أن يطهو لأنفسهم بالقوة من رعية جائعة هي أيضاً، أما الفارق الآن فإن شبابنا يجنّدون في الجيوش الأجنبية بالإغراء المالي، الولاء لقاء الضمانات، ردَّ النحاس باشا:

ـ لا أريد أن أبدو وكأنني الأكثر تعقلاً لكنني أريد أن أقول: إنه لا استقلال للبنان من دون وحدة بين اللبنانيين، فلأكن أكثر وضوحاً بل ربما كنت فظاً، إن استقلال لبنان مسألة عربية، ونحن وسورية لنا نظرة واحدة إلى هذا الأمر، لقد أثارت تصريحات الرئيس أيوب ثابت حول حقوق الغالبية المسيحية مخاوف كثيرة

في البلدان العربية، وأثارت بالطبع مخاوف مسلمي لبنان، أليس كذلك يا رياض بك؟

قال رياض بك:

ـ الشيخ بشارة يعرف موقفنا ورأينا في هذه المسألة، نحن لا نريد الاستقلال الخارجي إذا كان قائماً على خلل داخلي، والأخوان في سورية لهم الموقف نفسه، إنهم يقولون إذا كانت لسورية مطالب في بعض الأراضي اللبنانية فهي مباركة على لبنان، لكن يجب أن يعرف لبنان أنه لا يمكن أن يحلّق إلا بجناحين متساويين، إن فلسفة أيوب ثابت تزرع الشكوك في نفوس المسلمين والمسيحيين على السواء، وما نريده فعلاً هو أن يكون موقف إخواننا في مصر مثل موقف إخواننا في سورية.

أجاب النحاس باشا:

ـ لا نريد لكما العودة إلى لبنان قبل الاتفاق على هذه الصيغة، فمن أجل أن ينمو لبنان المستقل في هدوء يجب أن يكون مرتاحاً إلى داخله وإلى جواره بالتساوي، وإني أعدكما بشيء واحد: لن يكون موقفنا مختلفاً لحظة واحدة عن موقف إخواننا في سورية ولا عن موقفكم في لبنان، ولا بد أن تدركوا أن استقلالكم الخارجي ليس هو الصعب بل الصعب أن تتفقوا على معنى الدولة المستقلة، أن يدرك المسلمون أن للبنان وضعاً غير قائم في أي

دولة عربية أخرى وأن يدرك المسلمون أن ذلك يجعل من لبنان خاصاً لا وضعاً سريع العطب.

قال رياض بك:

- إن المنطقة كلها سوف يعاد تشكيلها يا مصطفى باشا، والمنتصر في الحرب سوف يعيد رسم الخطوط وسوف يعيد النظر في الجغرافيا، ونحن، المسلمين، يجب أن نستبق خطط التقسيم ومحاولة إغراء الأقليات. لذلك يجب أن نقنع المسيحيين في لبنان بأننا نحن ضمانتهم الأولى وليس أي حكم أجنبي، والشيخ بشارة يمثل هذا الفريق، إنني أحب أن أعترف لك هنا والآن، إن لدي ضعفاً شخصياً حيال أميل إده الذي تربطني به صداقة قديمة، لكن السياسة هي التي فصلتنا والرؤية لمستقبل لبنان هي التي فرّقت بيننا.

قال النحاس باشا، وقد بانَ عليه التعب وراح يداعب طربوشه الملقى إلى جانبه كمن يهمّ بالاعتذار:

- لم تقولا لي بعد بالتحديد ماذا تريدان مني.

قال الشيخ بشارة:

- أن تستخدم وزن مصر في لبنان وأن تستخدم حاجة بريطانيا لمصر لدى لندن و«مكتب القاهرة». الاستقلال، للدول الصغيرة، حياة أو موت.

فيما استعد النحاس باشا للخروج، دخل كريم ثابت الخلوة من غير أن يقرع الباب، وكانت «روزا» قد لاحظت خروجه من الردهة فلحقت به، وقال مخاطباً الثلاثة و«إحسان» أيضاً:

ـ هل هي خلوة سرية يجب ألا تعرف بها؟

ورد النحاس باشا ساخراً لاذعاً:

ـ أجل يا كريم، هناك خلوات خاصة لا علاقة لك بها وليس من الضروري أن تعرف بها، لماذا لا تحصر اهتمامك بخلوات الفاروق؟

وشعرت «روزا» بحرج شديد، وخافت أكثر ما خافت، أن يدسّ ثابت على ضيوفها لدى القصر. وقالت لرئيس الوزراء:

ـ مش ممكن تسيب الدار دي وأنتَ زعلان يا باشا، والنبي تقعد كمان خمس دقايق.

ثم هبطت الدرج من جديد ونادت على تقي الدين والرفاق ويمنى وطلبت أن ينضموا إلى جماعة الدور العلوي، وأخبرت تقي بما حدث طالبة إليه أن «يطرّي» الجو قليلاً، فاقتحم تقي الحلقة وأفرد ذكاءه ولماحاته، وقال مخاطباً النحاس:

ـ أين لكم أناس مثل اللبنانيين؟ بعضهم تأتمنونه على القضاء وبعضهم على الصحف وبعضهم على ما لا يؤتمن أحد!

وتضايق كريم، فيما ضحك النحاس باشا مقهقهاً وخرج وهو لا يزال.

إنه مقهى على البحر وهذا كل شيء

25 حزيران 1943

توقفت «الباكارد» بعد رحلة قصيرة جداً من حديقة اليوغانفيليا إلى هذا المنزل الصغير قبيل «البلاس دو كانون»، الاسم الذي أطلقه الفرنسيون على وسط المدينة. ولم تتوقف السيارة الفارهة أمام المنزل نفسه، بل على بعدقليل منه، داخل «سوق النجارين»، وإذ ترجلت يمنى طالعتها أصوات الآلات ورائحة نثار الخشب التي ملأت، كالشيب، رؤوس العاملين المنهمكين في استخراج الرزق من فن الأثاث والحفر في الأغصان المقطوعة.

ليس لأنها تحب السرية أو لأنها تعطي أهمية لأي شيء، لكن الشاعر الفرنسي الغامض، الذي طلب اللقاء بها في «منزل لامارتين»، توسّلها ألاّ يعرف بالأمر أحد، وألا يرافقها السائق «لأن السائقين كالحلاّقين، ثرثرة مجانية لمن أحب أن يصغي ولمن لم يحب»، ولأن «منزل لامارتين» كان لا يزال ذلك المنزل الذي استأجره الشاعر الذي أبحر إلى هنا في القرن الماضي من مرسيليا قادماً من أجمل كروم فرنسا في «ماكون»، ومع ذلك ما إن أطلت له بيروت وبيوتها القرميدية العتيقة ومن خلفها الجبال المكتسية بالصنوبر والسنديان، حتى كاد يسجد على سطح السفينة ممجداً الخالق وهذه اللفتة الخاصة منه إلى هذه البقعة من المتوسط.

لم يعد المنزل منزلاً، بل هو الآن مقهى عتيق صغير ترتاح الناس إلى حديقته، وإذا كان الفونس دو لامارتين قد اختار هذا المنزل بسبب حديقة الصفصاف الهائل الغصون، الوسيع الظلال، فالأرجح أن هذا الشاعر الفرنسي الغامض اختار هذه الظلال اليوم لأنها تخفي ضيوفها بسهولة، وإذ دخلت يمنى ببطء وراحت تبحث عن الرجل الذي لا تعرفه، تساءلت في نفسها، هل هنا كتب المسيو لامارتين جملته الذهبية: «تفتقر كائناً واحداً فإذا العالم قفر».

آه، إنه قفر حقاً، منذ متى الآن لم تعد ترى ذلك الطربوش الباسم؟ ولماذا؟ وهل هو لبنان الذي يغلي يحول دون لمحة ولو واحدة أم هو قرار شخصي؟ أم إن القضايا الكبرى تنحّي جانباً كل عاطفة خاصة وتدفع بعيداً المشاعر الحميمة؟ العالم قفر في أي حال، ومهما كان السبب.

قطع عليها حوارها الدائم مع الذات، الرجل النحيل المرخيّ الشعر، الذي خرج من خلف شجرة الصفصاف ليرحب بها، من دون أن يسحب من فمه سيجارة «السلتيك» الضخمة المحترقة أبداً حتى شفتيه كأن لا بدايات لها، وبدا المسيو «جيرارلوي انفانتان»، كأنه حقاً خارج من مرسم في مونمارتر أو من قبو من أقبية السان جيرمان، وكاد يبدو مزيفاً لكثرة ما بدا جرذاً حقيقياً من جرذان الضفة اليسرى، وقد رفع قليلاً عن جبهته «البيريه» الكحلية، فبان من تحتها شعره الذي ابيضّ قليلاً بفعل السنين واصفرّ كثيراً بفعل التبغ الأسود الذي حوّل الفم العريض إلى مدفأة من مدافئ آخر الليل، نسي أصحابها أن يطفئوها.

كان المشهد في حديقة المسيو لامارتين غريباً إلى حد مذهل، برغم ما قدم له المسيو جيرار من ذرائع الشعر وحنو الصفصاف: رجل بوهيمي من عالم المحترفات والأقبية، وسيدة هادئة، منتظمة مثل الفصول، تزن كل تفاصيل الحياة، مع أبعد الناس وأقرب الناس، وها هي الآن أمام رجل غريب، لا تدري إن كان ما يتصاعد منه رائحة عطره أم رائحة تبغه أم رائحة الرماد الذي يتساقط على صدره.

وارتبكت يمنى، هل الأمر مضحك أم مقلق، وكادت تنفجر عندما مدَّ المسيو يده يحمل يدها إلى وجهه المنحني ويطبع عليها قبلة من النوع البرليني، الذي يفترض في الرجل أن يضرب قدماً بقدم وهو يرفع يد المرأة، مثل كبار الضباط، غير أن «جيرار شيري» بدا مثل كبار المساكين والصعاليك وكاد يسقط تحت قوة الصدمة التي أحدثها بين صندليه.

ولن يترك «جيرار شيري» هذه السيدة المرتبكة أمام غرابته تقول كلمة واحدة، فهو لم يدعها إلى هنا من أجل أن تتحدث بل من أجل أن تصغي، ليس مهماً كثيراً ما ستقول، المهم، بكل تواضع المسيو انفانتان، ما سوف تسمع.

بدت المرأة الأنيقة غريبة تماماً عن المكان، ليس فقط بسبب مظهر جيرار، بل أيضاً بسبب هذه الطاولة الخشبية العارية حتى من غطاء وبسبب هذه الكراسي المخلّعة، وبسبب العشب الذي جعل الحديقة تبدو وكأنها حقل من حقول «البيكاردي»، بلاد جيرار التي قال إنها بلاده.

قال جيرار ضاحكاً تماماً ومؤنباً بعض الشيء:

ـ كيف يمكن لسيدة مثلك أن تأتي لمقابلة رجل غريب لا تعرف عنه شيئاً، انظري إليك، انظري إلى هذا الجمال النبيل، انظري إلى هذه القبعة التي تغبطها كل نساء بيروت، كيف تقبلين دعوة رجل غريب؟ آه، طبعاً ستقبلين، لأنني عرفت من أوسط لديك، ليس في إمكانك أن ترفضي طلباً «للمدام حداد»، وأعرف أنك في أعماقك تحبينها كثيراً وتزدرينها قليلاً، فما لها ولهؤلاء الفنانين تحيط نفسها بهم وتفتح بيتها الثري لفقرائهم، إنهم جميعاً فقراء في أي حال، فهل من خامل غني؟ أنتم تتعبون ونحن نرتاح، يكفيني أن أكون مشرداً لكي أثير فضول الأغنياء، وأحياناً غيرتهم.

جاء صاحب المقهى بفنجان القهوة، ووقف يتفرس قليلاً في وجه يمنى كأنه يتساءل ما الذي يحملها إلى حديقته، ثم تطلع إلى المسيو جيرار، صديقه وصديق هذه الحديقة من زمان، فضحك ومضى.

أكمل المسيو جيرار حديثه:

ـ هل تعرفين يا سيدتي ما هو الفارق بين مايكل بالغريف والفونس لامارتين؟ لا، طبعاً لا تعرفين، إنك فقط تعرفين أن لامارتين شاعر رومانسي، لكن دعيني أقول لك ما هو الفرق، إنه تماماً الفرق بين الإنكليز والفرنسيين، كلاهما قام برحلة إلى الشرق في مرحلة واحدة: الإنكليزي دوّن انطباعاته ومشاهداته وكأنه مفتش الشرطة، والفرنسي لجأ فوراً إلى الشعر، الإنكليزي درس الجغرافيا، والفرنسي وقف يتأمل جمال كل شيء، الصخور والمياه وغناء الأشجار على أنغام الريح، هذا هو الفرق.

آه، طبعاً إنك تتساءلين الآن في نفسك، ما علاقة سيدة جميلة من بيروت بالأمر؟ وهل اقترحت حديقة لامارتين من أجل درس في المقارنة؟ لا، لكنها مصادفة، مجرد مصادفة. فأنا أيضاً أقطن في شقة صغيرة هنا في جوار المسيو لامارتين، ولن يؤهلني ذلك لأن أصبح في شهرته، لكن كلانا هام بهذا البلد، كلانا وقع في عشق هذه المدينة. لا تسأليني لماذا أحب تقطيع البلاط في بهو شقتي ولا تسأليني لماذا أعشق النزول إلى الميناء مع خيوط الفجر ولا تسأليني لماذا لا أتناول طعام الغداء إلاّ على الكرسي عند باب اللحام، لأنني أنا لا أعرف، لكنني أحب أن أقول لك إن هناك نوعين من الفرنسيين: واحد أحبّ لبنان لأنه لبنان، وآخر أحبه لأنه محمية فرنسية، لقد اختصر الأمر كله في حكاية المسيو لامارتين والضابط الذي كان يرافقه، فما إن لاح الجبل للشاعر حتى راح يصف مشاعره، فنظر إليه الضابط متسائلاً: «أين ترى كل هذه الأشياء أيها المسيو لامارتين، إنني لا أرى شيئاً مما تصف»، فأجاب صاحب «التأملات» قائلاً: «لأنني أرى بعيني شاعر لا مسؤول عن التموين».

هل هي الوان لامارتين أم ألوان لبنان؟ لا أدري، لكنها أيضاً الوان شاتوبريان، الوان جيرار دي نرفال، ألوان موريس باريس! قبل أن يأتي المسيو لامارتين إلى هنا كان شعره يقول "الواني واحدة في الليل وفي النهار"، لكنه جاء إلى هنا كان هنا واكتشف أن كثيرين قد هاموا من قبل بهذه الأرض، وعندما تكبد عناء الرحلة الطويلة إلى «جون» على ظهور الخيل كان هيام الليدي استر استانهوب قد تحول إلى جنون

حقيقي، فقد وجد السيدة الإنكليزية الجميلة ترتدي السروال اللبناني الرجالي وتربّي في إسطبل المنزل فرسين بيضاوين، الأول لكي تقدمه إلى «المسيح الآتي» الذي تنتظر مجيئه قريباً، والثاني لكي ترافقه في الرحلة من القدس إلى جون! ليس إلى إنكلترا، لقد جعل بعض منا هنا موته وهنا قيامته، ويجب أن تصدقوا أنتم اللبنانيون أن بعضنا قد أحب هذا الشرق من أجل الشرق لا من أجل الغرب.

عاد صاحب المقهى بكأس من النبيذ الأحمر المعتّق، المفضّل عند المسيو جيرار، كلما أتى إلى هنا، وهو يأتي كل يوم إلى هنا، ويبدو رجلاً وحيداً صنع لنفسه عالماً من الناس الذين لا يتبادل وإياهم من الكلام سوى أسماء الأشياء التي يحتاجها لضرورات النهار: نوع اللحم ونوع العرق واسم المحترف الذي يذهب إليه، هو والرسامون الآخرون، حيث تقبل امرأة واحدة، تجاوزت الستين من العمر، أن تستلقي عارية أمام أصحاب الريش الملونة، التلامذة منهم والمحترفين، وعلى كل واحد منهم أن «يستنتج» الجزء الذي يشاء منها، بعضهم يرسمها أقرب إلى النحول، بعضهم يرسمها على ما هي، مترهلة من فوق، مترهلة من الوسط، مترهلة من كل جهات الطول والعرض، مسترخية إلى هذه المهنة التي تمارسها مذ كانت في الثلاثين، بلا حماس أو خجل، فما هي سوى جزء من لوحة أو من فرشاة أو من لون، هذا كل شيء، وفي الخارج، خارج المحترف وبعيداً عن روائح الألوان الممزوجة ولعبة اللون الذي يولد من لونين آخرين، في الخارج، ليست سوى امرأة وحيدة فقيرة لا تملك من هذه الدنيا سوى شرفة صغيرة ومسكبة حبق وعلبة مساحيق.

ارتشف الفرنسي من زاده اليومي الأول وخبزه السائل، وعاد يكمل:

- إياك أن تصدقي يا سيدتي الجميلة أن لبنان أكثر من هوى وعشق، كل شيء آخر ذريعة فلا تصدقيها، لبنان نزهة المتعبين، نزهة العاشقين، وكل عاشق يريده لنفسه، وكل عاشق يريده ساحته وحده، فلا تصدقي أن لهذه الجبال قيمة عسكرية، لأن طائرة واحدة يمكن أن تقصفها، ولا تصدقي أن لهذا البحر قيمة إستراتيجية، فليس هناك أطول من هذا الساحل! أهمية لبنان أنه يوقع الكل في هواه، والعاشق ثرثار، يثرثر الفرنسي فيسمعه الإنكليز، ويثرثر الإنكليز فيسمعهم الأميركيون، إنه مقهى على البحر وهذا كل شيء، والجميع هنا، كل من استطاع المجيء أتى، نحن كنا أول القادمين لأننا كنا أول العاشقين، والآن يريد العاشقون الجدد مبارزتنا، الأميركيون عندهم الجامعة والمستشفى، والبريطانيون عندهم الجنرال سبيرس وعصا القوة السحرية، ونحن عندنا الشعر. فالعاشق الحقيقي كثير الأخطاء لأنه كثير الخوف، وها نحن نراقب بعضنا ونصغي إلى بعضنا ونتسقط ثرثرات بعضنا، وما هو سلاحنا جميعاً؟ الثقافة. الأميركيون لم يقولوا بادئ الأمر إنهم سيقيمون جامعة، بل مجرد مدرسة عادية، ومن كان الدكتور بلس رئيس الجامعة؟ لقد كان كبير مستشاري الرئيس ولسون لشؤون الشرق الأدنى! هل تريدين سراً هائلاً يا سيدتي الجميلة والصامتة أيضاً، الصامتة بكل هذا الإصرار...! الأميركيون يعلنون أنهم ضد الاستعمار ثم

يقـولون إنهم البـديل، هـل تقـرئين الصـحف السـورية واللبنانيـة الصادرة في المهجر؟ إن أصحابها يـرفعون، كما هو متوقع، الراية الأمـيـركـيــة في الشــرق من دون أن يـدركـوا أنهم يؤدون دوراً سيـاسيـا، لكن دعيني أخبـرك أننا نحن أيضـاً نقلنا المعـركة إلى نيـويورك وهنـاك خضنا المعـركـة مع تركيـا من أجل لبنـان، لماذا؟ لأننا شـعـرنا أن الأمـيـركـيين يريدون الوصـول إلـى هنـا، مـرة عن طريق «لجـان التـحقيق»، ومـرة عن طريق الإرسـاليـات، ومـرة عن طريق المسـاعـدات، ولذلك تسـاءلنـا لماذا لا نسـتـغل نحن أيضـاً شعور اللبنانيين والسوريين بالقهر من الأتراك؟ لقد دعمنا رجالاً وأدباء مثل جبران خليل جبران من دون علمه، وكنا نبعث إليه من يقنعـه بـأنه سـوف يصـبح ذات يوم رئيسـاً للجـمـهورية، وربما لو عـاش أطول من أعوامه القصيرة الحـادة المقتضبة لأصبح فعـلاً رئيسـاً للجـمـهـورية، فـهل تعـرفين مـاذا كـان يمكن أن يعني ذلك؟ تصـوري لو أن جـبـران لم يعـد إلى بيـروت جـثـمـاناً في الثـامنة والأربعين من العمـر، لو أنـه عـاد حيـاً، كـاتبـاً يقـرؤه ويحبـه العـالم العـربي كله، وشـاعـراً تحبـه أميـركـا وتعـرفـه، ومناضـلاً سـيـاسـيـاً معـروفـاً ضـد الحكم التـركي، ثم تـأتـي فـرنسـا وتقـول، هـذا الرجل هو رئيس لبنـان! مــاذا كــان ترك ذلك في العــالم من أثر؟ لكن جبـران مـات قبل أن تتـمكن فـرنسـا من تحـقيق حلم أيوب ثابت وفكرته، لم يكن ينظر إلى جبـران فقط كصـديق ورفـيق من أيام المدرسـة «الحكمـة» بل كان يرى فـيـه رجـلاً يمكن أن ينقـذ لبنان،

رجل يحبه المسلمون والمسيحيون ويحترمه العرب في كل مكان وتقرؤه خصوصاً مصر في صحافتها، لكن الكحول لم تمهل جبران طويلاً.

عاد صاحب المقهى بكأس أخرى من النبيذ الأحمر، وشعرت يمنى أنها أمضت من الوقت أكثر مما يجب مع هذا الرجل الغريب الذي أخذ يزداد غرابة كلما تكلم، لكنه مضى لا يتوقف:

ـ هل تعرفين ماذا كان يمكن أن يحدث لو أصبح جبران رئيساً؟

دعيني أقول لك ماذا، كان هذا البلد الصغير سيصبح «جوهرة الجمهورية»، جوهرة فرنسا، كما في الهند بكل حجمها ومداها «جوهرة التاج» البريطاني! رجل يقرؤه أكثر من مليون أميركي يصبح رئيساً في ظل فرنسا، أو يكون هو خيار فرنسا. تخيلي المسألة جيداً: هل كان يمكن لبريطانيا بعد ذلك أن تحاربنا؟ وماذا كانت قيمة الجامعة الأميركية وكل المستشفيات؟ لا شيء، كان في إمكان هذا الشاعر الرسام أن يغير التاريخ من دون أن يعرف! كان يمكن أن يكون «مازاريك» آخر. إنه صورة عن بطل تشيكو سلو فاكيا القومي: مثله من عائلة فقيرة، مثله فيلسوف شهير، مثله عاش في أميركا وعرف فيها، بل هو هناك أكثر شهرة منه بكثير. الناس تلتف بسهولة حول شعرائها، آه، لكن للأسف، للأسف يا سيدتي الجميلة، مات جبران من دون أن يعرف بماذا كان بعض الفرنسيين، خصوصاً العلمانيين منهم، خصوصاً الذين كانوا في قرارة أنفسهم يرفضون سيطرة

المطارنة والرهبان، لقد رأوا فيه ثائراً مثالياً، فهم لا يستطيعون أن ينكروا عليه أنه يمثل المسيحيين. إنهم لا يفعلون ذلك مع المشاهير. ألم تري كيف كانوا أول المستقبلين يوم زحفت بيروت إلى استقبال جثمانه؟ لكن كل شيء أصبح ماضياً الآن، وها نحن نستعد للرحيل، والجميع يريدوننا أن نخرج، الكتاب أولاً، والشعراء، لقد طرح الإنكليز أنفسهم على أنهم طلائع القومية العربية، والآن يقول الأميركيون إنهم طلائع الطبقات العاملة، وإنهم لا يريدون شيئاً من العالم العربي سوى سعادته، وماذا بقي لنا نحن؟ الثورة الفرنسية ربما، لكن الناس تحاربنا بشعارات الثورة، ربما كان الأفضل أن نذهب فلم نأت إلى هنا لكي نخرج بأيدٍ ملطخة. وسوف يبقى لكم الإنكليز، وغداً الأميركيون، تمتعوا .

تململت يمنى في مكانها ورفعت حقيبتها عن الطاولة ووضعتها في حضنها استعداداً للذهاب، لكن الرجل ذا اللفافة المحترقة لن يتركها تمضي:

- إلى الآن لم أسمع صوتك يا سيدتي الجميلة، لا يهم، لقد قلت لك منذ البداية إن كل ما أريده منك أن تصغي، لكنك لم تسألني بعد لماذا نريد إصغاءك؟ لأنك يا سيدتي أذن الرجلين اللذين يتزعمان الحملة لطرد فرنسا، سوف نذهب نحن غداً وليجربوا الإنكليز ومن بعدهم الأميركيين، هل حقاً يصدق أصدقاؤك أن بريطانيا تريد استقلال لبنان من أجل اللبنانيين؟ اليوم تقنعكم

بريطانيا بإبعادنا وغداً تقنعكم أميركا بإبعاد بريطانيا، ومتى يأتي الاستقلال؟ الاستقلال لا يأتي إلى الدول الضعيفة. إليك حالة فرنسا، هل لو كانت فرنسا في قوتها الكاملة يمكن أن تلقى هذه المعاملة من حلفائنا الإنكليز؟

عاد صاحب المطعم بكأس أخرى من النبيذ الأحمر، ووقفت يمنى في غضب واضح، لكن رجل اللفافة المحترقة ظل جالساً بكل هدوء:

- أرجو يا سيدتي الجميلة ألا تكوني قد غضبت كثيراً، فنحن معشر الفنانين نسيء أحياناً الخلق حيال مثل هذا الجمال.

وقالت يمنى، مستجمعة كل قواها، غاضبة في داخلها من صديقتها التي دبرت هذا اللقاء تحت ألف عنوان وسبب:

- يا عزيزي المسيو انفانتان، إنك لا تبدو لي فناناً أو رساماً على الإطلاق، إنه مجرد مظهر مخادع، أما أنت حقيقة فلا أدري من تكون.

- هدئي نفسك يا سيدتي الجميلة، فأنت على حق، إن اسمي الحقيقي هو الكومندان لوغران وليس إطلاقاً المسيو انفانتان، لكن هذا هو دوري هنا، أنا مجند في المقاومة الفرنسية بصفتي فناناً ورساماً، ولي أيضاً صفة أخرى، وهي أنني عاشق لبنان، لقد تركت كل شيء خلفي من أجل صديقتنا المشتركة، وإذا كانت فرنسا تريد الاستسلام والخروج فأنا باق هنا، ما بين اللحام ومحترف الرسم وهذه الحديقة.

وإذ استدارت يمنى لتخرج رأت صديقتها تدخل معتذرة، وبادرت يمنى بالقول:

ـ آمل أن تتفهمي الأمر،

وهـرع صـاحب المحـل يدلهـــا علـى طـريق الخـروج، ويـقـول بفرنسية طليقة:

ـ أنت أجمل سيدة دخلت حديقة لامارتين.



الشعر الفرنسي والسياسة الإنكليزية

2 شباط 1943

كان شباط يحاول هذا النهار أن يؤكد صورته التاريخية في مناخ لبنان، على هذا الجانب من المتوسط، أطل حاملاً شمسه معه، أولاً، من خلف «صوفر» ومن بين سرواتها العالية، ثم انزلق على الثلوج المغنية، صوب «عاليه»، ثم أطل على بيروت بطيئاً كأنه يلاعبها لعبته المألوفة: هل أنا صاحٍ هذا النهار أم معربد؟ هل أنا صاحٍ ومعربد معاً؟ هل أنا ربيع كامل، بلا اعتراف بموقفي في الفصول؟

لم تكن بيروت تملك الوقت لمزاجه ومداعباته، فشقت طريقها عنوة إلى الربيع، وعندما فتحت يمنى خشب النافذة كان أول ما لفت نظرها في سفح جدار الحديقة أفواج من البنفسج والمارغريت تطل ببراعمها الصغيرة، وقد غسلتها أمطار الليلة الماضية، فبدت في سفح السور مثل إغراء ملوّن، بلوحة تبحث عمن يرسمها، تركت النافذة مفتوحة على المشهد خوفاً من الا يضيع سدى، ثم عادت وركعت عند سريرها لكي تبدأ نهارها كما تبدؤه دائماً، بالتضرع.

ثمة أشياء، ثمة مشاعر، ثمة خلجات، ثمة ضعف، ثمة فرح، ثمة بكاء، ثمة لا شيء، ثمة لحظات بشرية، لا يدركها أحد! سوى السماء، وإذ ركعت، بانت لها السماء الصافية من بين دفتي النافذة، فقرعت يمنى صدرها بيدها الصغيرة، وشكرتها، ثم نهضت وتفقدت بيروت

من جديد، البحر والميناء الصغير المغتسل ومنارته التي أطفأت ضوءها منذ الصباح، وذهبت إلى النوم بعكس حركة اليقظة، وعلى مسافة قريبة جاءها من الطريق الأسفل صوت جرس «الترام» يرن، فرحاً، لاهياً، متفاخراً، كأنه يوقظ كسالى القيلولة، إنه الصوت الذي يؤكد كم هي هادئة مدينة يمنى، وتجيبه أحياناً، كما في لعبة متفق عليها، أبواق «الفورد أبو دعسة» التي فرغت مقاعدها الخلفية من أصحابها، وتُرك لسائقيها التمختر تحت الشرفات، لإثارة إعجاب الخادمات السعيدات بأبواق المعجبين الولهين الذين يقدّرون ـ تماماً مثل أسيادهم ـ جاذبية الفساتين السوداء والقبات البيض.

توقفت يمنى من جديد تتأمل البراعم في سفح السور، وفي نهاية الأفق أمامها، عند التقاء الأزرق الفسيح بالزرقة السماوية، بدت لها مرآة نفسها فراحت تتأملها أيضاً، كم يختلط الحزن والفرح في حياة واحدة، في ساعة واحدة، كم تتدخل حياة الفرد ومصيره بحياة الدول ومصيرها، أين هي اليوم وأين يقف لبنان؟ ماذا ومن سيتغير؟ أي تقلب سوف يترك شباط على المناخ السياسي؟

سوف تعرف الكثير هذا المساء، ليس تماماً كل شيء، ولكن الكثير، بيروت كلها مدعوة هذه العشية «عند مود»، جميع الرجال وجميع الزوجات، ولا بد أن يكون هناك عدد من العشيقات أيضاً، خصوصاً تلك السيدة الروسية التي أذهلت الجميع بتأدية دورها كمحظية من الطبقة الأولى! «العشيقة الإمبراطورية»، تسميها الزاوية الصغيرة في الردهات الكبيرة! وتلك السيدة البولونية أيضاً التي أثارت افتتان

جميع الرجال ومخاوف جميع النساء، بلا استثناء، وكانتا تتصرفان، في كل شيء، وكأنهما حليفتان في جبهة واحدة برغم ما يفرق بينهما من غيرة وحذر وعداء، لقد جاءت الأولى هاربة من روسيا وجاءت الثانية فازعة من فرصوفيا، الأولى هربت من البلاشفة والثانية من النازيين، وهنا، في هذه المدينة الرافعة أسوارها لمن أتى وأطل، اختلط الجمال الأريستقراطي الهارب بالنفوذ، واختلط النفوذ المقيم بالمال، وطغى حضور «الروسية» و«البولونية» على كل سمعة سحرية أخرى، ولم تدع كلتاهما أي شيء آخر، لا الذكاء، ولا العلم، ولا الدم الأزرق، إنهما محظيتان من نوع خارق، لا يُنافَس ولا يُجارَى، هذا كل ما ادعتاه، وكما أن العادات اللبنانية تقضي بعدم تسمية الأمراض من أجل عدم الوقوع فيها، فلم يسمِّ أحد اسم المرأة القادمة من لينينغراد أو المرأة القادمة من فرصوفيا إلا باللقب الآتي: «الروسية» و«البولونية».

كانت تلك بيروت الرديفة أو المحاذية لبيروت، فقد جاء الأوروبيون العسكريون إليها من الغرب وجاء الجمال في وقت واحد من شرق القارة، الأول جاء يحكم والثاني جاء يتحكم، فقد كانت بيروت لا تزال، إلا من طبقة كريمة ضئيلة العدد ومن طبقة معدمة قليلة الأعداد، مدينة شديدة المحافظة، كثيرة التقاليد، كثيرة الأيقونات، عالية المآذن، ولذلك بحث العسكريون الأجانب عن ضالتهم وسط المدنيات الشقراوات، لا مشكلات، لا مبارزات ولا قفازات يرميها الفارس المهان في وجه الفارس المهين، وفي أي حال كان قرن قد مضى على مقتل ألكسندر بوشكين في مبارزة، من أجل شرف امرأته، مرور زمن كامل.

«الروسية» و«البولونية» لم تكونا مجرد جزء عادي من جالية الرموش والمساحيق، لم تكونا جزءاً من أي شيء عادي ، وكانتا تتصرفان، في كل شيء، انطلاقاً من هذه القناعة العامة، التي لا تناقش، وكانت إحداهما إذا حضرت مجلساً أذلته، أذلت أعناق الرجال ورؤوس النساء، وإذا حضرتا معاً أذلتا معاً، تنافس إحداهما الأخرى فقط في طغيان السحر والعطر والساق البائنة من تحت آخر طرف حريري للحشمة، كانتا تتقنان وتجاهران بدور «المحظية الملكية»، خلف الأبواب وأمام الأبواب، في أضواء الثريات وفي خفوت المرايا، لم تبذلا أي محاولة أو أي جهد لتهذيب السمعة، لأن ذلك كان مناقضاً للموهبة الكبرى.

الفارق الوحيد بين المرأتين كان فارقاً أساسياً أيضاً: الروسية، كان حظها الانتداب، البولونية، المدام «ماجدة» كانت مثل الرابسودي الموزاري، للذواقة، ولم يكن أحد يجرؤ أن يلقي أكثر من نظرة عابرة وسريعة ـ مهما كانت عميقة ـ على المراة الروسية، لا خوفاً من الوقوع في السحر فحسب، بل خوفاً من غيرة المفوض السامي أيضاً، إذ وفقاً لأرقى التقاليد الإمبراطورية، كانت السيدة زوجة المفوض الأعلى، تمتلك القصر والأمر واللقب والنشيد الوطني الذي يعزف لها كل صباح، فيما هي تتناول الفطور على الشرفة، محاطة بالصنوبر كما لو كانت في غابة طولون، أما السيدة الروسية في الجهة الأخرى، فكانت تمتلك ما امتلكته دائماً سيدات القصور المضادة: تملك، أولاً، ولاء صاحب السعادة، وتملك مخصصاته السرية، وتملك الجزء الجميل من

وقته، أي ذلك الوقت الذي لا يقتحمه أحد، ما بين الخامسة والسابعة من كل مساء، عدا الأحد. إنهما الساعتان اللتان يقدم خلالهما سعادته الشاي «والبتي فور» للأصدقاء، فيما تعزف فرقة فرنسية من هواة الجيش، باللباس الرسمي، شيئاً من بقايا النمسا الإمبراطورية. لا من فيينا الحالية المكتظة برجال الغستابو، في داخله. كان المفوض السامي يشعر بالحزن على فيينا بقدر ما يحزن على باريس، متذكراً دائماً قول الإمبراطور نابليون للبارون هوسمان: هات لنا شيئاً مثل فيينا.

كان يفترض، وفقاً للتقاليد الإمبراطورية، أن تعرف كل بيروت المخملية بأمر السيدة الروسية، ففي ذلك إشارة واضحة إلى أداء صاحب السعادة في كل الحقول، وتأكيد على تفوقه على مَنْ عداه من رجال المدينة، في كل الحظوظ! لكن أيضاً، ووفقاً للتقاليد نفسها، لم يكن سعادته يظهر في مكان واحد مع السيدة الروسية. فإذا حضر حفلاً غابت هي، وإذا لبت دعوة، اعتذار «الانتدان ليه» باسم سيده: سعادته مرتبط بالتزام سابق! ولكن طبعاً على مضض.

عندما اتصلت «مود» لكي تدعو يمنى إلى العشاء أبلغتها، ضاحكة، أن الجزء الفرنسي من الإمبراطورية الغربية لن يكون ممثلاً هذا المساء، ولم يكن ذلك مفاجئاً أو مستغرباً، فقد كانت «مود» تقول للجميع «لقد أحببت الشعر الفرنسي والسياسة الإنكليزية»، وكانت محاطة، بطريقة أو بأخرى، بالصداقات الإنكليزية. فعلاقتها بالجنرال والمسز سبيرس كانت موضع تباهيها، وفي المبنى الذي تملكه استأجر ضابطان من كبار ضباط المفوضية السامية، وهذه السيدة الثرية الضاجة بالحركة والمناورة والسياسة والحفلات الكبرى، لم تكن

صداقاتها الإنكليزية محصورة في بيروت فحسب، بل غالباً ما كنت تمضي العطلات الأريستقراطية في القدس أو القاهرة ، يحف بها دائماً ترفها وطريقتها في التعاطي مع الناس والأشياء.

«سوف يكون هذا عشاء الموسم» قالت «مود». «لم يبق من يجب أن يُدعى إلا ودعوته». ثم أسرت إلى يمنى شيئاً آخر. قبل أن تسألها هي من أين لها أن تؤمن «الويسكي» لضيوفها الأجانب: «لقد أحضرت معي من فندق الملك داود في القدس كل ما استطعت أن أشتري، وطلبت من المدير هناك أن يبقي لي كل ما تقع عليه يده، أنا لا أريد لهذا الحرب أن تمر بي، فلتبق بعيدة عني».

كان هناك من الناس أكثر مما توقعت يمنى، وكانت «مود» التي تشبه بعينيها اللوزيتين دمية مصنوعة بمهارة شديدة، تستقبل مدعويها ومن خلفها زوجها، يحاول، عبثاً، أن يشعر الضيوف بأنه شريك أيضا في هذه الدعوة، فقد كان دلالها يغطي كل شيء، وكانت ترحب بأصدقائها بقبلات على الجبين أو في الهواء، ثم تسارع إلى إبلاغهم ببعض أصناف المائدة التي أعدت، ولم تنس أن تبلغ القادمين، على طريقتها وبأسلوبها الاقتحامي، أن بعض الطيبات قد وصل معها من مرسيليا على ظهر «الماريت باشا» التي لا تزال ترسو في الميناء، كما لم تنس أن تتذمر من نوعية الطعام على السفينة «هذه الحرب الرديئة، تلحق بنا إلى كل مكان، حتى إلى عرض البحر، لقد كنت ضيفة القبطان كل مساء، لكن مائدته كانت مليئة بالشمبانيا وخالية من اللحوم، تصوروا الفرنسيين من دون زبدة، ما أتعسهم، اللعنة على الحرب فمتى تنتهي؟».

تدفق الضيوف كالطيور، وكانت الموسيقا تعزف كأنما تدعوهم فوراً إلى الرقص في الردهة الملونة الثريات، وبرغم الألبسة الرسمية المدينَّة كان واضحاً أن هناك ضباطاً كثيرين من القوات البريطانية، وكانت «مود» تقدم هؤلاء بأسمائهم الإنكليزية والإسكوتلندية الأولى، ولم يخل الأمر طبعاً من أهالي ويلز، الإمبراطورية كلها في الشرق، وهذا المساء، الشرق كله عند «مود»، تنقلت «مود» بين الثياب والألقاب الطويلة، فرحة، زاهية، ترفع ضحكتها أو صوتها، وتقتحم الحلقات وتحث المنفردين على الانضمام إلى المتحلقين، ولم يكن أحد يسمع الآخر في أي حال.

فجأة ساد صمت كلي كأنما بأمر خفي، والتفت الناس صوب المدخل فرأوا الجنرال والليدي سبيرس، وخلفهما مرافقان عسكريان، وجميعهم، الزوجان والمرافقان، بكامل الأبهة العسكرية، كان كل شيء بريطانياً هنا إلا اللغة، حتى الجنرال نفسه أراد أن يزيد من رهبته ومن انبهار اللبنانيين به فكان يخاطب الجميع بالفرنسية، إنها لغة الردهات الملكية في بريطانية، وهي هنا لغة مندوب صاحب الجلالة، الذي بدأ، وهو يفتتح حلبة الرقص، كأنه صاحب الجلالة نفسه.

لم تتقدم «مود» إلى الحلبة مع زوجها، بل بدت كأنها في «الفالس» الأول، وهي تتأبط ذراع كميل شمعون، الذي بدا متردداً وخجولاً بما يحدث، ثم قالت في صوت عالٍ أضحك الجميع حتى استلقوا: «راقبوه جيداً، راقبوه جيداً، إنه يدوس على قدمي كالمعتاد»، وضحك «كميل» مع الضاحكين، لن يستطيع أحد أن يغير شيئاً في طباع «مود».

بقيت «مود» تضحك وتتحدث في صوت عالٍ فيما أسرعت الهمسات تستعجل نفسها: «لماذا الرقصة الأولى لكميل؟ هل زوجها متعب إلى هذا الحد؟ لماذا الرقصة الأولى لكميل». وكانت «مود» تدرك سلفاً أنها تثير عاصفة الهمس إلا أنها أرادت، على طريقتها، أن تحوّل الريح إلى إعصار، كانت، بلا أي شك، تهوى هذا الوسيم الذي يدوس على الأقدام الصغيرة في رقصة الفالس وعلى الأقدام الكبيرة في ساحات السياسة، كما كانت تطيب لها الحياة في العاصفة.

انتقت يمنى ركناً منزوياً من الردهة، منذ وصولها، لكن ما إن حان موعد العشاء حتى اكتشفت أن مقعدها على الطاولة الرئيسة كان قبالة الجنرال سبيرس إلى جانبه «مود» فيما جلس زوجها والليدي سبيرس إلى طاولة أخرى، وتغيرت ألحان الموسيقا كما تغير أفراد الفرقة، وخفتت الأوتار في الظل: لكي تسمع الناس بعضها بعضا، وإلى جانب يمنى، جلس كميل شمعون، وقد سئم الحاضرون مراقبة بعضهم بعضا إلا أنهم لم يسأموا مراقبة الجنرال سبيرس وطاولته، وبدا جلوس يمنى إلى جانب «كميل» مثل مؤامرة لطيفة، ومضت «مود» تفاجئ ضيوفها عندما صرخت في صوت سمعه الجميع مخاطبة هيبة الجنرال وشعره اللماع وطقمه الكحلي المقلم:

ـ قل لي يا «إد»، من هو الرئيس المقبل، إن الجميع يريدون أن يعرفوا ذلك!

بدا في وضوح أن «مود» تركت الكلام الآن للشمبانيا الزهرية اللون، إلا أن الجنرال حافظ على رباطته وهيبته، وقال كأنما يشاركها مزاحها:

ـ لست أدري على وجه التحديد، لكننا سوف نعلن تأييدنا لصديقي كميل، وهكذا نضمن أن يؤيد الفرنسيون مجيء الشيخ بشارة!

وضحك الجميع، غير مدركين أن تلك كانت الجملة الجدية الوحيدة التي سيطلقها الجنرال ذلك المساء، وبدا «كميل» غير مستاء من إعلان السرّين معاً: إن لندن تدعم مجيء الشيخ بشارة وإنه هو الند الذي يخيف فرنسا ويضايقها! ثم عاد الجنرال سبيرس يداعب الحاضرين بتلك الحدة الإنكليزية الساخرة، وأراد أن يؤكد للحضور أنه يعرف الجميع وكل شيء، فخاطب «السيدة الروسية» على الطاولة الأخرى إلى يساره قائلاً:

ـ وكيف الأخبار من موسكو هذه الأيام؟ إن الثلوج تساعد أعزاءنا وحلفاءنا الروس كما ساعدتهم ضد نابليون من قبل، ليس عبثاً، أننا اتخذنا القرار بنفي ذلك الكورسيكي وحبسه، وإلاّ يا عزيزتي لما استطعنا أن نرد الفرنسيين عنكم.

ولم تسكت «السيدة الروسية» على التبطين الساخر، فرمت من حولها كل ما فيها من إغراء وقالت بفرنسية ركيكة وسحر شديد:

ـ ليس ذلك ضرورياً يا سيدي الجنرال، فنحن الذين نسعى إليهم هرباً منكم!

تقبل الجنرال سبيرس الرد بالانضباط المزدوج، العسكري والإنكليزي، إلا أنه لا يريد أن يترك هذه الفرصة الرائعة من غير أن يطلق النار على الإوزة الكبرى، فعاد يقول:

ـ لكن يبدو أنه ليس هناك حوار كثير بين أصدقائنا الفرنسيين وبينك يا سيدتي العزيزة، والدليل أن لغتك الفرنسية لم تتحسن بقدر ما تحسنت نوعية الفراء الذي ترفلين به!

لا، المرأة الروسية ليست سهلة الاصطياد، على الأقل ليس بطلقة واحدة، وليس في مبارزة، فرفعت كأس الشمبانيا وقالت بصوت مرتفع:

ـ دعنا يا عزيزي إدوارد نشرب نخب أصدقائي، إنهم ذواقون في كل شيء، وكان بودي أن أشرب نخب أصدقائك أيضاً، لكنني أعرف أنك رجل بلا أصدقاء.

تدخلت «مود» لوقف الحرب قبل أن تتطور، فطلبت من الجميع أن يشربوا نخب القنصل الأميركي، وفعل الجنرال سبيرس ذلك على مضض وفي امتعاض واضح، لم يكن يريد أن تنتهي الحرب بهزيمته.

كانت يمنى أكثر الناس صمتاً، كانت معنية بكل ما حولها وأيضاً غير معنية، ثمة شيء منها كان في مكان آخر، وعندما بدأ الجميع بالانصراف طلبت إليها «مود» أن تبقى، فهذا المساء سوف يخالف الجنرال سبيرس كل القواعد ويكون آخر، وليس أول من ينصرف، وقد تخلّف عشرة من الضيوف أو أكثر بقليل، وقاموا إلى البهو الآخر للمزيد من القهوة والسيجار، وإذ حلّ الهدوء محل الجلبة العاتية وقعت عينا يمنى فجأة على جمال «زلفا» وهي تشبك يدها بيد زوجها: «كميل»، وقالت في نفسها: «يا إلهي، من أين لهذه السيدة كل هذا الرونق؟».

بدت «مود» تعبة لكن متأهبة ويقظة، والآن، ولم يبق في الدار سوى الأخصّاء، خاطبت الجنرال سبيرس قائلة:

ـ نعرف جيداً كم أنت متحفظ يا «إد»، لكننا أيضاً نريد أن نعرف شيئاً عن هذا البلد.

سوف ترى يمنى في بقايا السهرة الطويلة صورة أخرى للجنرال سبيرس، تلك الصورة، التي لا يخبؤها عن أحد. وفي الخارج بدأت فجأة عاصفة هائلة، وأصبح البرق كأنه يخرج من داخل البهو، وأخذ يتواصل ويتلاحق وبسرعة وإلحاح، واستقوت الرعود فبدأت تهز الثريات الملونة، ثم فجأة أخذ سيل يقرع النوافذ، ولم يُبدِ الجنرال سبيرس أي اهتمام، لكنه رأى في كل ذلك مؤثرات مسرحية تساعده على قول ما كان يريد أن يقوله في أي حال:

ـ الفرق بين طقسنا في لندن وطقسكم هنا، أنها تمطر عندنا طوال الوقت ولكن بلا عواصف وبلا رعود، والفارق الآخر أن أمطارنا توزع نفسها على مدار السنة، عندكم، يهطل من المطر تماماً ما يهطل عندنا، تماماً، لكن على عجل، وفي عاصفة، ومع رعود وبروق كثيرة، وهذا الفارق في المناخ جعل هذا الفارق في الطباع.

أرادت «مود» أن تقارع صديقتها المفوض السامي، وأن تظهر للآخرين مدى نفوذها لديه مرة أخرى:

ـ ولكن يا عزيزي «إد» أليس من الأفضل أن يكون المرء صريحاً وواضحاً، فلا يخبئ في صدره ما يضايقه ولا يخفي عن الناس ما يكنه؟

ـ الاستسلام للانفعال وردة الفعل، يا عزيزتي «مود» يريحنا لدقائق ويتعبنا إلى وقت طويل، من الأفضل أن نكون صريحين لا واضحين.

وسألت «زلفاء» التي لم تتحدث في صوت عالٍ طوال هذا المساء:

ـ ما هو الفرق؟

أجاب:

ـ في الظاهر يبدو أن لا فرق، لكن الصراحة واجبك حيال الآخر. أما الوضوح فهو حقك تجاه نفسك.. وفي الإمكان أن نتحدث عن أي شيء بصراحة شديدة من دون أن نوضح ما لا نريد أن نوضحه.

قال «كميل» ضاحكاً:

ـ هل الجنرال صريح هذه الليلة أم واضح؟

ـ اسمع يا عزيزي «كميل»، إنني الآن أتحدث بصفتي سفيراً لمملكتي، لقد لهونا كثيراً هذا المساء، ولكن لم يغب عني لحظة أننا في حرب عالمية، لقد أخافتنا جميعاً هذه الرعود برغم معرفتنا أنها مجرد عاصفة في الريح سترمي أمطارها وتمضي، وأنا بصفتي عسكرياً لا أستطيع أن أنسى للحظة أن لي رفاقاً في صحراء ليبيا ترعد فوق رؤوسهم المدافع الثقيلة، أو أنهم يرتعدون برداً وجوعاً في دنكرك، أنا مهمتي هنا أن أعرف مصلحة بريطانيا الإستراتيجية كوني عسكرياً ومصلحتها

الإمبراطورية كسياسي، لا خيارات لدي ولا عواطف، نحن العسكريين تعلمنا أن نترك شؤون الرأفة «للصليب الأحمر»، ونعطي أمر الصلاة لكاهن برتبة ضابط، ويتولى شؤون التموين رجل خبير في التموين!

قاطعته «مود» في جدية هذه المرة:

ـ يتحدث الجنرال وكأن في الأفق ما يقلق.

ـ لا، في السياسة ليس هناك ما يقلق، لكن أيضاً ليس هناك ما يريح، الفرنسيون لن يتركوا لبنان بسهولة، إنه حصنهم الثقافي في المشرق، فهم يؤمنون أن اللغة هي أفضل وسائل البقاء، لذلك رأوا في الجامعة الأميركية عملاً حربياً، مع أن الأميركيين اختاروا الجهة الغربية من بيروت بكل ذكاء، بعيداً عن الجامعة اليسوعية، ونحن لا نريدهم أن يذهبوا لكننا أيضاً نخوض حرباً عالمية من أجل حضارة الغرب، نخوضها في الملايو وفي جاوا وفي دلهي، وليس في إمكاننا أن نتراخى أمام حليف متضعضع.

قاطع «كميل» مستفسراً:

ـ أليس هناك اتفاق حول مناطق النفوذ؟

ـ يا عزيزي «كميل»، يجب أن تتعلم بصفتك رئيساً مقبلاً، أن الإستراتيجيات لا تتحمل ولا تحتمل الاتفاقات الطويلة المدى، منذ الحرب الأولى إلى اليوم تغير شكل هذا العالم، قبل عقدين كان جمال باشا السفاح يعلق المشانق هنا، أين هو الآن؟ لقد

انتهى عارضاً خدماته على الفرنسيين، ثم على الروس، عندما اتفقنا مع فرنسا حول الشرق لم يكن واضحاً بعد إلى داخل أي حدود سوف تتراجع تركيا العثمانية، وكانت فرنسا يومها دولة قوية وموحدة، أما الآن فنحن نخشى أن يتحول ضعف فرنسا إلى ضعف لنا أيضاً. إننا لا نحتمل مثل هذه المغامرة.

سألت «مود»:

ـ هل يعني ذلك أن الصراع مع فرنسا سوف يتطور إلى ما هو أسوأ؟

ـ آمل ألا يحدث ذلك يا عزيزتي «مود»، التحالف لا يتحمل مثل هذه الهزة المعنوية، ومعنويات فرنسا في الداخل أمر شديد الأهمية بالنسبة إلى الحلفاء، لا، لا، آمل ألا يحدث ذلك، ولكن على الفرنسيين أن يدركوا أيضاً أن لنا مسؤوليات في مصر وسورية والعراق وفلسطين، هذا المشرق حلقة واحدة.

تدخلت يمنى في النقاش للمرة الأولى:

۞ هل الرئاسة اللبنانية مهمة لديكم إلى هذا الحد؟

ـ آه، ها هي عزيزتنا يمنى تقول أخيراً، شيئاً ما، لقد خرجت راهبة السهرة عن صمتها أخيراً، دعيني أولاً أقول ما يجب، في هذه الأناقة الفائقة، مذ دخلنا وزوجتي تسألني، أين تعثر يمنى على هذه الفساتين البنية، الورعة المظهر، أين تعثر يمنى على حبات العناب التي تزين بها قبعاتها، كيف تجمع يمنى بين الفستان البني والوشاح الأزرق والحذاء الذهبي؟ وكنت أجيبها،

إنها صديقتك، اسأليها. أما أنا فاتركي لي الشؤون الأقل أهمية، كالسياسة والحرب! أما عن الرئاسة اللبنانية يا سيدتي العزيزة فهي، أجل، مهمة إلى هذا الحد. كل دولة كبرى تبحث عن حلفاء وتحاول إزاحة خصومها من الطريق. إميل إده صديق معلن لفرنسا وهو يكرهنا ولا يريدنا. ومن حقنا أن نؤيد رجلاً آخر. فمن يمكن أن نؤيد؟ بالطبع يجب أن نؤيد أحد أصدقائنا أو رجلاً آخر نثق به، وأفضل مرشح لدينا هو المحامي كميل شمعون، هذا ليس سراً لدى أحد. لكن كميل شمعون لا يزال شاباً على الرئاسة، لا بد في الكراسي الأولى من معالم الوقار. إن بشارة الخوري، وفقاً لكل التقديرات، هو مرشح الناس، فلماذا لا يكون مرشحنا أيضاً، وسوف نعرف كيف ندعمه!

قاطعت «مود»:

ـ لكن بشارة الخوري متحالف مع رياض الصلح، هل ستتغافلون عن هذا التحالف؟ والمسلمون لهم زعيم واحد الآن وناطق واحد هو رياض، هذا الرجل الفَطن يعرف سر كل شيء، لقد نقل هويته من صيدا إلى بيروت لأنه يعرف أن العاصمة هي كل شيء، هذا هو السر الذي يعرفه عبد الحميد كرامي فكان أن بقي زعيماً شمالياً.

ـ ليس من شأننا أن نسمي الحكومات، إن هذا سوف يجعلنا نتساوى لدى الناس مع الفرنسيين، لا، لا نريد ذلك، وغداً عندما يصبح رياض الصلح رئيساً للوزراء في بلد مستقل، لا بد له من

أن يأخذ في الحسبان كل الاعتبارات من أجل بلده، إنها ليست مسألة خصومة وصداقات بقدر ما هي مصالح تفرض نفسها على رجال الدول، مهما كبروا، خذي ونستون تشرشل، إنه لا يطيق شارل ديغول، ولا يكف عن القول: «كيف أمكن وضع هذه الرأس الصغيرة الحجم فوق كل هذه القامة»، ومع ذلك فهو يمنح شارل ديغول الاستقبال الذي يعطيه لرؤساء الدول، يجب ألا ننظر إلى ديغول عما هو اليوم بل عما هو غداً.

عادت «مود» تصرّ:

- لقد قلت قبل قليل إنك تريد أن تصارحنا، ومع ذلك لن نفهم ما هو موقفك الحقيقي من رياض الصلح.

- يا عزيزتي «مود»، لا تزالين شابة، وجميلة طبعاً، لكنك أصبحت تعرفين الكثير في السياسة. نحن لا نستطيع أن نصنع الرجال، الدول قادرة فقط على تدمير الزعامات أو على إبعادها، رياض الصلح زعيم، وهذا لا يضيرنا، كنا نتمنى طبعاً أن يكون معنا لكننا اكتفينا بأنه ضد الفرنسيين، إن رياض يمثل الجيل القومي في العالم العربي، وهذا يعني أنه لا يستطيع أن يمنح صداقته لأي أجنبي، وكما تقولون هنا عدو عدوّي صديقي!

لماذا اختار الجنرال سبيرس هذا المساء وهذه المجموعة الصغيرة من أجل أن يوزع للمــرة الأولى كل هذا الكلام؟ هل من أجل إعطاء «مود» أهمية ما، في بيروت، التي ستعرف قبل طلوع الصباح بما

حدث؟ هل من أجل إبلاغ «كميل» أنه لا يزال يافعاً على الرئاسة؟ هل من أجل إبلاغ يمنى ذلك الموقف المزدوج، بأن بريطانيا ليست ضد من تحب؟

شعرت يمنى بالتعب، وكاد النعاس يتسلل من بين رموشها المتباعدة ومن خلال دخان «البلايرز» الذي جعل القاعة أشبه بحمام تركي كثيف الضباب، إلا أنها كانت تشعر باغتباط غير قادرة على تفسيره، ربما لا تستطيع ذلك، وربما أيضاً لا تريد ذلك، هل من الضروري إرهاق الفرح بالشرح؟ ماذا يبقى من السعادة عندما نشرحها؟ إلا إن ثمة خيطاً مريراً في كل ذلك، فقد كان الجنرال سبيرس يرمي الأخبار المفرحة كمن يرمي فتات مائدة من الشرفة، هو الذي يمنح التأييد وهو الذي يحجب المعارضة، هو الذي يحدّث في شأن العالم، من الصحراء الليبية إلى دنكرك إلى كريت، وهو الذي ينعطف بعد ذلك صوب لبنان فلا يرى فيه أكثر من «جزء من المشرق» ولا يرى في رجاله غير كائنات يائسة تحتاج إلى دعم بريطانيا، أو تغاضيها.

أرادت يمنى أن تنتقم لقدر الدول الصغيرة بالانسحاق، تطلعت في الرجل فوجدت أن عينيه بدأتا تحمران مثل باقي الساهرين ولاحظت أن لمعان شعره بدأ يبهت، ونظرت إلى الليدي سبيرس فوجدت النعاس ينزل عليها من خلال فرق شعرها الأجعد، الذي لابد أنها كوته خصيصاً للمناسبة، ولوت الليدي سبيرس رأسها قليلاً رغماً عنها، ولم يبق مكابراً خدر السهر سوى «مود» التي لا تزال تحكي وتتنقل مثل دمية مصنوعة بعناية فائقة.

أرادت يمنى الانتقام، على طريقتها، قالت تخاطب الوزير البريطاني:

۞ لقد نسيت في ذلك كله يا عزيزي الجنرال، إرادة اللبنانيين، الناس تريد رجلاً منها، والخيار ليس بين الفرنسيين والإنكليز بل بين الاستقلال والانتداب، بين الحرية والتبعية، ويجب ألا يغيب عنك أن اللبنانيين مستعدون للموت من أجل الحرية.

اعتدل الجنرال سبيرس في مقعده كأنه طعن، وأطفأ سيجارة «الفرافن اي» بعصبية واضحة، ثم أجاب بخبث متناه:

- أجل، أجل، أنت على حق يا عزيزتي يمنى، إن إراقة بعض الدماء لا تضر على الإطلاق، بل على العكس تماماً. إن ذلك سوف يسهم في ترويع أصدقائنا الفرنسيين، فهم لا يكفون عن القول إنكم مجرد فلاحين لا تعرفون كيف تستخدمون السكين والشوكة على المائدة وإنكم حين تعثرون على قطعة من اللحم تسارعون إلى خلطها بأرطال من البرغل لكي توزعوها على العائلة كلها! إن الدول تخاف انتفاضة الفقراء.

قالت يمنى:

۞ يا سيدي الجنرال الوزير، هل هذه أقوال الفرنسيين أم هي ملاحظاتك الشخصية؟ قد لا يعرف أهلنا استخدام السكين والشوكة بعد، ولكن أصدقاءنا الفرنسيين يعرفون الفارق في المستوى التعليمي بين تلامذتهم وتلامذتنا في الجامعة اليسوعية، ويعرفون أن جميع طلابنا الفقراء الذين لم يشاهدوا شوكة وسكيناً في بيوتهم هم الذين يحصدون المنح الدراسية حصداً.

ـ لم أقصد أن أثير غضبك يا سيدتي العزيزة، إنما أنا كنت أنقل انطباعاً شائعاً تعرفينه مثلي.

☼ إنك لم تثر غضبي يا سيدي الجنرال، فقط حرّكت شفقتي عليكم وعلى الفرنسيين، فلا شيء يعلّم الناس الحرية مثل معاملتهم كعبيد. لقد جئتم إلينا باسم «الثورة العربية» وكل ما حدث أنكم استبدلتم بالاستعمار التركي المتخلف الذي لا يعرف سوى لغة المشانق والضرائب استعمارا مدنيا فخره الأول استخدام الشوكة والسكين، وليس تحرير الناس من الفقر والعوز والجهل، لقد فتح لنا الفرنسيون على الأقل أبواب المدارس.

ـ لقد فتحوا لكم أبواب الإرساليات!

☼ ليس ذلك مهماً ما داموا يقدمون لنا العلم، جرحى الحروب لا يدققون في هوية الصليب الأحمر خلال رحى المعارك.

ـ لم أكن أعرف يا عزيزتي يمنى أن لديك كل هذا النبض، كنا إلى اليوم نعتقد أنك مجرد فستان بني غامق وحذاء ذهبي، كم أسأنا التقدير، لعلها صداقة «رياض بك» تعلّم كل هذه الدروس!

احمرّت وجوه الجميع من الملاحظة ولم يعد رأس الليدي سبيرس ملتوياً إلى اليسار، وحاولت أن تخفي ذهولها بأن مدت يدها تسرّح بها شعرها، لكن أصابعها علقت بعُقَده الحديثة، لقد رمى الجنرال صاعقة أصابت الجميع، المضيفة والضيفة وبقية الضيوف.

إلا أن الحرج في يمنى حوَّلها من فستان بنّي غامق وحذاء ذهبي إلى نمرة مهانة:

⊛ صداقة «رياض بك» يا عزيزي الجنرال، تعلَّم قبل كل شيء أدب المجالس، وليس لهذه الآداب علاقة بالشوكة والسكين، وإنما بكرامات النفوس والحرص على كرامات الناس واحترام تقاليد الشعوب، وقد لاحظنا جميعاً هذا المساء أن لا همَّ لك سوى توزيع الإهانات ولكن بأسلوب إمبراطوري طبعاً!

حملت يمنى حقيبتها الذهبية ومشت، وحاولت «مود» ثنيها، لكنها قبَّلتها مودعة، فيما ظل الوزير جالساً، واحتارت الليدي سبيرس فيما تفعل، وبعد قليل ودَّع «مود» الجميع، ولم يعتذر الجنرال عن البيضة الفاسدة التي رمى بها نهاية السهرة، مكتفياً بأن قبَّل يد مضيفته:

ـ إنك و«جورج» أفضل مضيفين في هذه العاصمة يا عزيزتي «مود».

كانت العاصفة قد هدأت في الخارج من جديد، لكن الشوارع ظلت تفيض بالمياه وكأنها تحولت إلى أنهار مفاجئة، وعندما وصلت يمنى إلى مدخل المبنى رأت جنوداً أستراليين ثملين يترنَّحون وقد بُلِّلت أثوابهم وشاراتهم وقبعاتهم، وتقدم سائقها سريعاً بالسيارة «الباكارد» بقدر ما استطاع، خوفاً من أن تبلل المياه الحذاء الذهبي وأطراف الثوب البني الطويل، لكن المياه الجارفة غمرت كل ما في طريقها، غير آبهة بالجماليات الملامسة.



استفاقت هواتف بيروت ظهر اليوم التالي دفعة واحدة، وراحت أجراسها ترنّ، وتأهب جميع المراقبين في «السنترال» العام يدوّنون سراً ما سوف تردده المدينة علناً خلال دقائق: هل سمعتم ما قاله الجنرال سبيرس؟ هل سمعتم ما قاله سبيرس؟



ثلاث حدائق وقصران صغيران

23 ايلول 1943

كلما جاءت يمنى لتناول قهوة المساء في قصر القنطاري وقفت على الشرفة، مثل مسّاح طوبوغرافي، تراقب الفوارق في مشهد البحر من هنا وفي مشهده من شرفتها، شرق المدينة، ولا تدري لماذا تحب البحر من شرفتها وتشعر انه أكثر مؤانسة ولا تدري أيهما اقرب إلى طمأنينتها وأعماقها البعيدة: البحر في المدينة أم الشلال في الجبل، ولا تدري لماذا دعيت هذا المساء إلى هنا، ثمة أشياء كثيرة لا تدريها يمنى. وبما أن هذه الأشياء غير مقلقة أو غامضة، فهي تضحك لها أو تضحك عليها وتنفض كتفيها الصغيرين كما تفعل أمام البحر والشلال، بلا مبالاة جميلة، كما لو كانت لا تزال في الرابعة عشرة، تنفض عن كتفها أوراق وردة رشقها بها صبي غيور من صبيان الحي، أو صبي خبأت له ميلاً خفياً في طرف العين، جهة الصبا.

هذه الشرفة أيضاً جزء من حياتها المعدودة السنوات، ولكنها غير معدودة المدى والأماكن والمشاعر. وعلى هذه الشرفة الصديقة استفاقت على شيء يدعى السياسة، ورأت السياسيين يدخلون ويخرجون ورأت بطرف عينيها الجميلتين كيف كان شيوخهم يسترقون النظر إلى صباها الغض والبضّ النضر، فتضحك في سرّها، وتدور حول نفسها مثل فراشة، وتضحك، وتترك خلفها أطراف العيون الخائفة من إعلان ما لا يُعلن: ذل الكهولة أمام عز الصبايا.

ومذ كانت في الرابعة عشرة وهي لا تُعامل في هذا البيت كصديقة تأتي وتذهب، بل تُعامل كزهرة من أزهار الشرفة، أو كوردة من ورود الحديقة المسوّرة حول الطابق الأرضي. وإذا كانت للقصر سيدته فقد كانت هي زهرته الضيفة وابتسامته وضوع الصبا فيه، ففي هذه الأركان العتيقة المضاءة بالثريات التركية الحمراء والمغطاة بالسجاد الداكن الألوان وتحت هذه السقوف المحفورة بالنقوش الزرقاء والمذهّبة، كانت هي تنشر ـ كلما حضرت ـ متعة الابتسام وحرية الصبا وضوعه، ضوع الصبا.

طوال سنين كانت تأتي إلى هنا من دون تساؤل. فهذه الشرفة استكمال لشرفتها، وهذه الردهات، على فتومها، امتداد لدارها المطرز بخيوط الفرح وألوان التفتّح. لكن هذا المساء تساءلت لماذا طلب إليها أن تمر بقصر القنطاري ولم ينتظر أهل القصر مرورها العفوي المعتاد، كأنما هي تخرج من غرفة في بيتها إلى غرفة.

تمازح الجميع. وتولت إحدى الزائرات «التبصير» في فناجين الحاضرات، وفجأة ساد مكان الحبور وقار، إذ دخل الشيخ بشارة يدفع قامته العريضة دفعاً ويسارع إلى تعليق قبعته في المشجب كأنه تخلص من حمل، وقال متأففاً: «هذه القبعة سوف تصبح أقرب إليَّ من كارولين، من دونها لا أستطيع أن أخرج إلى مكان وإلا أُصبت بالشمس أو بالبرد». وضحك الحاضرون، فالشيخ لا يلقي النكات على الدوام، وربما ضحكوا لأنها حالة نادرة.

لم يدم جو التباسط طويلاً، فقد انتحى الشيخ جانباً بكاتمة أسراره ليطلعها، هامساً، على سبب دعوتها هذا المساء: «إننا في حاجة إلى شيء من الندى في سهرة الليلة، وقد قلت في نفسي إنك تشذّبين بحضورك أي سهرة كانت».

وضحكت يمنى للفكرة:

⊛ وهل هي خشنة إلى هذا الحد؟

ـ أكثر مما تتصورين!

⊛ إنك تزيدني رغبة في معرفة أصحابها.

ـ لقد دعانا إميل إده إلى سهرة خاصة في منزله ولم يكن في إمكاني أن أرفض، إنه بالتأكيد يبحث عن نوع من التسوية. وسوف أذهب وأرفضها هناك، لا يليق بي أن أرفضها مسبقاً.

⊛ لا أعتقد أن إميل إده يعرض تسويات، إنك لا تعرفه جيداً.

ـ ربما، لكنني أعرف أن كل من يضعف في أي صراع، يعرض التسوية.

⊛ تسوية ماذا يا صديقنا العزيز؟ أنت وهو تتقاتلان على مقعد واحد، وأنت وهو تتقاتلان على صيغتين، هو يدعمه الفرنسيون علناً، وأنت يدعمك الإنكليز سراً، والإنكليز والفرنسيون يتقاتلون مرة في السر ومرة في العلن، ولبنان كله يعرف ذلك، ولبنان هو المسرح الصغير لهذا الصراع الكبير، فهم لا يستطيعون التقاتل عسكرياً ولذلك

يتطاحنون سياسياً، وكم يبدو الأمر مضحكاً أحياناً، كل الأسلحة إلا السلاح، ألا تعتقد أن الجنرال سبيرس يكره الجنرال ديغول أكثر مما يكره هتلر؟

كان الطريق قصيراً جداً بين قصر القنطاري ومنزل إميل إده في شارع مدام كوري، لكنه كان مليئاً بالشجر ومحاطاً بالبساتين، وعندما مرت بهما السيارة بحديقة الصنائع جاءتها رائحة الزهور تحمل من النافذة ذكرى زمن الحدائق، يوم كان كل ما حولها حدائق فسيحة يمكن لأي سور أن يحميها. آه، آه، وكانت أمها تعقد لها في كل مرة تقبل الانضمام إلى رفيقاتها الصغيرات بعد ظهر الخميس، كانت تعقد لها في شعرها زهرة غاردينيا من هذه الحديقة، وكانت تنام على جنبها الأيسر لكي لا تخرب هذه الياسمينة الأكبر من الياسمين، من أجل أن تذهب بها إلى المدرسة صباح اليوم التالي.

ذلك زمن لا يعود، فالحديقة التي ستصل إليها بعد لحظات، حديقة سياسة لا ياسمين ولا غاردينيا، وفي حدائق السياسة ينبت الشوك غير مرئي ولا يعود ضوع الياسمين مهماً. وشعرت وهي تترجل من السيارة متقدمة الشيخ بشارة كأنها مندوبة قبيلة تقوم بزيارة قبيلة أخرى من أجل المصالحة، السياسة تحوّل الناس إلى قبائل.

كان أيار كثير الحضور في حديقة البيت البسيط الهندسة، وكانت سماء بيروت الزرقاء ترسل أضواءها البرّاقة مثل عقد من عقود يمنى يلمع على الشرفة في ضوء القمر، لكن ثمة توتراً غامضاً كان يقتحم جمال هذه العشيّة وانبساط أيار اشرئباب زهوره.

كان إميل إده في قامة واحدة تقريباً مع ضيفه غير المتوقع، إلا أنه لم يكن يملأ من قماش «الدورموي» ما يملؤه الشيخ، ولم ينفع أيار في إقناع الشيخ بخلع الصدرية الزائدة، فهو لا يأمن لغدرات البرد، قبل أن تؤكد له نهايات حزيران أن الصيف سوف يقوم على حراسة المفاصل وردّ النزلة الصدرية، كما كان يخشى، بكل وضوح، أن يتقدمه إميل إده حتى إلى الدار في الطابق الثاني لكي يدله على الطريق، فقد دفع الشيخ نفسه دفعاً وتسلّق الدرج من دون الحاجة إلى الاحتماء «بالدرابزون» الداخلي، هل بدأت السلطة منذ الآن تمنح الشيخ عافية تفوق بكثير ما يعطيه معدل الأعمار في هذه السن؟ لابد، لابد.

كان عدد قليل جداً من المدعوين قد وصل، وظلوا جميعاً في الحديقة، حيث وقف الحرس بعيداً في الزوايا، لكن الرئيس إميل إده أراد «دقيقتين على حدة» مع الشيخ بشارة، وإذ دلفا إلى الصالون المفروش بالكراسي والكنبات الجلدية السوداء، تبعهما مسرعاً، النجل الأكبر.

كان ريمون إده في أوائل الأربعينيات، وكانت فيه، بكل وضوح، وسامة لم تكن في إميل إده، برغم الشبه الشديد، ومع أنه خلع ربطة العنق هذا المساء، فقد استبدل بها أناقة القميص الأبيض المفتوح، العريض القبّتين، واستعاض عن الطقم الأزرق الداكن «بالبليزر» السوداء الذهبية الأزرار، وتطلع الشيخ بشارة مستغرباً حضور طرف ثالث، ونظر الرئيس إلى ابنه وكأنه يتساءل عن سبب وجوده، لكن الابن أدرك علامات التعجب ولم يأبه لها.

كـان شـيء واحـد يجـمـع بين الرئيس والرئيس المقـبـل: التـحـدث بالفرنسيـة، اللغة كانت هي الجامع الوحيد بين هذين الكهلين المربوعي القـامـة اللذين يتنافـسـان على الالتـفـاف بالعلم والتـدثر بالوشـاح الجـمـهوري الأخيـر. اللغـة كـانت واحدة، أمـا المنطق فكان مـتـبـاعـداً والمواقف كانت متقاطبة، لقد رأى كل منهما لبنان كما يشـاء، محاميان مـاهران ترافـعـا في قضيـة واحـدة، من منطلقين متـنـاقضين، واحـد لا يرى الاستقلال إلا من خلال علاقة خاصة مع فرنسـا، وواحد يراه من خـلال الإمـبـراطورية وامـتـداداتهـا العـربيـة، ولـم يكن أي منهـمـا يدرك، برغم مـا خلفه من حنكة سيـاسيـة، أن لا ثوابت فـوق سـطـح الأرض، ولم يكن أي منهما يصدّق أن ثمة قوتين حديديتين تتجهان شرقاً من فوق رأس أوروبا و«العـالم القـديم»: الأولى سـوف تعـبـر الأطلسي إلى مـا تسـمـيـه «الشـرق الأوسط» وفقاً للقيـاسات المتعلقة بالمسـافات بالنسبـة إليهـا، والثانيـة سوف تعبـر آسيـا الصـغـرى لكي تصل للمـرة الأولى إلى المتوسط، هذه المرة بموجب دعوة رسمية موقعة من أهل البلاد، لا من بطرس الأكبر.

لكن السيـاسيين لا يبنون حسـاباتهم على توقعـات المستقبل، ليس هناك مـتسـع من الوقت أمـام المشـتـغل بالسيـاسـة، ولذا فـإن بضـاعـتـه وصناعـتـه هي الحـاضـر والآن، وكل مـا يُفـوِّت الآن يفـوِّت غـداً. النضـج السياسي مثل المراهقة، مرحلة لا تطول ولا تتكرر. لا وقت، لا وقت.

غرق الشيخ بشارة في المقعد الذي تكسَّر جلده الأسود، وجلس إلى يسـاره هذا الشـاب المتـوقـد، الحـاد، المتلهف لأن يسـبـق الاثنين إلى الكلام، لكن كان عليه أن ينتظر، بدأ الرئيس بالتحدث:

ـ أشكر مجيئك هذا المساء وأقدّر لك قبول الدعوة.

ـ أنا من يقدّر دعوتك يا عزيزي الرئيس.

ـ لقد رأينا أنفسنا في معركة طاحنة أيها الزميل العزيز، وهذا أمر طبعي، السياسة معارك كلها وكل مقعد يتسع لرجل واحد، ولكن المعركة تتطور يوماً بعد آخر بطريقة تسبقنا معاً، وهي لم تعد معركة «الكتلة الوطنية» و«الكتلة الدستورية» بل انتقلت إلى الأهالي، قلوب الناس تمتلئ حدّة وضغينة بسببنا نحن، وعلينا أن نفعل شيئاً.

ـ إني أقدر مصارحتك يا عزيزي الرئيس، لكن هل لنا أن نتساءل من هو المسؤول؟

ـ دعنا لا نبدأ بذلك أيها الزميل، وأتمنى ألا أفهم من تلميحك أنني أنا المسؤول، أنت تعرف وأنا أعرف أننا فعلاً نتزعم سفينتين، لكن من الذي يحرك هذا البحر من تحتنا؟ من يحرك البلد عندما تنام أنت وأنا؟

ـ إنك تنظر إلى المسألة يا عزيزي الرئيس من عين واحدة: الصراع البريطاني ـ الفرنسي، لكن ماذا عن الناس ومشاعرها؟ الناس ترفض الفرنسيين: لأن الانتداب فرنسي ولو كان بريطانياً لرفضت البريطانيين، نحن جزء من هذا العالم العربي يا عزيزي الرئيس، والرياح التي تهب في المتوسط واحدة، ليس في الإمكان

أن نختلف عن الآخرين، انظر إلى ما يجري في مصر، إلى ما يجري في سورية والعراق. الزعامات هناك هي التي تلحق بالناس، وليس بالعكس.

ـ لا نستطيع أن نفعل ذلك هنا، يا عزيزي الشيخ. لا نحن في سورية ولا نحن في مصر، نحن بلد صغير ومتعدد، كثير النوافذ متشابك الأبواب، دائماً في حاجة إلى قوة تحمينا من الخارج وتحمينا من أنفسنا معاً، وهذا هو التاريخ خلفنا لا أمامنا: هل الأفضل أن تُكتب لنا الحياة في ظل الحماية أم أن نبقى غارقين في الموت والهجرة ولكن من دونها؟

ـ الأفضل يا عزيزي الرئيس أن نبني مستقبلاً مختلفاً.

ـ دعنا من النظريات الآن يا عزيزي الشيخ. نحن لا نستطيع أن نبني المستقبل منفردين. والقرن الماضي ليس ببعيد جداً. فكلانا من مواليده، إننا الآن على مفترق، ويجب أن نتفق على صيغة ما.

ـ هناك صيغة واحدة: الاستقلال.

ـ وهل تعتقد أنني ضد الاستقلال؟ هل يخطر لك أن رئيس الجمهورية يَطرَب لمطالب المفوض السامي؟ ولكن أي استقلال نريد؟

ـ نريد أولاً الاستقلال. الصيغة تأتي فيما بعد، الاتفاقات تأتي فيما بعد.

ـ أنا معك، لكن الفرنسيين لا يطلبون البقاء إلى الأبد هنا، كل ما يطلبون هو أن يخرجوا باتفاقات تنظم العلاقة في المستقبل، ودعني أسرّ إليك بما قاله لي الجنرال جورج كاترو، لقد قال «نحن خارجون غداً أو بعد غد، بإرادتنا أو بإرادتكم، لكن دعونا نخرج كأصدقاء»، لا تريد فرنسا الديغولية أن تبدو مهزومة أمام خصومها، إن ذلك لا يؤثر في صورتنا فقط في لندن بل حتى في باريس، إنك تعرف يا عزيزي الشيخ ماذا تعني هذه المدينة الصغيرة لباريس، نحن أصغر دول الشرق يا عزيزي الشيخ، لكننا ثغره أيضاً.

ـ أنا ليس همّي ماذا يناسب الفرنسيين، سيدي الرئيس، أنا أطلب ما يناسبني، أريد حريتي أولاً، لقد سئمت مظهر الحراب السنغالية تغلق عليّ طرقات بلدي، وسئمت الطريقة التي يتحدث بها المسيو «هللو» إلى الناس.

ـ فرنسا ليست كلها الحراب السنغالية ولا المسيو «هللو»، أنت تعرف أن شارل ديغول يغار على هذا البلد الصغير، وتذكر كيف أعفت باريس المفوض السامي عمانوئيل ساراي يوم أظهر تلك العجرفة في بكركي، لماذا نريد أن ننهي تلك العلاقة بهذه الطريقة الآن، ولماذا نرمي الدماء بيننا وبينها؟

ـ أتمنى عليك أن تقول هذا الكلام للمفوض السامي.

ـ لكننا يا عزيزي الشيخ قد وقعنا في الوسط بين أكبر متصارعين في هذا العالم، لسنا سوى حجر بسيط في لعبة شطرنج كبرى.

ـ بين كل هذه الحجارة يا عزيزي الرئيس لا يهمني سوى موقعي. لست مسؤولاً عن حال الإمبراطوريات، أنا مسؤول عن حالي وحال هذه البقعة الصغيرة، إما الاستقلال اليوم وإما لا استقلال، لن نستطيع أن نطلب الاستقلال عندما يقوى الفرنسيون وتنتهي الحرب، لابد أن نطلبه وهم ضعفاء، قليل من الدماء اليوم ولا كثيرها غداً.

تدخل الشاب الجالس إلى اليسار للمرة الأولى:

ـ لقد اكتمل الضيوف في الحديقة، وبعد قليل سوف يبدأ الهمس وتكثر التساؤلات، لكنني أريد أن أقول شيئاً في هذا الحوار. يجب أن تعرف أيها الشيخ بشارة أننا في العائلة كنا ضد قبول والدي بالرئاسة، لقد قسمتنا الرئاسة إلى فريقين، هو ونحن، ليس لأننا لا نثق بحكمه السياسي، فنحن نعتقد ـ بالإذن منك ـ أنه أعقل السياسيين في لبنان، وهو في أي حال، أكثرهم اطلاعاً، لكننا قلنا له: إنه في بعض المراحل أو في بعض الظروف، يتعين على رجل السياسة أن يضع جانباً المنطق وحتى المصلحة الوطنية كم مرة تكون المصلحة الوطنية هي مشاعر الناس، خطأ أم صواباً، الشعوب لا تعرف لغة المصالح، وأحياناً علينا أن نسير وراءها لا أمامها، هذا حق من حقوقها، لقد قلت ذلك لوالدي، قلته له في

قلب مكتبه بالسراي، عندما عدت من جولة في البسطة والمصيطبة، وشاهدت كيف كانت الناس تغلي هناك، قلت له: إن الناس لا تميز بين عمل رجل الدولة وعمل الزعيم، الناس تريد زعماء لا رجالاً يقيسون كل شيء ويحسبون حساباً لكل شيء، الفارق بين رجل الدولة والزعيم كالفارق بين الزوج والعشيقة...

وقطع إميل إده الحديث قائلاً: «فلننضم إلى ضيوفنا قبل أن يخرج منهم من ينقل خبر الاجتماع إلى هللو وسبيرس».

كانت الساعة العاشرة تقريباً، وقبل أن يهبطا الدرج تذكّر إميل إده أنه على موعد نشرة الأخبار، فاتجه إلى المذياع الكبير وأداره، وبدأت إذاعة لندن أخبارها بنبأ دخول القوات الحليفة إلى العاصمة التونسية في استقبال شديد الحرارة، فقال إده:

ـ لقد انتهت مشكلة تونس!

وردَّ الشيخ بشارة بسرعة:

ـ لكنها مشكلة فرنسا تبدأ الآن يا سيدي الرئيس، الحرية عدوى ولا لقاح ضدها! انتظر ترَ غداً كيف سيرتد التونيسيون على فرنسا.

لم يكن من الممكن في الحديقة التمييز بين عطر الياسمين المتدلي على كل الجدران، وبين عطر الحاضرات، وبدت الحديقة من فوق وكأنها مباراة في القبعات وألوانها، وكانت أجملها ببعيد، قبعة يمنى التي تعثر لنفسها دائماً على خليط البني والأزرق، في كل شيء، في كل

شيء! وكانت مرحة بوضوح هذا المساء، وبوضوح أيضاً كانت النساء تغبطها ويحوم من الرجال، ذئاباً وخرفاناً، مخلوقات تثير الشفقة أحياناً، الضحك أحياناً، الإعجاب أحياناً، آه، طبعاً، الإعجاب دائماً، وها هو الذئب الدمث الطليق الحياة الطليق الأسلوب، ها هو ملعون المدينة، حبيب أبو شهلا يتقدم، كأسه في يده، سيجارة في يده، ومعه عدة العزوبية الدائمة كلها، من «البابيون» إلى كيس الإطراء، يوزع منه كيفما اتفق وكيفما شاء، ومن بعيد تقدم صوب يمنى، ضاحكاً، مهيئاً خوابي العسل لإفراغها عند قدميها، لقد عاد من باريس قبل ربع قرن بشهادتي دكتوراه، الأولى في صون حقوق الناس، والثانية في الاعتداء على الجمال، تجتذبه إلى ضحاياه رائحة العطر، خصوصاً المركّز منه، وقد علمته الدكتوراه الثانية أن ينقض دائماً على طريدته، فأسوأ ما يمكن أن يحدث هو الصد والفشل، والفشل شيمة النسور، فليس في كل انقضاض فريسة، وجحر الأرنب أقوى أحياناً من طغيان الجناحين الواسعين أو سرعة الجوارح، وها هو من بعيد، يذوب مثل نفسه ويسيل مثل لعابه تفضحه عيناه من تحت نظارتيه، وتسبقه أوراق اعتماده التي يقدمها طائعاً لكل امرأة، وتقدم من يمنى بفرنسيته المصقولة:

- يا لها من مفاجأة سعيدة ماذا تفعل هذه البجعة الجميلة في هذه البحيرة الآسنة؟

كادت يمنى تستلقي على ظهرها من الضحك، وردت على هذه الشاعرية بكل ما تملكت من فظاظة:

۞ حبيب، حبيب كيف حال زوجة السفير النمساوي؟

اعتاد أعزب بيروت مثل هذه التوبيخات من زمان طويل، وأجاب ضاحكاً:

ـ آه، السفير النمساوي، ألم ينقل بعد؟

ومضت يمنى تضحك:

۞ لا أدري، أنا لست وزيرة الخارجية النمساوية، أنا أسأل عن السيدة السفيرة، في أي حال، كيف هي حال السيدة السفيرة؟

ـ كيف أجيب عن سؤالك يا سيدتي العزيزة، كيف أجيب؟ هذه المدينة لا تكف عن إلحاق الظلم بكل رجل أعزب، لماذا لا تتدبّرين لي عروساً في مثل بهائك؟

۞ حبيب، حبيب، كيف هي زوجة السفير النمساوي؟

ـ إشاعات، إشاعات، مدينة إشاعات، إذا صافح رجل امرأة في الشارع قيل: تزوجها، وإذا ضحكت امرأة لرجل قيل: عشقاً، الآن، الآن سوف ينظر أحدهم إلينا ولا أدري ماذا سيقول.

۞ أنا أدري، حبيب، ماذا سيقولون، سوف يقولون: ماذا حدث لزوجة السفير النمساوي، وسوف يقولون: ماذا حدث لحبيب، فهو يحاول الآن ابتلاع «البضاعة الوطنية»، إن هذا لا يليق بك يا عزيزي حبيب، أنت طرائدك ضيفات هذا البلد من كل الجنسيات، ولو كان لهذا العالم تسامح مثل تسامحك لما اشتعلت هذه الحرب العالمية، إنك

سلم عالمي يا عزيزي حبيب، لو قدّمت خدماتك لما كانت هناك مشكلة بين أوروبا الشرقية و أوروبا الغربية، باريس، فرصوفيا، فيينا، إنه حقاً لذوق إمبراطوري! حبيب، كيف زوجة السفير النمساوي؟

جاء حبيب أبو شهلا مثل ذئب وتراجع مثل أرنب، ويمنى تضحك من نفسها أولاً، فمن أين جاءتها كل هذه الجرأة دفعة واحدة؟ لكن كم كان من السهل على أي امرأة أن تتجرأ على حبيب، هذا العاشق الأزلي العازب الأبدي السياسي غير المتعب، لقد كان الرجل رجلين: سياسي جريء مستقيم وطني دستوري عامل مجتهد، وكان عاشقاً ملعوناً ملتوياً نقالاً متقن الكذب حلو الحضور يذوب استسلاماً أمام أي امرأة جميلة كما يذوب الثلج في أول الربيع، دفعة واحدة، وتبين من تحته على الفور، خضرة العشب، هكذا تبين خضرة نفس حبيب في كل الفصول.

البحث عن المرأة لم يكن الغرض الأساسي من مجيئه، والنساء هذا المساء لم يحضرن، مثل يمنى، إلا من أجل تغطية الحقيقة ونوايا الرجال، والحقيقة أن إميل إده أراد أن يجمع كبار السياسيين لسببين: الأول أن يجنب البلد معركة طاحنة، والثاني أن يبعد عن نفسه، سواء أعَادَ رئيساً أم لا، صفة الرجل الموالي لفرنسا ولاءً مطلقاً، وسوف يقول لرياض بك، بعد قليل، عندما ينضم إليه في الركن الشرقي من الحديقة «إميل إده ليس مع فرنسا من أجل فرنسا، إنه مع فرنسا من أجل لبنان».

تحلق حـول رياض بك، رفـاق رياض بك أولاً، إنهم الموكب الدائم، وبسـبـبـهم بدا مـثل ملك لا ينتـقل إلـى مكان إلا مـحـاطاً بـالحـاشـيـة، المستـشـارين والقبـضـايات، الرؤوس الذكيـة التي لها طرابيش حمـراء والرؤوس التي لها طرابيش حـمـراء وفي جـانـبـها مـسـدس لا يؤذي ولا يعـبـأ ولا يطلق، لكنه دائـمـاً هـناك، جـاهـز لإنزال الرهبـة في نفـوس الخصوم والإعجاب في نفوس المعجبين.

الجميع كانوا يعرفون ما يحاول الجميع إبقاءه خفياً، الشيخ بشارة يعرف لماذا هو مـدعو؟ ورياض بك يعـرف لماذا هو مدعـو ولماذا الشيخ بشـارة مـدعـو أيضـاً؟ وحـبـيب أبو شـهـلا يعـرف لماذا دعي رياض بك والشـيـخ بشـارة؟ ولماذا دعي هـو؟ والكولونيل الفـرنسي الطويل القـامـة بقبعته الضيقة المذهبة الاحتفالية يعرف أن إميل إده يحاول الإفلات، تحت ضغط عائلتـه، من الالتزام حـيال فـرنسـا، والقبـعات النسـائيـة الحـاضـرة تعـرف مـاذا يدور في رؤوس الرجـال، لكن الجـمـيع تظاهـروا بالصفاء والسذاجة، وتركوا لروائح الزهر المتصـاعد من الحديقة ومن البساتين المجاورة، أن تطفى على كل شيء آخر.

حرص الشيخ بشارة على أن يكون في ركن من الحديقـة، وحرص رياض بك على أن يكون في ركن، وحرص حبيب أبو شهلا على أن يمر بكل سيدة حاضرة ويسألها ببراءة الذئاب السائلة اللعاب: «ماذا تفعل هذه البجعة الجميلة في هذه البحيرة الآسنة؟».

كانت بيروت تشعر أن نهاية الحرب بدأت تقترب، وبدأ السياسيون يدركون أن هزائم ألمانيا على الجبهة الروسية والقوة الأميركية سوف يغيّران مجرى الحرب، ومثل هذا الواقع يعني هنا واقعاً واحداً، وهو أن الثعلب الإنكليزي سوف يكون سيد الموقف، لا فرنسا المنقسمة ولا ديغول الذي يحاول أن يوحّدها، من يوحّد هذه الأذواق المتطرفة، المتذمرة أبداً، التي علّمها فولتير التبرم بكل شيء؟

لكن بيروت السياسية لم تكن قد حسمت أمرها بعد، لا، لا، إنها أكثر ذكاء من أن تفعل، ولمَ الاستعجال؟ هناك متسع من الوقت، فلتتطاحن البوارج الأميركية واليابانية ما شاءت، ولتحترق برلين ودرسدن، وليزعق أدولف هتلر ما شاء، هذه كلها ليست هموم الدول الصغيرة، خصوصاً البعيدة منها، الدول الصغيرة تملك شيئاً واحداً: الانتظار وتتمتع بحق واحد: حق الانتظار، وترفل بثروة واحدة: أن تنتظر نتائج التطاحن قبل أن تتخذ قرارها.

لكن الحرب السياسية هنا، الحرب الصغيرة من أجل رئاسة الجمهورية، لم تكن تستطيع أن تنتظر، هناك وشاح صنع لرجل واحد يلتف به، وبيروت تغلي من أجل أن تعرف صَدر مَنْ سوف يزيِّن، والناس، في أغلبها، تريد أن تعرف أين يجب أن تقف؟ والمفاجآت وقانا الله شر المفاجآت، والكولونيل الفرنسي الطويل يخاطب رجلاً ويتطلع بطرف عينه إلى ناحية أخرى، ويصغي إلى الجميع، وكانت قامته تساعده على أن يرى كل الحضور، وكان قلقاً. دائماً يبدو أنه قلق.

عندما توزّع الضيوف على الطاولات الحديدية في الحديقة عند العاشرة والنصف تقريباً، كان مكان الكولونيل الفرنسي إلى جانب يمنى، وقبالتها، بطربوشه العالي، ووجهه الأحمر الطافح بالحياة، وشاربيه اللذين أصبحا علامة المدينة، جلس المير مجيد، ومعه عصاه، تزيد في وقاره وفي خفة ظله معاً. كان كل شيء ينقلب ويتحوّل فيما العصر يأفل: الشيخ بشارة أصبح يعتمر القبعة الأميركية الطراز، ورياض بك أبقى الطربوش لكنه خفف كثافة الشاربين، وإميل إده دخل العصر لا قبعة ولا طربوشاً، وحبيب أبو شهلا قفز قفزاً إلى «البابيون»، سلاحاً فتاكاً في مطاردة البجع. أما سيدنا المير فلم يهن عليه شيء من تقاليد الجبل ومظاهر الفرسان. وإن كان قد أضاف إلى مظهر البأس كرفات «دومينيك فرانس»، تنفع صاحبها في أناقته ولا تقلل من وقاره.

رياض بك كان قبالتها على الطاولة الأخرى، ولم يبدُ مرة أنه تطلع ناحيتها أو أن تزاوج البني والأزرق في قبعتها الواسعة قد أضعف منه، وكان حوله الرجال، وتقي الدين يملّح المائدة ويطيّب الجوّ كيفما تحدث، ولم تعد السياسة مهمة في أي حال، فقد نزل إلى الطاولات ما هو أهم منها بكثير: طّيبات «الشيف» بطرس، الذي أمضى اليومين الماضيين يتأكد من مقاييس السمن الحموي، تلك الزبدة التي حرمت منها فرنسا إلا في محمياتها المشرقية، فلا شيء مثلها في أي مكان آخر، مراعي حماة وحليب نعاجها المضاعف الدسم.

القمر مكتمل في سماء بيروت، والليل بدأ يطري قليلاً، وقد خفَّت قليلاً الأصوات المرتفعة وتُرِك للشوك والسكاكين أن ترسل أصواتها عالية، وفجأة لمحت يمنى حبيب أبو شهلا يقطع الحديث مع السيدة التي إلى جانبه: ليصغي إلى رجل انحنى يهمس في أذنه شيئاً ما، وهبَّ حبيب واقفاً، متلعثماً، فسقط منديل المائدة بين يديه دون أن يدري، وأخذ يتلفت حوله وكأنه يبحث عن طريقة للفرار من غير أن تلحظه العيون، وضحكت يمنى في نفسها، لعل حبيب استدعي على عجل إلى تناول الحلوى النمساوية في مكان آخر، لكن البلبلة زادت، ورأت الرؤوس تتهامس حول الطاولات، ثم خرج حبيب متعثراً بنفسه، وتبعه آخرون، وآخرون، وكادت الحديقة تفرغ، ولم تبق طاولة بكامل مدعويها سوى طاولة رياض الصلح وزوجة إميل إده، أما طاولة إميل إده نفسها فقد هجرها نصف مدعويها، وبقي الشيخ بشارة جالساً وكأنه يحاول أن يخفي تحت صدريته فرحاً ما، ومدَّ يده إلى الصدرية مستطلعاً الوقت في ساعته الذهبية، لكنه أعادها بهدوء إلى جيبه، وغضبت يمنى من هذا الجو المفاجئ الذي ساد، وللمرة الأولى شعرت أنها هي التي تبدأ الحديث مع الكولونيل الفرنسي هذه المرة، فالتفتت إلى جارها وسألت: ما الذي جرى بغتة؟ ماذا حدث لهؤلاء القوم؟ هل في البلد خطب ما؟

تطلع الكولونيل الفرنسي إلى جارته بشيء من التعالي والشعور بالانتصار معاً:

ـ لقد عرف أصدقاؤك ما كانوا يريدون أن يعرفوا.

وقالت في عصبية وغضب:

☉ وماذا كانوا يريدون أن يعرفوا؟

ـ كانوا يريدون أن يعرفوا من سينتصر في المعركة، وقد جاء من أبلغهم أن ونستون تشرشل صرّح في لندن بأن التاج لن يعترف بحكومة إميل إده إذا انتخب من جديد! لقد انتهى كل شيء يا سيدتي العزيزة، بيان تشرشل ليس رسالة إلى لبنان بل رسالة إلى فرنسا، لكن أصدقاءنا اللبنانيين اعتادوا التقاط الرسائل وهي في الهواء.

وعادت تسأل في غضب:

☉ لكن لماذا خرج مَن خرج؟ إلى أين ذهبوا من هنا؟

ـ لقد ذهبوا إلى بيوتهم يا سيدتي العزيزة ولن يعودوا إلى بيت إميل إده مرة أخرى، لا يريدون أن يشاهَدوا معه بعد الآن.

☉ إلى هذه الدرجة؟

ـ إلى هذه الدرجة! إن الخاسر في السياسة يصبح مثل المرض المعدي، الجميع يتمنون أن يعزل في مكان بعيد، والمنتصر يصبح كورقة الحظ، الجميع يريدون الفوز بها، وإذا أردت أن تسألي مرجعاً في هذا الأمر فلن تجدي أفضل من الفرنسيين.

شعرت يمنى بحزن يهبط من السماء، بل خُيِّل إليها أن السماء لم تعد زرقاء بل سوداء داكنة، لقد بدا المشهد المفرح قبل عشر دقائق فقط، وكأنه الآن ساحة معركة لا أطباء فيها، وغابت نجمة الصباح

فجأة خلف غيمة داكنة غريبة عن أيار، لم تعرف إن كان عليها أن تفرح لبشارة الخوري أم أن تحزن بسبب هذا الضعف الذي لا تتردد النفس البشرية في إظهاره. لم ينتظر بعض الرجال تناول القهوة في حديقة إميل إده، وخرج أكثر الخارجين حتى دون أن يودّعوه، كادت تغيب في عالم آخر لو لم يوقظها الكولونيل الفرنسي مرة أخرى، لكن بشيء من التعزية والمؤاساة هذه المرة :

ـ يجب ألا تحزني كثيراً يا سيدتي الجميلة، الحزن لا يليق بالجمال، إنها فرصة سعيدة في أي حال، جارتي في المنزل وجارتي هنا، لاشك أنني رجل سعيد الحظ، لكن هذا الجوار لن يدوم طويلاً، تصريح تشرشل يعني اننا لن نبقى هنا طويلاً بعد الآن، إننا لا نريد حرباً مع لندن حول اي شيء، حتى من أجل هذا المنظر الذي أطلّ عليه من شرفتي الغربية كل صباح: البحر الذي يحمل إليَّ كل صباح الزرقة القادمة من طولون، أو حتى المنظر الذي يطل علي من النافذة الشرقية ومشهد حديقة البوغانفليا التي تبدو مثل بحر ليلكي صغير، وكل صباح عندما يوقظني مساعدي، الأدجيتون كولبير، يردد جملة واحدة: هل يريد سيدي تناول القهوة مع البحر أم مع بحيرة جارتنا التي لها رموش متباعدة مثل نخيل انتيب!

تزايدت المشاعر الغامضة في يمنى، ولم تجد ما تقول أمام هذا الرجل الذي بدأ فجأة يرثي حقبة جميلة من حياته، سوى أن تسأل:

☉ هل حقاً تجلس إلى النافذة المقابلة؟ إنني لم ألمحك مرة واحدة!

ـ الجمال لا يستيقظ باكراً أيتها الجارة الساحرة، الجنود يفعلون، هناك من يذكرنا دائماً بأننا في حرب عالمية ولو كانت الجبهة بعيدة عن هنا، لكنني غالباً ما أكاد أنسى عندما أجلس على الشرفة الغربية، يخدّرني مشهد البحر والراحة التي تحملها أمواجه الهادئة من طولون.

⊛ إنك تتحدث عن طولون بمحبة واضحة، فهل أنت من هناك؟

ـ لا يا سيدتي، هناك دفنت عائلتي أول الحرب، كنت ضابطاً في البحرية هناك طوال سنين، وهناك تزوجت ورزقت بأربعة أولاد، وقد سقطت عائلتي في انفجار واحد، والآن كلما أشاهد المتوسط قادماً صوبي أسأله عن أخبار طولون.

قالت يمنى وقد أغرق الكولونيل الفرنسي بحزنه كل شيء:

⊛ إلى أين ستذهب من هنا؟

ـ الجنود يا سيدتي، لا يعرفون إلى أين يذهبون، خصوصاً في الحرب، لكن إذا ما انتهت هذه الحرب فسوف أتقاعد وأعود إلى طولون وأمضي الوقت في زراعة الحدائق، وأعدك بأنني سأزرع اليوغانفيليا في كل مكان.

خرج أناس آخرون من السهرة، وقام المير مجيد: لينضم إلى حلقة رياض بك، وكان إميل إده يمرُّ على من بقي من ضيوفه متظاهراً بأنه لم يسمع ما قيل ولم يعرف ماذا حدث، وأخيراً قام الشيخ بشارة،

متثاقلاً، مجرحاً، شاعراً أن خصمه قد سقط بالضربة القاضية قبل بداية الجولة الحقيقية، ونادى على يمنى أن ترافقه، فوقف الكولونيل الفرنسي مودعاً، وقالت له يمنى وهي تودعه:

❂ إذا صحوت يوماً متأخراً وخطر لك أن تشرب القهوة في ظل اليوغانفيليا، فأهلاً بك.

- كم يسعدني ذلك يا سيدتي، لكنني سأشرب القهوة عند النافذة، إن دخول كولونيل فرنسي إلى حديقتك بعد اليوم، لن يفيدني كثيراً، وبالتأكيد لن يفيدك، لقد كانت هذه أجمل أمسية لي منذ أيام طولون.



العشاء الأخير
في قصر سرسق

11 تشرين الأوّل 1943

تلقى رجال الشرطة اللبنانيون الذين يقومون على حراسة قلعة راشيا أوامر عاجلة بالانتقال، وحلّ مكانهم قناصة فرنسيون بقبعاتهم الحمراء وثياب الميدان، وانتشر حول القلعة خيالة على أحصنتهم السوداء، بمعاطفهم الكحلية ذات الأزرار الفضية اللون، فقد جاء البرد مبكراً هذا الخريف إلى راشيا، وفوق جبل الشيخ المقابل تمركز الثلج وانتشر على قممه يزيد برودة الريح المقبلة من الأعالي والأودية، وشعر أهل البلدة أن ثمة شيئاً يعدّ، أو أن القلعة تنتظر ضيفاً غير عادي، لكنهم مضوا إلى شؤونهم اليومية بين ساحة القرية وحقولها، فقد تعلّموا من تاريخ القلعة أن الفضول ممنوع.

لم يبقَ من اللبنانيين في القوة العسكرية العاملة سوى ضابط الترجمة الملقب «البوا»، وكان «البوا» نحيلاً، سامق العنق، مسطّح الرأس، يهوى التنكيل بزملائه والوشاية بهم وإرضاء الفرنسيين، في الصبح وفي المساء، وقد امتعضوا منه كما امتعض منه رفاقه، ولم يحبوه ولم يظهروا له سوى الازدراء والاحتقار، لكنهم أغرقوه بالمكافآت والرتب. وكانوا يلقون إليه المكافأة كمن يلقي ثلاثين من

الفضة تقديراً لثمن الخيانة، إلا أنه لم يكن يمانع في ذلك، فقد كان رنين الكيس ينسيه جرس العار، وكان مثل «البوا» ينشرح ويرفع رأسه، كلما عزف له سيده أمراً أو طلباً أو أوكل إليه خيانة لشرف الزمالة وفروسية الرفقة.

جميع الضباط الآخرين كانوا من الفرنسيين، لقد عرفت باريس كلها، وليس المسيو هيللو، معنى هذه المواجهة بين الدولة الإمبراطورية وبين هذه الدولة الصغيرة التي ولدت قبل 13 عاماً لكنها لم ترَ النور بعد، ولذلك لم تشأ باريس أن تترك شيئاً للمصادفة أو لاحتمالات أن يضعف العسكر اللبنانيون أمام قادتهم ومشاعر الحرية. ولم تعد الأوامر تأتي من «قصر الصنوبر» الآن، إنها تأتي مباشرة من شارل ديغول، أو من نائبه، جورج كاترو، لم يعد مسموحاً لأي فرنسي آخر بالتصرف في قرار المصير: إذا أخذ لبنان حريته المطلقة خسرت فرنسا الشرق، ربما إلى الأبد، وخسرت معركة النفوذ الأبدية مع البريطانيين، إن اللبنانيين لا يدركون، وهم يصرون على الحرية والاستقلال، أنهم يكتبون بذلك الخاتمة الإستراتيجية لحلم فرنسا بالمشرق.

لذلك قرر ديغول أن يبقي كل شيء في يديه. المسألة لا تحتمل مزاح المسيو هيللو ورعونته وزجاجة إضافية من النبيذ، ماذا يريد اللبنانيون؟ لماذا لا نفاوضهم؟ لماذا ليس المساومة بدلاً من المواجهة؟ فلنجرب كل شيء، ولتترك المسألة للجنرال كاترو وهدوئه وللكياسة التي أظهرها في دمشق وبيروت.

لقد كانت لفرنسا الحرة في هذه المسألة مشاعر فرنسا فيشي: إنها تريد حصتها من نفط الموصل وطريق الهند وقناة السويس! مثلها مثل عدوّتها ألمانيا. لا يمكن أن يترك كل شيء للإنكليز. ليس بعد حربين عالميتين! وبالتالي ليس من الممكن أن ينظر إلى سورية ولبنان على أنهما مجرد بلدين في جغرافيا هذا العالم، وعندما تنتهي الحرب وتبدأ فرنسا بمحاكمة خونتها سوف يقول المدعي العام العسكري للجنرال هنري فرنان دنتز، المندوب السامي أيام فيشي: «يشاء سوء حظك، أن طريق الهند وطريق قناة السويس تمران في سوريا».

كان ذلك هاجس فرنسا الحقيقي: طريق النفط الذي يحل محل طريق الحرير وطريق البهارات والأفاويه، ولبنان لم يكن مهماً لأنه لبنان، بل لأنه مدخل إلى سورية. وأهمية سورية أنها جارة العراق. وأهمية العراق نفط الموصل في هذه الحرب التي تبحث عن بقايا الطاقة وفتات الفولاذ ونثرات المعادن في كل مكان، فلماذا يريد اللبنانيون الاستقلال اليوم؟ لماذا ليس غداً؟ ولماذا يدعمهم سبيرس بهذه الطريقة؟ لماذا لا يكف عن استقبال أعداء فرنسا واحتضانهم؟

حلّ الغروب مبكراً هو الآخر على قلعة راشيا ذلك النهار. وحاول القمر عبثاً أن يطل من خلف الغيوم المتسارعة، إلا أنها كانت تطارد نوره من كل الجهات، ومضى أهل البلدة إلى بيوتهم ودفء مواقدهم فيما كان المظليون في الداخل يوزعون البطانيات فوق الأسرّة ويجمعون الحطب في زوايا الغرف، وبعد قليل سمع صوت سيارات وشاحنات وبنادق تأخذ التحية على عجل.

وصل الشيخ بشارة، بمعطفه الأسود وقبعته التقليدية، أولاً، والتفت إلى الضابط الفرنسي الذي يرافقه وقال في لهجة شبه آمرة:

- أيها الضابط، هناك ثلاثة أشياء أريدها منك الآن: أولاً، أن تنزع المسدس الذي على حزامك، فنحن قادة الاستقلال لا زعماء عصابة، ثانياً، أحذرك من إهانة أيٍّ من رفاقي، بأي كلام أو تصرف، ثالثاً، لقد نسيت حبوب ارتفاع الضغط في منزلي فاطلب أن يحملها إليَّ أحد من بيروت.

كانت رائحة الرطوبة والعتق تنبعث من الجدران فتختلط برائحة الحطب المشتعل الذكية، وبدت القناديل الزيتية المعلقة وكأنها ترسل الضوء على مشهد من القرون الوسطى، فالجدران أحدث الزمن فيها نتوءه والأرض استوطنتها الرطوبة والسقوف تآخت مع العتم فلم يعد يخرقها النور والنوافذ الصغيرة كانت مجرد ثقوب رُسمت لاكتمال صورة ما.

شعر الشيخ بشارة بالإهانة والحزن وهو يجلس على طرف السرير الحديدي الصغير الذي ينام عليه حراس القلعة، لكنه لم يعط وقتاً طويلاً للتفكير في نفسه، فقد دخل عليه رياض بعد قليل ومعه جميع الرفاق، حشروا أنفسهم في الغرفة الصغيرة وبقي البعض الآخر عند بابها، وقالوا له كأنهم يسلّمونه خطاباً مكتوباً من الناس:

- هذا الإذلال سوف يتحول غداً إلى عز لبنان، والأذلاء هم مَن ليسوا معنا هذا المساء، أم جميع خصومك يغبطونك على هذه القلعة الرطبة الليلة.

وكعادته في اختراق اللحظات الكثيرة الجدية والخطورة بالدعابات، سأل الشيخ الجليل رياض بك:

ـ حتى أولئك الذين يعانون من الروماتيزم؟

ضحك الجميع، وتركوا الشيخ يرتاح إلى نفسه فيما مضوا جميعاً إلى غرفة رياض بك المطلة على الجانب الآخر من سوار القلعة تلاحقهم روائح الرطوبة والعفونة وأيضاً رائحة المواقد الدافئة الجميلة وصوت تفقّع الجمر.

كانت تلك آخر ليلة في تاريخ لبنان القديم، لبنان الماضي، وكان الجميع يعرفون ذلك، ثمة ما تغير منذ أن دخل رجال الاستقلال إلى هذه القلعة التي بناها الصليبيون قبل ثمانية قرون، كأنها الشاهد المناوب على الحروب والهدوء، الحرية والاحتلال، الإمبراطوريات القادمة والإمبراطوريات المتراجعة.

جاء «البواء» إلى غرفة رياض بك، ووقف في الباب، مستأذناً، محني الرأس والقامة والكرامة:

ـ إذا سمح لي رياض بك، فإن لدي الأوامر بأن تطفئوا القناديل ويترك الجميع غرفتك إلى غرفة كل منهم.

وضحك رياض بك في صوت عالٍ:

ـ أنا أرفض أن أصغي إلى المُستأجرين أو أن أخاطبهم، اذهب وأرسل سيدك إلى هنا.

ـ إنها أوامري يا رياض بك، أنا أطيع الأوامر .

ـ أنت تطيع خيانتك، اذهب وأرسل سيدك وآمرك، إلى هنا .

عاد «البواء» بعد قليل خلف الكومندان فيرجيه، الذي جاء من دون قبعته، وقد ترك الأزرار العليا من سترته غير معقودة، وألقى فيرجيه التحية العسكرية بالكثير من الإهمال، ثم قال في سخرية مبطنة بشيء من الحزم:

ـ هل استدعاني السجين رياض الصلح؟

نزع رياض الصلح الطربوش عن رأسه بعنف وضرب به الكومندان فيرجيه على وجهه. فحاول هذا أن يرد الطربوش بيده بعد فوات الأوان:

ـ السجين رياض الصلح أيها القليل الأدب، هو هنا كرمز للحرية والاستقلال، أنت وحدك رمز السجن والسجون، وهذه القلعة لا تمثل سوى خوفك من 800 عام وهي تمثل خوفك، لكن زمن القلاع قد مضى الآن، إلى أين تبعدوننا عن الناس؟ أي قلعة يمكن أن تنسي الناس حاجتها إلى الحرية؟

اعتذر الكومندان فيرجيه أمام فورة الرجل الوقور المتلاحق الأنفاس، الذي علا صدره من الغضب حتى كاد يتساوى مع علو رأسه:

ـ لم أقصد أي إهانة يا سيدي، لكنه القانون الداخلي للقلعة. وعلى الضباط وصفوف الضباط أن يذهبوا إلى النوم.

ـ اذهبوا وناموا، فهل كنت تتوقع أن نهرب؟ أنتم في حراستنا وليس العكس.

ـ نحن لا نخشى أن تفرّوا يا سيدي، بل علينا أن نحرسكم من أي محاولة من الخارج.

ـ أزرر سترتك جيداً أيها الكومندان وخذ التحية العسكرية التي تليق بقبعتك واذهب من هنا باحترام، وعندما تغادرون هذا البلد سوف أتأكد من أنك ستلقى معاملة حسنة.

وقف «البوا» خلف الكومندان فيرجيه مثل كلب صغير في حراسة سيده، أو بالأحرى مثل بوا لم تقرر بعد إن كانت سترقص لحاويها أم سوف تحاول أن تلتهمه، وقال رياض بك وكأنه يختم التأنيب بشيء من السماح:

ـ والآن اذهب وصلِّ من أجل عائلتك أيها الكومندان. فلولا عائلاتنا لما همّنا أن نمضي كل العمر في هذا السجن. لقد خيِّل إلينا أن فرنسا الحرة أكثر من يعرف طعم الحرية



11 تشرين الأوّل 1943، (بيروت)

أوت بيروت باكراً وأغلقت الأبواب والنوافذ الخشبية في شيء من الوجل وشيء من الحزن، ولم يبقَ في الشوارع سوى الشاحنات المليئة بالجنود السنغاليين ذوي القبعات الكاكية الواسعة التي طويت مقدمتها

إلى فوق، بحزامها الجلدي البني الرفيع، وغطيت الشاحنات بقماشها نصف غطاء، بحيث بدت منها بكل وضوح الوجوه السنغالية المتوعدة وحراب بنادقها اللماعة، وبين مرور شاحنة وأخرى كانت تمرُّ مصفحة فرنسية مسرعة يقف في وسطها ضابط بخوذته وثياب القتال، وقبل الغروب بقليل لم تنس الطائرات المطلية بالعلم المثلث الألوان القيام بطلعاتها فوق المدينة، محلقة بين السطوح على انخفاض، ثم فوق سطح البحر، كأنما فرنسا تريد أن تعرض كل قوتها في يوم واحد، في مدينة واحدة.

لكن بيروت بدت جميلة كعادتها في أي حال، ولم يأبه الورق المتساقط للحرارة السياسية فمضى يعلن توغل الخريف في حدائق بيروت وأشجارها والعرائش المتدلية من سطوحها وقد هرَّت أوراقها ولم يبق من عناقيدها سوى ما دُلّل في أكياس النايلون.

قرر المفوض السامي أن يستدعي من تبقّى من الأصدقاء، أو من تجرّأ منهم، ولكن إلى أين؟ من يجرؤ على الذهاب إلى العشاء في قصر الصنوبر والرجال ينامون في راشيا؟ وكان يرسل البرقية تلو الأخرى إلى جورج كاترو، الرجل الذي وقف ذات يوم على الشرفة في دمشق وقال متنهداً: «آه، إنني أحلم بأن أصير ملكاً على دمشق».

لكن كاترو عاد فعرف صعوبة الحلم عندما نزل من الشرفة إلى الشارع، حتى فيصل الأول لن يصبح ملكاً على دمشق في الزمن الاستعماري، وبدلاً من أن يصبح ملكاً على سورية راح كاترو يتعرف

إلى الناس وإلى نفوسها وإلى أحلامها هي ولذلك شعر ديغول، فيما ستار الحرية الحديدية يهبط على بيروت مع حلول الليل، أنه في حاجة إلى رجل هادئ مثل كاترو، نائبه و صديقه وعارف أمور المشرق.

كانت برقية كاترو الجوابية إلى المفوض السامي واضحة ومقتضبة:

إياك أن تدعو أحداً إلى قصر الصنوبر، تدبَّر مكاناً آخر تجتمع فيه إلى من تعتقد بأن لهم تأثيراً في الاستقلاليين، جرِّب إن كانت صديقتنا الدونا ماريا تقبل بأن تدعو بعض الشخصيات إلى عشاء، لا تحضر أنت إلا في نهايته.

شعرت الدونا ماريا أن صديقها المفوض السامي يطلب منها إعداد «العشاء الأخير». كان يتوسلها آناً ويهددها حيناً ويلاطفها بعد حين، وكان يذكّرها طوال الوقت، كم هي «فرنسا الحرة» في حاجة إلى صداقتها: «ولبنان أيضاً يا عزيزتي الدونا، ولبنان. ماذا عن لبنان؟ هل يمكن أن نترككم هكذا ونحن لا نعرف متى تنتهي الحرب؟ ومن يقول إن هذه مشاعر جميع اللبنانيين؟ من يقول: ليس كل شيء من تدبير إدوارد سبيرس، هذا اللعين الذي أرسل كي يفكك فرنسا في الشرق».

حاولت الدونا ماريا أن تتملص وأن تعثر على أعذار مقنعة، لكن المفوض السامي كان حازماً مثل الأوامر التي تلقاها، شيء واحد لم يكن يعرفه المفوض السامي ولا سيدة قصر سرسق: وهو أن هذه الطائرة التي تنقل جورج كاترو سوف تهبط بعد قليل.

لم تستطع الدونا ماريا أن تجمع في الصالون الغربي غير بضع شخصيات غير مهمة، فلم يجرؤ أحد على الخروج من منزله ذلك المساء، إلا أن سيدة القصر استطاعت أن تقنع ضيفاً غير متوقع بالحضور، كان صعباً عليها أن تتصل بقلعة راشيا بأي ثمن أوائل هذا المساء، وأي موفد على هناك سوف تستغرق رحلته أربع ساعات على الأقل، ولم تكن الدونا ماريا تحب كثيراً أن تهدر الوقت والأعصاب في التفكير في الأمور المعقدة وطريقة حلها، بل كانت تفضل على ذلك الاختصار والمباشرة، إلا أنه كان عليها ذلك المساء أن تجد حلاً.

دع الحلول الصعبة للنساء، خصوصاً سيدات القصور، لم تكن يمنى من الوجوه المألوفة في قصر سرسق بل كانت الدونا ماريا تشك في أنها تكنّ لهذا القصر وضيوفه أي مشاعر، غير أنها كانت تعرف أيضاً أنها لن تخذلها في ساعة مثل هذه الساعة، وما إن رفعت السماعة حتى رد عامل السنترال في لحظة، لقد أمرَ بأن يكون في خدمة الدونا ماريا وأن ينسى كل شيء آخر.

فوجئت يمنى بالصوت الرفيع، الحاد، الأريستقراطي على الطرف الآخر:

ـ يمنى، هنا الدونا ماريا، لعلك لا تتوقعين مكالمة مني، ولا أنا، لكنها ليست مكالمة شخصية، أنتِ تعرفين ماذا يحدث، الفرنسيون أصدقائي لكن اللبنانيين شعبي وأهلي، ونحن النساء كان دورنا دائماً أن نسمع أو أن نحمل الرجال على الكلام في مثل هذه اللحظات تصبح علينا مسؤوليات أخرى.

۞ إني أشكر مكالمتكِ عزيزتي الدونا، لكنني لم أفهم قصدك حتى لأن.

ـ راشيا يمنى، راشيا، لا نريد الليل في راشيا أن يطول، هل تتخيلين أن كل تلك الوجوه اللامعة في السجن؟

۞ لماذا لا؟ إنهم أحرار أكثر من أي طليق آخر.

ـ اسمعي يا يمنى، ليس الوقت مناسباً لأن يؤنب بعضنا بعضا.

جميع أولئك الذين يقضون ليلهم في القلعة أصدقاؤك وأصدقائي.

والبلد مشدود والأحزاب منقسمة، يجب أن نوفر على أنفسنا الدم والتعب والخراب.

۞ هذه مهمة الفرنسيين ومسؤوليتهم.

ـ اسمعيني جيداً، يا يمنى، إننا نعيش لحظات تاريخية دقيقة فدقيقة، ولا نعرف على ماذا يطلع الفجر غداً، وأنا أعد في منزلي لقاء خطيراً هذا المساء، لكن لا أهمية لهذا اللقاء إذا لم يحضره ممثل عن رجال راشيا.

۞ وما شأني أنا في الأمر؟

ـ لا أحد سواك يستطيع أن يقنع واحداً من رفاق رياض بالحضور، الاتصال برياض مستحيل الآن. وأفضل من يمثله هو تقي الدين، لكن هل سيقبل تقي الدين بلقاء الفرنسيين، حتى في اجتماع عام، في مثل هذا الوقت؟ إن الجميع في بيت رياض الآن، وقد

حسرت زوجته فايزة عن وجهها وانضمت إلى الناس مقسمة بأنها لن تحتجب إلا بعد خروجه، وقد بدأت الناس تتسلح، ورجال الشرطة على الحواجز يتركون السلاح يمرُّ وقد ينضمون غداً إلى الثورة.

⊛ أين أنا في كل ذلك؟

- دعيني أقول لك أين أنت، إذا جاء تقي الدين هذا المساء من دون تكليف من رفاقه فسوف يعتبر خائناً وطاعناً في الظهر، يجب أن يلتقي مع بعض رفاقه عندك، ومن هناك يتقرر أن يحضر مفاوضاً، لا تضيّعي الوقت يمنى، أنا أعرف أنهم جميعاً يصغون إليك، دعينا نجرب هذه المحاولة الأخيرة.

التاسعة، كان ليل بيروت قد بدا حالكاً وكأنه منتصف الليل، وكما بكّر البرد والعتم بكّر المطر كأنه من استعارات كانون المقبل، وتحولت مداخل قصر سرسق إلى برك وبحيرات، وبرغم الأضواء القليلة حوله والأضواء الكثيرة المنبعثة منه، بدا من بعيد وكأنه كوخ مضاء في غابة بعيدة، وتوافد الضيوف القلائل كأنهم مدعوون إلى اجتماع ثوري سرّي وليس إلى العشاء في أشهر قصور بيروت، ولم تستطع الدونا ماريا أن تخفي معالم القلق التي ارتسمت متضاعفة على كل ملامحها، وهي تستقبل الزوار، وبدا القصر وكأنه قلعة أخرى محاطة بالأسرار لولا هذه الثريات المعلقة والنوادل الإفريقيون، وقوارير الكريستال التي ملئت بالنبيذ الأحمر.

جاء تقي الدين «مقنّعاً» بقبعة إفرنجية بدلاً من الطربوش الأحمر، وجاء معه «عفيف» و«أحمد»، وشكرته الدونا ماريا أنه جاء في مثل هذا الظرف ومثل هذا الطقس، وقال في لهجة جافة:

ـ ما يهطل مطراً هنا ينزل ثلجاً على علو ألف متر!

كان الضيوف قلائل جداً في صالة الاستقبال الغربية في قصر سرسق، وقد فوجئوا جميعاً بوصول تقي الدين، ولم تكن هناك ابتسامات، فيما عدا ابتسامة الدونا ماريا المرسومة بصعوبة. وقبل أن يتخذ تقي الدين مقعده، سأل الدونا ماريا:

ـ مَن جئنا نقابل هذا المساء؟ لا أعتقد أننا هنا من أجل عشاء لذيذ في هذه الليلة الحزينة.

وقال الدونا ماريا:

ـ لا أعتقد أن هناك لبنانياً غير حزين هذا اليوم. تقي بك، نحن هنا جميعاً من أجل لبنان. ربما كنا حتى هذا الصباح منقسمين، نتساءل ما هو الأفضل للبنان، أن تبقى فرنسا قليلاً أم أن ترحل فوراً، لكن بعد راشيا أصبحنا جميعاً بشارة الخوري ورياض الصلح، كل واحد منا له طريقته في العمل، لكننا نعمل جميعاً لقضية واحدة وبلد واحد، فرنسا تتركنا غداً وتنسحب، ونبقى وحدنا لهذه الأرض!

فوجئ تقي الدين بالكلام وصاحبة الكلام، وفوجئ بلهجتها، وبقي الضيوف الآخرون صامتين، كأنهم جاؤوا فقط لملء بعض المقاعد

المخملية الوثيرة، وظلت تبرق في الخارج وترعد بلا توقف، وعند العاشرة سمع صوت سيارات وجلبة وتحرك عسكري في الخارج برغم ارتفاع أصوت الرعد، وظنت الدونا ماريا أن المفوض السامي قد وصل، فقامت إلى الباب تسحب خلفها فستانها الداكن الطويل، لكنها صعقت قبل أن تصل إلى باب البهو، عندما رأت الجنرال جورج كاترو، بكامل أوسمته وبقبعته الجنرالية يتقدم المفوض السامي والمرافقين.

ـ مون جنرال، إنها حقاً مفاجأة مشرّفة!

ـ إنه دائماً سرور لي أن آتي إلى بيروت، وخصوصاً إلى هذا القصر دونا ماريا، ويؤسفني أنني آت اليوم في ظروف محزنة لكم ولنا، لكي لا أقول ظروفاً كارثية للفريقين.

صافح الجنرال المربوع القامة، الجميع بوقار واحترام، وبدا عليه بوضوح تعب الرحلة الجوية من القاهرة التي استمرت أربع ساعات في هذا الطقس الرديء، وكادت طائرته تهبط مرتين اضطراراً في فلسطين، لكن الجنرال كان يأمر طياريه العسكريين وكأنه يأمر عربة خيل: امضوا، لابد من بيروت هذا المساء.

بدأ كاترو بالحديث عن مصر، كأن لا شيء يجري في لبنان، وقال إن القاهرة هي الآن كل شيء بالنسبة للقوى الحليفة، إنها بوابة لإفريقيا بالنسبة إلى فرنسا وبالنسبة إلى بريطانيا على السواء، وهي بوابة السويس، أي بوابة المتوسط والبحر الأحمر، وقال: «ألا يشاركني السيد تقي الدين هذا الرأي؟».

وابتسم تقي الدين، وأدرك أن الجنرال يريد مدخلاً رطباً إلى الحديث.

ـ فلندخل في صلب المسألة يا عزيزي الجنرال، إنك لم تأتِ إلى هنا في هذا الليل من أجل الحديث عن دور القاهرة!

ـ لقد جئت يا عزيزي تقي الدين ومعي رسالة إلى رفاقك من قائد فرنسا الحرة، الجنرال شارل ديغول، فهل أنت مفوض للتحدث باسمهم أو للإصغاء باسمهم؟

ـ يا عزيزي الجنرال، لا أحد يتحدث باسم أحد، كل لبناني في هذه المسألة يتحدث باسم بلده، نحن لسنا حزباً، نحن شعب، ولسنا طائفة، بل نحن لبنان.

ـ لست أشك أبداً في ذلك، ولكن يجب أن تدرك أننا دولة كبرى وفي حالة حرب.

ـ ويجب أن تدرك أننا دولة صغرى وساحة حرب، أمس أنتم والإنكليز، ثم أنتم فيما بينكم، فهل كثير علينا أن نطلب الحرية والاستقلال؟

ـ لا، ليس كثيراً عليكم أن تطلبوا الاستقلال، لكن ليس بهذه الطريقة، وليس الآن، إنكم تعاملوننا كأعداء يجب الخلاص منهم على الفور، وليس كسلطة انتداب، ولا تنس أن فريقاً من اللبنانيين لا يريد خروجنا، ليس الآن.

- يجب الا تفرحوا كثيراً بهذا الانشقاق يا عزيزي الجنرال، فسوف يعرف جميع اللبنانيين غداً وليس فريقاً واحداً منهم فقط، انكم كنتم السبب في ذلك.

قال كاترو بلهجة غاضبة للمرة الأولى:

- إنهم أصدقاؤنا الإنكليز يفرقون فيما بينكم، أنت تعرف قاعدتهم السياسية القديمة، فرّق تسد!

- إنهم يفعلون العكس تماماً الآن، إنهم مرتاحون إلى توحّدنا في وجهكم يا عزيزي الجنرال، ولمَ لا، طالما أن الأمر يؤدي في النهاية إلى غاية واحدة هي الاستقلال، ماذا يضيرنا إن هم أيّدوا الاستقلال؟

- يريدونكم أن تستقلوا من جهة وأن تدخلوا في مدارهم من جهة أخرى.

- حسناً، ولكن كمستقلين، وليس كشعب في حاجة إلى وصاية.

- أية وصاية؟ هذا وضع دولي كنا نحن جزءاً منه، لقد خرجنا من حرب كبرى ودخلنا في حرب أُخرى، لا الدول الكبرى تستطيع البقاء خارج هذه الحرب ولا الدول الصغرى، أليس قدرنا أن نبقى معاً، في شكل ما؟

- بلى، ولكن كأحرار صغار وأحرار كبار، حريتنا أولاً، لا يمكن أن ترفعوا شعار الحرية في باريس وشعار الاستعمار في بيروت، ولا

شعار المساواة، نحن لا نريد المساواة في القوة ولا في الثروة. نريد المساواة حيث هي ممكنة لجميع الأمم والشعوب: في الحرية.

ـ لا نريد أن ننكر عليكم حريتكم. ولسنا هنا من أجل أن نبقى دولة منتدبة إلى الأبد، ولكن يا عزيزي تقي الدين الحرب لم تنتهِ بعد، وحكومتي في الجزائر تنظر إلى لبنان على أنه واسطة العقد.

ـ نعرف ذلك يا عزيزي الجنرال، ولكن ماذا يمنع أن نستقل ثم نتحالف؟

ـ أنت تعرف أن في ذلك هزيمة لنا.

ـ لقد بدأت المظاهرات في دمشق أيها الجنرال كاترو، وغداً قد تشتعل بيروت، فلماذا لا نوفر على أنفسنا المواجهة؟ إننا نجد أنفسنا في وضع محزن وقد دخل قادتنا إلى السجن لكن فرنسا في وضع مضحك، سياسيون ومحامون وممثلو العائلات اللبنانية في السجون.

ـ اسمع يا عزيزي تقي الدين، سوف نبدأ أولاً بإبعاد المسيو جان هيللو الذي أساء إليكم وإلى فرنسا معاً.

كانت تلك صاعقة أشد وقعاً من الصواعق التي لم تتوقف في الخارج، وكاد المفوض السامي يهوي في مقعده وهو يسمع نبأ عزله يبلغ إلى معارضيه اللبنانيين أولاً. وشعرت الدونا ماريا بحرج شديد: أن يصدر الحكم بالإعدام على الرجل في هذا الصالون الذي طالما

تمختر فيه، ولم يعلّق المسيو هيللو، ولم يمنحه كاترو حتى التفاتة الرثاء، بل أكمل كلامه إلى تقي الدين كأنه ينقل رسالة عاجلة لا يريد أن ينسى حرفاً منها:

ـ اسمعني يا صديقي العزيز: أولاً، يعزل هيللو وينقل إلى باريس فوراً، ثانياً، يفرج عن رجال راشيا فوراً، ثالثاً، تضاعف المساعدات إلى لبنان في كل وزاراته، رابعاً، نبدأ آنذاك في التفاوض بهدوء حول مراحل الاستقلال، لا استقلال قبل نهاية الحرب، سوف نقدم وعداً بالاستقلال، كما حدث في العراق، كما حدث في مصر، انقل هذه الرسالة غداً إلى رفاقك.

ـ عزيزي الجنرال، كل ما أنقله غداً إلى راشيا هو المنديل الأبيض الذي يضعه رياض بك في جيب سترته، اسمع مني، لقد انتهى كل تفاوض في اللحظة التي نُقل فيها هؤلاء السادة إلى القلعة الصليبية، لقد كان في مشاريع رياض للحكومة الاستقلالية الأولى أن تحوّل القلعة إلى مزار بوصفها شاهدا على خروج الصليبيين وانتهاء زمن القلاع، الآن سوف تحول إلى مزار الاستقلال، اسمح لي أن أقول لك إن حظكم عاثر في هذه البلاد.

ـ آه يا عزيزي تقي الدين، كم أنني أعرف ذلك، كم أنني أعرف ذلك.

انتصف الليل في الخارج، أدرك الجنرال كاترو في نفسه أن دوران الليل والنهار في المشرق بدأ منذ اللحظة يذهب في الاتجاه المعاكس، لكن توصيات شارل ديغول كانت واضحة أيضاً: جرّب اللين حتى

النهاية، حتى آخر تفاحة في سلة الصبر. ولكن إذا أخفقت فالقوة، بل حتى الحرب قرر كاترو أن يفجّر قنبلته التالية:

ـ اسمحوا لي في أي حال أن أقدم لكم المفوض السامي الجديد، المسيو ايف شاتينيو، إنه الرجل الذي سوف يبني العلاقة الجديدة معكم.

لكن تقي الدين ظل صامتاً، وكذلك رفيقاه أو حارساه اللذان لم يتفوّها بكلمة واحدة تلك السهرة، وخرج جورج كاترو مرة أخرى عن وقاره، وقال لتقي الدين:

ـ هل تسمح بأن أحدثك قليلاً على انفراد؟

ونظر تقي الدين إلى حارسيه ثم قام إلى ركن في أقصى الصالون ومعه الجنرال كاترو، الذي وضع يده على كتفه قائلاً:

ـ أرجو أن تنقل تحياتي إلى الشيخ بشارة ورياض بك مهما حدث، وأرجو أن تحمل هذا السر في نفسك إلى الأبد: انا قلبياً مع الاستقلال، لكن الجنرال ديغول كلما تطلع في الخريطة العسكرية أمامه رأى بريطانيا تنشر 700 ألف عسكري حول المتوسط، إن الفكرة تؤرقه، لكنه أيضاً يدرك أن الأوان قد فات، سوف تربحون أنتم معركة العض على الأصابع، وسوف يحزن الجنرال حزنه الكبير، ليس فقط لأننا سنفقد لبنان بل لأنها خسارته الوحيدة في الحرب مع إدوارد سبيرس.

❖

على شرفة المس دوروثي

25 أيار 1944

الحادية عشرة والربع. الشمس الحادة تنسحب من على الشرفة في اتجاه طريقها اليومي صوب الغرب. بيروت في عزّ الحركة. جرس الترام وأبواق السيارات وأصوات الباعة وكل اليوميات الأخرى. وفي الميناء سفينة تحاول الرسو بأبّهة وبطء، ويمنى تشرب قهوتها وتقرأ في الرواية التي بدأتها أمس، متعة أخرى من فلوبير. وفي الداخل العمال يعدّون كل شيء في انتظار حلول الظهيرة. ورائحة الخضار تنتشر في هدوء من «محترف» الإسطه يوسف.

إنه الفصل اليومي، ولم تعد يمنى تنتبه إلى تلك التفاصيل التي تتكرر كل يوم. ولا عادت تنتظر جديداً إلا من البحر. هذا العشير الأنيس اللطيف، الذي يترامى أمامها بلا انقطاع. فجأة قطع كل هذا الهدوء صخب تتقدمه رائحة عطر نهاري قوي، وعرفت من الجلبة ومن الجرأة العطر في مثل هذه الساعة من النهار أنها «مود». وكان يسبق «مود» وقع حذائها الرفيع، مسرعاً، متسرعاً، متخبطاً، متشابكاً، حتى تكاد تقع. ولم تترك مكاناً للتحية كالمعتاد. لا وقت يضاع، بادرت يمنى مؤنّبة:

ـ لماذا تضيّعين الوقت الجميل على هذه الشرفة؟ لمن تتركين أذرعة هذه المدينة مفتوحة هكذا من دون أن تلقى مَن تعانق؟

كان لدى «مود» فكرة رائعة واقتراح لا يُردّ: رحلة إلى القدس صباح غد، وفي سيارتها، ولا هموم، هي التي يعرف سائقها الطريق مثل راحة يده، وهي التي تعرف جميع القادة والضباط المسؤولين من هنا إلى المدينة، فرنسيون وإنكليز، وهي التي أعدت الجناحين في فندق «الكنغ ديفيد».

ـ لم يبق سوى أن تعدّي حقائبك، وإياك والاعتذار.

لكن يمنى حاولت أن تعتذر: «لا يمكنني أن أترك العائلة الآن، الأولاد يعدّون للامتحانات، وماذا ستقول الناس يا «خاويتا»، إذا سافرت امرأتان منفردتين كل هذه الطريق إلى مدينة غريبة؟».

وقهقهت «مود» عالياً:

ـ أأنا المجنونة يا مجنونة؟ تجلسين هنا طوال النهار تتأملين البحر وسفن الشحن القادمة!! ومن قال إن القدس مدينة غريبة؟ إنها القدس، مدينة كل البشر، وسوف نقول إننا ذهبنا لزيارة كنيسة القيامة.

۞ كيف نفعل ذلك بمفردنا يا «مود» ومن دون رجل يرافقنا؟

لكن «مود» لا تُقهر:

ـ إذا تعطلت السيارة فسوف نكون تحت رحمة واحد من اثنين: إما القبائل ولها قواعد صارمة في معاملة الغرباء، خصوصاً النساء، وإما الضباط، وأوامرهم صارمة أيضاً: احترموا ذوات الحسن.

☉ وماذا سيقول أهل القدس عنا؟ سيدتان في فندق من دون عائلتيهما؟

ـ سوف يقولون: اللبنانيات جريئات وجميلات، أعدّي أجمل ثيابك وامشي معي.

وكأنها أرادت أن تضع حداً نهائياً للاعتراض، قررت أن تغير الحديث، فتطلعت إلى منزل الكولونيل الفرنسي المقابل، حيث كان الحارس في هذا الوقت يدخن سيجارته بارتياح، وقالت:

ـ صاحبنا الكولونيل «تبلّد» تماماً كما عرفت، ويبدو أنه لا يحب الروسيات أو البولونيات مثل رؤسائه بل يفضل الأطباق المحلية.

☉ ملعونة أنت يا «مود».

ـ لا، بل أنت غبية، بيروت كلها تعرف، والأشرفية كلها تعرف أين تتوقف سيارته كل مساء، «ماتينيه» يا عزيزي، الفرنسيون لا يغيرون طقوسهم وعاداتهم C`est toujours le cinq à sept.

لكن صاحبنا لا يعرف أن هذه الأشرفية وليست «السان لازار»، كل الناس هنا تعرف بعضها بعضا، الإنكليز يعرفون أين ذهب الفرنسيون، والفرنسيون يعرفون أين يذهب الإنكليز، واللبنانيون يعرفون أين يذهب الجميع، إننا بلد فائق الحظ يا يمنى، أقوى استعمارين في مدينة واحدة، إمبراطوريتان فوق هذه البقعة.

☉ إننا في حرب يا «خاويتا»، نحن في حرب عالمية.

ـ ومالنا وللحرب العالمية، هل نحن أميركا أم بريطانيا؟ الحرب لأهل الحرب. «قومي ضبّي ثيابك» وأعدّي حقيبتك.

الثامنة من صباح اليوم التالي كانت «الدوزوتو» الكحلية ذات الدواليب البيضاء تتوقف في حديقة البوغانفيليا. وترجّلت «مود» بقبعتها القش الواسعة مثل مظلة وكأنها جرس يُنقل من مكان إلى مكان. فقد سمعها الجميع تنادي: «يمنى أين أصبحت، يمنى لا تنسي أن تحضري الشال الأبيض، يمنى لا تنسي العقد الأزرق».

وهرولت يمنى على الدرج خوفاً من أن تذكّرها «مود» ببقية الأشياء، وهرول خلفها الإسطه يوسف ووصيفتها وتراكض الأولاد خلفها يسترقون آخر قبلة إلى القدس وقبل أن تخطفها «مود» إلى المدينة لم تعرفها إلا وهي يافعة عندما قامت بزيارة المقدسات. لقد شعرت يومها بقشعريرة الإيمان تهزّ جوارحها الفتيّة هزاً. لم تعرف تماماً لماذا. لكنها بكت كالأطفال عندما قيل لها هذه آثار أقدام المسيح، وارتعشت عندما قيل لها: من هنا أسري بخاتم الأنبياء مجنحاً مثل الملاك الذي نقل الرسالة إليه. كم يشعر المرء في القدس أن السماء قريبة والأرض بالية. كيفما تلفّت الإنسان يرى السماء جزءاً من الأرض، أو طبقة منها. وتبدو الشمس من خلف الأقصى أو من وراء الجلجلة. وكأنها أشرقت من القبة أو غابت في جبل الزيتون.

لكن ماذا هي ذاهبة تفعل في القدس اليوم؟ ماذا يأخذها الآن إلى مدينة عرفت فيها طعم السماء؟ أليس من الأفضل لها أن تشعر بالخجل

وهي ترافق هذه «الخاويتا» إلى «الكنغ ديفيد» بدلاً من أن تكون ذاهبة إلى جبل الكرمل؟ شعرت كأنها تريد أن تعود. لكن «الدوزوتو» الضخمة كانت قد أصبحت في حيفا واغبرّت أطرها البيضاء وأصبح اللون الكحلي رمادياً وكذلك لون القبعتين اللتين حياهما الضابط الإنكليزي عند الحاجز المقام على مدخل المدينة. انحنى الضابط بتهذيب رسمي واضح، وتطلع في سيدة اليسار وقال لها:

ـ هل يمكن أن أعرف وجهة سيدتي في فلسطين؟

وضحكت «مود» ضحكة عالية وأنزلت زجاج النافذة حتى لم يبق منه ما يلامس ساعدها. ومدّت يدها تصافح الضابط الأحمر الشعر والوجه ولا لون آخر فيه سوى العينين الزرقاوين. وقالت في تعال واضح:

ـ هل أنت الأعلى رتبة هنا أيها الضابط؟

ـ أمر سيدتي.

ـ هل من الضروري أن تطرح مثل هذا السؤال على سيدتين في مثل هذا الجمال أيها الملازم الأول؟

ـ هذا هو واجبي هنا يا سيدتي، أن أطرح السؤال حول وجهة القادمين إلى فلسطين، حتى من هم في مثل هذا الجمال.

ـ ألم يبلغك رؤساؤك أنني قادمة اليوم؟

ـ يبلغني رؤسائي عادة يا سيدتي أن أقوم بواجبي، وواجبي أن أعرف من أنت وإلى أين أنت ذاهبة.

- معي توصية ممن هم أرفع منك بكثير، إنك تضيع وقتي.

- إنني يا سيدتي اقوم هنا بواجبي، وأوامر رؤسائي أن أستقبل ثلاث سيدات في سيارة «رولز رويس» سوداء، وها أنتما سيدتان في سيارة أميركية كحلية، وكان من المفترض أن تصلي إلى حيفا قبل ساعة من الآن، لكن بدلاً من ذلك قرّرت أن تشربي القهوة في صور عند آل الخليل، يجب أن نقرّ يا سيدتي بأنك فوضوية بعض الشيء، آسف لتأخيرك.

أمرت «مود» السائق بالإقلاع من دون أن تتطلع في وجه الضابط الشديد الاحمرار، لقد شعرت أنه أهانها أكثر مما تطيق، لكن هي أيضاً من طلب هذه الإهانة، كان في الإمكان أن تلفظ اسمها وتمضي، لكنها أرادت أن تثبت ليمنى مدى أهميتها فكان أن اثثبت أن الإنكليز يراقبونها مثل أي خصم، إنهم يشكّون حتى في أصدقائهم! فجاة تعكر المزاج الذي لا يتعكّر، وشعرت يمنى بدورها بالحرج، هذه أول مرة ترى «مود» مكتئبة ومهزومة وقد لجمت جنونها الأبدي.

قطعنا بقية الطريق إلى القدس في صمت، وعند مدخل «الكنغ ديفيد» استعادت «مود» شيئاً من مرحها، فما إن اندفع البوابون والحمّالون يفتحون أبواب سيارتها حتى توقفت في الخلف سيارة «الهامبر» السوداء الضخمة التي تعرفها المدينة جيداً، وإذ فتح باب «الهامبر» بانت بطانته المخملية ذات اللون «البيج» ونزل منها ضابط قصير القامة ضئيل الحجم يضع جزمة طويلة تكاد تبدو مضحكة ويرخي شاربين صغيرين، خفيفين لدرجة مضحكة أيضاً، وإذ مدّ يده

لمصافحة «مود» وهو يضع عصاه تحت إبطه بطريقة عسكرية محفوظة بدت يده صغيرة أيضاً. وعندما صافح يمنى شعرت أن يدها الأنثوية هي التي تحتضن يده الصغيرة.

لكن هذا كل ما كان مضحكاً في الرجل، فالأوسمة ملأت صدره.

وبدلاً من أن يلقي التحية بالإنكليزية ألقاها بلهجة أهل البادية، ثم أخذ يحدّث «مود» بلهجة لبنانية ممازحاً، محاولاً أن يقدم نفسه إلى صديقتها التي لا تعرفه، على حقيقتها. إنه ليس مجرد ضابط من ضباط الإمبراطورية، بل هو السير جون باغوت غلوب، أو غلوب باشا للأصدقاء، أو «الباشا» للمقربين.

سأل «الباشا» صديقته القديمة من تكون الصديقة المرافقة، وانفجرت «مود» ضاحكة كأنها أهينت مرة أخرى هذا النهار: «هل هذا معقول يا باشا؟ تعرف كل هذا العالم، ولا تعرف يمنى؟».

واعتذر الباشا ضاحكاً تحت شاربيه الصغيرين، وعدّل عصاه الجلدية تحت إبطه مرة أخرى، بحيث لا يترك شكاً لدى السيدة ذات القبعة البنية المزينة بعقدة زرقاء، أن لجنرالات صاحب الجلالة ذوقاً انتقائياً رفيعاً. ثم سأل: «هل هذه الزيارة الأولى التي تقوم بها السيدة إلى القدس؟» أجابت عنها «مود»، ثم أجابت عن نفسها، ثم أجابت عن الأسئلة التي لم يطرحها الباشا. وعندما وجد أخيراً ثغرة للكلام، قال إن «قاعة السفراء» في الفندق محجوزة لضيوفه وضيوف زوجته «أم فارس»، هذا المساء، فهل تتفضل «مندوبتا الحسن اللبناني بالحضور».

تعثرت يمنى بفستانها الأسود الطويل وهي تمشي خلف «مود» نحو «قاعة السفراء»، فليس مألوفاً حتى في «الكنغ ديفيد» أن تحضر سيدتان بمفردهما إلى العشاء، حتى «أسمهان» التي كانت رموشها ترتفع إلى السقف المزين، لم تكن تتنقل في البهو إلا ومعها من يرافقها، شعرت يمنى بحرج شديد، لكن «أمّ فارس» سارعت إلى إنقاذ الجميع، عندما تركت بقية الجميع وهرعت تتأمل الضيفتين اللتين لا يتأبط ذراعهما رجل، وبدا واضحاً أن معرفتها «بمود» قديمة جداً، ولذلك انصرفت إلى الاهتمام بالضيفة الجديدة: «لقد أخبرني أبو فارس الكثير عنك وعن عائلتك، ونحن نقيم هذا العشاء لأصدقائنا كل عام، ويسعدنا أنك مفاجأة السهرة»، ثم أخذت «أمّ فارس» تقدم المدعوة إلى ضيوفها الآخرين.

كان هناك القليل من العرب، بعض وجوه المدينة وبعض الوجوه القادمة من عمان، وكان الباشا يخاطب الجميع، كل بلهجته، ومن دون أن يبقى للكنته الإنكليزية أي أثر، ولاشك أن هذا الرجل غير العسكري المظهر، كان يريد أن يثبت شيئاً ما للعرب والبريطانيين على السواء، لعله، ربما، لعله، كان يريد أن يقول إنه أكثر أهمية من لورانس، أو أكثر دهاء، مثله لم يعرف أحد إن كان قد أحب البدو حقاً إلى هذا الحد أم أنه كان مجرد رجل في خدمة الإمبراطورية، مثله كان يعرف من أي قبيلة هم ومن أي فخذ لمجرد أن يتلفظوا بكلمة واحدة، ومثله عرف شقاءهم في البادية وعاش حياتهم القاسية: شيء من التمر وشيء من الحليب ورمال حارة يتذوق المرء لفحها القريب ولا يرى نهاية لها.

أجلس الباشا يمنى إلى يساره، وإلى يمينه جلست سيدة لم تعرف شيئاً عنها سوى اسمها الأول: دوروثي! وجلست «مود» بعيدة إلى الطاولة تصخب وتضج وتمازح الجميع.

كاد الباشا يغرق في كرسيه الجلدية، وبعدما تأكد من أن كل شيء على الطاولة كما يجب، بدأ فوراً الحديث عن «الفرقة العربية» التي يقودها منذ 1939، وقال يحادث يمنى: «أنت تعتقدين أنني لا أعرف لبنان، لكن دعيني أخبرك أنني قضيت أياماً طويلة هناك، ودعيني أخبرك أنني وأصدقائي البدو لعبنا دوراً كبيراً في محاربة قوات فيشي، ولي بينكم أصدقاء كثيرون».

وتطلعت الآنسة دوروثي من خلف ظهره لتسأل يمنى: «هل ستمضين وقتاً طويلاً في القدس؟»، وأجابت يمنى: «لا أعتقد، إنها في الحقيقة زيارة مفاجئة وغير معدة وعائلتي في انتظاري، لا أريد أن أترك الأولاد طويلاً في موسم الامتحانات».

تظاهر الباشا بأنه لم يسمع الحوار، ثم التفت إلى يمنى وسأل فجأة: «ماذا يقولون عنا في لبنان؟ إنكم شعب عجيب، كان الفرنسيون يستعمرونكم وما زلتم تحبونهم، نساعدكم ولا تحبوننا، تريدوننا أن نساعدكم على التحرّر من باريس لكنكم تريدون الإبقاء على علاقتكم الخاصة بها. ولكن لا بأس، إن ذلك أشبه بالعلاقة التي تقوم بين السجّان والسجين، لكن ذلك لن يدوم طويلاً، أليس كذلك يا دوروثي؟ أشهرٌ ويغادر آخر جندي فرنسي المشرق»..

طرح السؤال على جارته وكأنه يستأذنها، أو كأنه قال شيئاً كان يجب ألا يقوله، تناولت المس دوروثي شيئاً من الحساء أمامها، ثم اعترضت على ارتفاع صوت الموسيقا، فأمر الباشا بأن يخفض، وخُفض الإيقاع فوراً، وعندما شعرت المس دوروثي بأن ما ستقوله سوف يسمع قالت بدورها:

- وضعنا شائك في لبنان وسورية، فنحن حلفاء مع فرنسا في الحرب لكن كلانا لم ينس بعد ذكرياته في الحروب الماضية، الفرنسيون لا يطيقوننا ولا يثقون بنا لكنهم يعرفون أننا ضرورة قصوى، ونحن لا نحب مزاجهم ولا نثق باستمراريتهم، لكننا نعرف أنهم شركاء المستقبل، وهذا المفترق في العلاقات يمر بامتحانه الأصعب في سورية ولبنان، وهم يرون فيهما حضورهما المشرقي الوحيد، ونحن لا نستطيع أن نعزل وضع العراق وفلسطين ولا نستطيع أن نعزل وضع العراق عن عدن عن الوضع في الهند، هذا ما يحدث يا عزيزتي عندما تتسع رقعة الإمبراطوريات.

تدخل الباشا مقاطعاً:

- السياسات الإستراتيجية لا تترك مكاناً لاعتبارات الصداقة، الفرنسيون منقسمون في قلب باريس ويريدون المحافظة على إمبراطورية واحدة في الخارج، ونحن متعبون ولا نستطيع الاحتمال، فإننا لم نكفّ عن المواجهة والقتال في هذه المنطقة منذ الحرب العالمية الأولى، لا مجال للمسايرة والمراضاة، لا مجال.

كان الباشا يتحدث وكأنه مقرر السياسة البريطانية في الشرق الأوسط، وأحياناً أخرى كأنه عربي من البادية، ولم يكن يحاول أن يخفي طباعه الحادة برغم صوته الرفيع، بل هو أقرَّ للضيفة التي يراها للمرة الأولى أنه غالباً ما يرمي البدو بالمحبرة التي على مكتبه، وقال ضاحكاً إنه انفجر مرة في وجه أحد البدو وانهال عليه ضرباً بمهماز الجمل، وفي اليوم التالي عندما أدرك خطأه أهداه قافلة من عشرين جملاً.

لم تعرف يمنى إنْ كان يفترض أن تعجب بمضيفها أم أنْ تحذره أم أن تسأم حديثه عن الفيلق العربي، فقد كرر طوال العشاء أن أحداً لم يكن يصدّق أن الفرقة العربية التي بدأت بألفي رجل سوف تصبح فرقة من 16 ألف رجل، وظل يكرر باعتزاز أن أحداً لم يكن يصدق أيضاً أن البدو سوف يشكلون أفضل الفضائل الآلية في القتال.

كانت المس دوروثي تتدخل من حين لآخر لتتحدث في موضوع طليّ مع السيدة القادمة من بيروت، ولم تعد يمنى في المساء تلك المرأة المغطاة بغبار الطريق بل ها هي رؤوس المدعوين تتلفت بحذر وفضول وخفر إلى الجمال المجهول الهوية الجالس إلى جانب الباشا، وكان الجميع يتأملون بإعجاب الفستان الأسود المشكوك «بالبابيت»، يلمع كالماس تحت الثريا الضخمة في قاعة السفراء، ولعلهم ظنوا أنه آخر ما صنعته باريس، لكن عمره أربعون عاماً كاملة هذا الفستان، أعطتها إياه أمّها بعدما ارتدته هي أيضاً سنوات طويلة، وها هو يبرق ويلمع بهدوء واتزان، كأنه صنع من ريش بلبل غطاه المطر.

تفرّق مدعوو الجنرال غلوب إلى تناول القهوة فوق المقاعد المخملية الوثيرة، وكانت «مود» لا تزال تضج في مكان ما، وقد أراحها أن رفيقتها في أيد أمينة، وكبرت الحلقة حول المضيف وعصاه المسمّرة تحت إبطه إلا إذا ضرب بها جزمته اللماعة، وإذ تعددت الحلقات، اقتربت منها المس دوروثي وانتحت بها جانباً بعيداً قليلاً عن الآخرين، وفجأة سألتها:

ـ هل يمكنك أن تأتي إلى زيارتي غداً، ومن دون أن تكون معك رفيقتك؟

أحسّت يمنى بشيء من الخوف والحرج معاً، وقالت معترضة:

۞ لكنني لست هنا إلا برفقة «مود»، وأنا لا أعرف أحداً في هذه المدينة.

وقالت المس دوروثي:

ـ ليس هناك ما تخشين، لكنني أريد أن أبحث معك في موضوع جدي وشخصي، ويبدو لي أن رفيقتك لن تترك لنا مجالاً لأي كلام جدي، إنها تصخب باستمرار.

اعترضت يمنى مرة أخرى:

۞ ليس هذا سوى مظهر «مود»، أما الحقيقة فإنها امرأة حديدية تماماً.

قالت المس دوروثي:

ـ تدبّري الأمر، سوف يكون سائقي عندك في الرابعة من بعد ظهر غد.

لم تنم يمنى تلك الليلة، ولم يكن في إمكانها أن تشكو إلى «مود»، التي ما إن دخلت غرفتها واستلقت على السرير حتى غرقت في النوم، وعندما أفاقت ظهر اليوم التالي وتناولتا معاً الفطور ما لبثت أن عادت إلى النوم من جديد، هي وتعب رحلة الأمس من بيروت.

في الرابعة كان سائق المس دوروثي عند مكتب الاستقبال. وبدا أقرب إلى معلمي المدارس منه إلى السائقين. ولم يكن مظهره فقط مرتباً بل حديثه أيضاً، وزاد ذلك في الغموض وفي إحساس يمنى بالخوف، وما إن بدأت الرحلة في السيارة «الروفر» الضخمة حتى تطلع السائق في المرآة وقال بتهذيب واضح:

ـ نرجو لسيدتي إقامة طيبة في القدس، إنني أسمع الكثير عن لبنان وجباله لكن لم يتسنَّ لي أن أزوره حتى اليوم.

شكرته يمنى، ثم قالت له:

۞ هل تعمل منذ زمن لدى المس دوروثي؟

ـ منذ ثلاث سنوات تقريباً، ولكن ليس في صورة دائمة، فأنا موظف قبل الظهر لدى الانتداب، وبعد الظهر أساعد المس دوروثي في شؤونها.

شعرت يمنى بشيء من الاطمئنان، لكن ليس تماماً، ولم يعد لها أسئلة تطرحها، لكنها شعرت أن السائق يسترق النظر عبر المرآة، متأملاً هذه الأناقة الهادئة القادمة من تلال بيروت إلى تلال القدس، وإذ تظاهرت يمنى أنها تتأمل الشوارع القديمة التي تمر بنافذتها، كان الرجل يقاوم الاعتراف للسيدة التي في الخلف، بأنها أجمل امرأة رأتها عيناه الشابتان، والطف نساء الأرض عطراً.

تمنى هو أن تطول الطريق بين «الكنغ ديفيد» و«حارة النصارى»، وبدلاً أن يختصر الطريق مروراً بالقنصلية الفرنسية على طريق جوليان، حرص أن يمرّ بها عبر الحي الأرمني وبوابة يافا وكنيسة القيامة قبل الوصول إلى منزل المس دوروثي.

كانت يمنى صامتة طوال الوقت، وكان هو مأخوذاً بالعطر و«بالتايور» الأخضر الداكن بلون شجرة جوز فوق نهر. ولدى الوصول أمام كنيسة القيامة تباطأ قليلاً وقال:

ـ انا اعرف يا سيدتي ان في بيروت جاليات اجنبية كثيرة، لكن هل تعتقدين ان هناك مدينة اخرى مثل القدس في هذه الأرض؟ الديانات هنا ليست جاليات، هل تلاحظين كيف تلتقي السماويات فوق هذه البقعة الصغيرة من الأرض؟

استجمعت يمنى جرأتها كاملة وشيئاً من الفظاظة غير المألوفة، وقالت للرجل الذي بدأ يسرع قليلاً:

☼ اسمع لي، لكنك لا تبدو سائقاً على الإطلاق ولا تتكلم كسائق أبداً.

وابتسم الرجل في هدوء، وقال: ها هو منزل المس دوروثي، إنه البيت المتعدد الشرفات الذي أمامنا.

كانت المس دوروثي تقف على الشرفة الأمامية في انتظار ضيفتها، وعندما ترجلت يمنى طالعتها أولاً شجرة الياسمين على المدخل وأعناق الورد الطويلة، ورحبت بها المس دوروثي من فوق، لكن الآن بلغة فرنسية أنيقة، وبعد لحظات كانت عند الباب في الطابق الأول، مدت يدها لا لتصافح يمنى بل لتضعها فوق كتفها كأنها ترحب بصديقة قديمة، ثم التفتت إلى السائق، وقالت بعامية عربية لا لكنة فيها:

ـ هل كان أحد يتبعك يا عمر؟

دلفت يمنى إلى بهو بسيط، مليء بالأشياء الجميلة، سجاد فاقع الألوان من تبريز، ومشغولات خشبية من اليمن، ولوحات مائية لطيور فلسطين وأزهارها، وريشة المس دوروثي، وصورة للمس دوروثي على البحر في «ايستبورن» مع والدتها، ولكن اللباس الكامل، ثم شرحت المضيفة بقية الصور: المس دوروثي أمام الكلية في أوكسفورد، ثم قالت باعتزاز شديد: لم تدخل أوكسفورد فتيات كثيرات كما تعلمين، إلا أنني إحداهن في أي حال! وفي هذه الصورة أبي قبل أن يتقاعد، إنه يدير مزرعة في الهند الآن لكنه جاء إلى فلسطين ضابطاً في الحرب الأولى، إنه يكتب لنا باستمرار، وأمي تأتي إلى زيارتي مع كل ربيع، كل

منا يعيش في عالمه، كل منا في مكان، والدي يعتبر الهند بلده، وأمي لا تستطيع أن تفارق القنابل التي يبعث بها هتلر إلى لندن، وأنا هنا حيث أفقت على الحياة، لا تربطني بلندن سوى اللغة، ولا يربطني بالهند سوى طابع البريد الذي يحمل رسائل أبي من مزرعته، لكن ماذا يربطني بفلسطين؟ لست أدري ماذا يربطني بفلسطين حقاً، أحياناً أعتقد أنها تلك الورود الصفراء التي تملأ الحديقة، وأحياناً أقول بل هي الياسمينة التي زرعها أبي عندما استأجر البيت، وأحياناً اقول، إنهم الناس خصوصاً عمر.

كان عمر واقفاً في باب غرفة الطعام، يتأمل ويصغي ويبتسم.

ولم يعد ثمة شك لدى يمنى بأن عمر شيء آخر غير السائق، فقد كان يمشي في البيت كأنه جزء منه، وكانت المس دوروثي تخاطبه كأنها تخاطب صاحب البيت، في حنوّ واحترام، وإذ وضعت الشاي وقطع «السكونز» أمام يمنى، تنهدت فجأة وقالت:

- آه، ماذا فعلنا بك يا سيدتي العزيزة طوال هذا النهار. ما هذا الغموض الذي نشرناه حولك، لكن لا سبيل آخر أمامنا، لا، ليس عمر سائقي، ولا هو صديقي، إننا في حاجة إليك، إننا حقاً في حاجة ماسة إليك.

وبدلاً من أن تشعر يمنى بالاطمئنان طارت طمأنينتها كلها، ولم تقوَ على أن تسأل المس دوروثي ماذا تريد حقاً؟

ـ لابد أنك تدركين يا سيدتي ماذا يجري في فلسطين، إن آلاف المهاجرين اليهود يملؤون هذه المدينة الآن، لماذا القدس بالذات؟ لا ندري، ربما لأن المعركة الكبرى ذات يوم سوف تكون حول القدس، لكن هذه المدينة الرائعة مقسومة منذ الآن، وأنا قد اخترت الجانب الذي أقف فيه، سوف أقاتل في الجانب العربي.

اهتزت يمنى لدى سماع كلمة «أقاتل»، هل حقاً يمكن أن تقاتل هذه الشقراء الخضراء العينين؟ هل يمكن أن يقاتل هذا الشعر المردود إلى الوراء في حشمة واضحة، وهذه الأكمام الطويلة؟ هل ستقاتل إلى جانب العرب هذه المرأة التي كان الجميع يلقون عليها التحيات في قاعة السفراء الليلة الماضية؟

لم تكن المس دوروثي تترك مدى للتساؤلات الدائرة في أفكار يمنى.

ـ نحن في حاجة إلى مساعدتك يا عزيزي، كيف نطلب المساعدة من سيدة لم نرها قبل اليوم؟ كيف نكبدك كل هذا الغموض؟ سوف تعذريننا على ما آمل، لكن عمر عرف أمس أنك في الطريق إلى هنا مع السيدة الأخرى، لقد أخبره بذلك ضابط من ضباطنا المتعاطفين مع الفلسطينيين.

كانت المس دوروثي تتحدث طوال الوقت بالفرنسية، وقد أرادت أن تترك لدى يمنى انطباعاً حاسماً حول خلفيتها الثقافية والاجتماعية، وقالت ضاحكة:

- أصدقائي يقولون لي: إن السير مارك سايكس كان الإنكليزي الوحيد الذي يتحدث الفرنسية أفضل مني.

وضحكت من جديد:

- يجب أن نتذكر دائماً أن السير مارك والمسيو جورج بيكو كانا يتفاهمان بالفرنسية عندما اتفقا على اقتسام هذه المنطقة. أنا حقي منها هذه الورود الصفراء في الحديقة.

أخيراً استجمعت يمنى شيئاً من جرأتها وقواها:

❂ يا عزيزتي المس دوروثي، إنك تشبهين الألغاز في حكايات الأطفال، أمس مساء إلى يمين الجنرال غلوب، والآن إلى جانب عمر في المقاومة الفلسطينية السرية، ولست واثقة من أن اسمه هو حقاً عمر، وفي أي حال، ما هو دور سيدة مجتمع من لبنان، تعمل على تربية أولادها، ما هو دورها بين ابنة ضابط بريطاني متقاعد وبين عضو في المقاومة؟

ابتسمت المس دوروثي في هدوء ورضى واضحين، وقالت معترضة:

- عمر ليس عضواً في المقاومة يا سيدتي العزيزة، عمر هو المقاومة.

تقدم عمر في هدوء وجلس للمرة الأولى، متربعاً على مقعده الجلدي المستدير، وقال بعربية مصقولة:

ـ كل شيء يا عزيزي يبدو مثل رواية بوليسية. إنني أعتذر بكل صدق، ولكن ماذا تتوقعين ونحن محاطون بالانتداب من جهة وبعيون المهاجرين من جهة أخرى، إن دوروثي ترأس جمعية السيدات البريطانيات هنا لكن هذا ليس عملها الحقيقي، وأنا أدّعي أنني سائقها لكي تسهل عمليات اللقاء في منزلها بعيداً عن كل الشبهات، فمن يمكن أن يشك في أن هذه البريطانية الجميلة هي عصب الحلقة في القدس، دعيني أعتذر مرة أخرى.

ثم أضاف ضاحكاً:

ـ ودعيني أعتذر عما هو أكثر خطورة من ذلك وأكثر فظاظة، فعندما كنت سائقاً قبل قليل لم يكن لي الحق في أن أمتدح هذه الكمية من الجمال في هذا الإناء الأخضر الصغير. إنك حقاً ساحرة كما قيل لنا.

قالت المس دوروثي:

ـ آن لنا أن نخبرك ماذا نريد حقاً، ليس في إمكان أحد منا الوصول إلى بيروت الآن، ونعرف تماماً أنكم في لبنان مأخوذون بمعركة الاستقلال. إلا أن معركتنا هنا غير متعادلة إطلاقاً، إنهم يملكون كل شيء، المال والسلاح والخبراء، ونحن لا نملك سوى الفلاحين وتلامذة المدارس وبعض البنادق العتيقة.

وارتعدت يمنى مرة أخرى: بنادق؟ ثم اعترضت المس دوروثي بشدة مقاطعة:

⊛ يا عزيزتي المس دوروثي، إنك الوحيدة التي تحدثت إلى الآن، كأن ليس عليّ سوى أن أصغي إليك، ها أنا أجيء إلى القدس من أجل تمضية بضعة أيام فإذا أنا فجأة، ورغماً مني، في قلب حلقة غامضة أصغي إلى حديث البنادق والقتال.

تدخّل عمر:

- هل هذا كل ما تعنيه القدس لك؟ بضعة أيام للترفيه عن النفس؟ هل هذا هو الشعور الذي خامرك عندما توقفت بك قليلاً عند كنيسة القيامة؟ إنك لم تكوني ترين لون وجهك آنذاك، أما أنا فكنت أراه في المرآة، كنت أتأملك من أجل جمالك لكنني لاحظت فجأة أن نوراً قد خرج من عينيك وشاهدت كيف أدمعتا، وكدت أخاف عليك وأنت تسحبين منديلك المطرز من حقيبتك لكي تردّي أثر الدمع عن هذه الرموش الجميلة.

قامت المس دوروثي إلى الشرفة تتأكد من أن ليس في دائرة البيت سيارة «أوستن» سوداء من سيارات الشرطة، وأن جارتها البولونية في المبنى المقابل لا تتظاهر بنشر الغسيل، هذه المرأة البولونية تبدو أحياناً وكأنها تدير مصبغة كبرى لا شقة من غرفتين، ولحقت بها يمنى لكي لا تبقى وحيدة مع عيني عمر، وبدت أمامها القدس فجأة مثل لوحة فسيفسائية معلقة على جدار التاريخ، وتلاصقت بيوتها العتيقة ومساجدها وكنائسها ومدارسها كأنها تحاول التجمع داخل سور واحد بعيداً عن العين، أو كأنها تحاول العودة إلى الماضي الذي يكاد يخرج منها وتخرج منه.

مدت المس دوروثي يدها إلى حوض القرنفل الأحمر واقتطفت واحدة تقدمها إلى ضيفتها الحائرة، التي وقفت للمرة الأولى في حياتها في مواجهة القدس. وقالت يمنى وهي تتطلع في الجبل أمامها:

❂ ماذا أستطيع أن أفعل؟

بكل بساطة ومباشرة أجابت المس دوروثي:

- تستطيعين أن تقنعي رياض بك بأننا أناس جديون ونستحق الدعم وليس السياسيين الفلسطينيين وحدهم، نريد أن نُخرج هذه القضية من أيدي التقليديين، إنها تتحول يوماً بعد يوم إلى صراع بين العرب أنفسهم، والوقت يمضي، والمهاجرون يدخلون من تحت قبعات الإنكليز، وكلما ازدادت حدة الحرب في أوروبا كبرت موجات الهجرة إلى هذه التلال.

وسألت يمنى مضيفتها الشابة التي تتحدث مثل امرأة في السبعين:

❂ بأي صفة تريدين أن أحادث رياض بك؟ ومن أقول له كلفني هذه الرسالة؟

- لا ندري، لكنك سيدة معروفة في لبنان، ونحن لا وصول لنا إلى الرجل، ليس في هذه المرحلة، لقد حاولنا مقابلته في عمان لكننا لم نفلح، وحاولنا أن نبلغه رسالة في باريس فانفضح أمرنا قبل وصولها، والآن، هذه فرصتنا الذهبية، طبعاً إذا قبلت بالأمر.

أطرقت يمنى قليلاً، ثم سألت والشمس تغيب نحو المتوسط:

۞ هل في إمكان عمر أن يعيدني إلى الفندق الآن؟

- ليس عمر هو الذي سيعيدك. الظلام يحل الآن. وكلما حلّت العتمة تفتحت العيون. سوف أتولى أنا إيصالك إلى الفندق. امرأة توصل امرأة. إن حركة السيارات بدأت تخف الآن. وبعد قليل سوف تتضاءل. فالليل يلقي الشبهات على الجميع. والناس تخاف بعضها بعضا. والشوارع تخاف بعضها بعضا. والليل يخاف أهل الليل. ولو كان للخوف شكل لرأيته يا عزيزتي في كل زاوية. لا أحد يعرف ماذا ينتظر هذه المدينة.

عندما توقفت سيارة المس دوروثي أمام «الكنغ ديفيد»، نزلت مجموعة من الضباط من سيارتين أخريين. وألقى أحدهم عليها التحية من بعيد صائحاً:

- أوه، يا عزيزتي دوروثي، متى سوف تنتهي هذه الحرب؛ لأتقدم بطلب يدك؟

وضحك الجميع.



كانت «مود» تنتظر في صالون الجناح الكبير بكامل أناقتها. وبدا عليها شيء من العتب. وقالت يمنى، وهي لا تدري متى استيقظت «مود» أو متى استفقدتها:

۞ لقد خطر لي أن أقوم بجولة في المدينة وأنت نائمة. قبل أن تغيب الشمس.

وبقيت «مود» صامتة، فعاودت يمنى تؤكد:

❂ وقد مررت أيضاً بكنيسة القيامة وقمت بتلاوة الصلوات.

رفعت «مود» رأسها من بين يديها:

ـ هذه مدينة صغيرة يا يمنى، أصغر من بيروت بكثير، وهذه الحجارة الجميلة المقدسة ملئت كلها بالعيون، مسكينة المس دوروثي إذ تعتقد أن في إمكانها أن تخدع حكومتها! عندما أفقت اتصلت بعامل الاستقبال: لأسأل إن كنت في البهو أو في مكان آخر، فهل تدرين ماذا كان الجواب؟ «آه سيدتي العزيزة، لقد ذهبت ضيفتك الكريمة إلى زيارة المس دوروثي في حارة النصارى، لابدّ أنها تريد أن تجنّدها لقضية العرب».



نشرة الساعة السادسة

20 تموز 1951

هي هنا منذ عشرين يوماً على وجه الضبط. هذا الشهر من الصيف هو دائماً لقريتها ولصنوبراتها. هو من أجل أن تسلّم نفسها لهذه الرتابة التي لا أجمل منها ولا أكثر هناء في أي مكان من العالم، في أي مسرى من العمر: مشهد الشلال في الجهة المقابلة وهو يتدفق، بلا تعب، بلا ملل، وبلا منّة. تذهب إلى النوم وهو لا يزال يتـدفق، وتقوم عند الصباح إلى الشرفة لكي تقبّل يد أمها، فيطالعها مشهده حتى قبل أن تحمل بين يديها ظاهر أجمل واطيب يد. وعندما تفيق من قيلولتها عند الغروب وتخرج إلى الشرفة لتتفقد أصدقاءها، الصرارت المفرّدة، المغنية، المردّدة، السعيدة بلا حدود، يكون هو أيضاً هناك، مردّداً أناشيده، مودعاً النهار مستقبلاً العشايا بالرضى والرذاذ. يحمل مياهه من كل مكان، من أمكنة معروفة ومن خبايا لا يراها أحد، ثم يرمي حمله من فوق هذه الحافة الشاهقة ويغنّي كأنه استراح، أو كأن هذه الحافة ميناء يسلّم عنده، كل لحظة، المياه للأودية، توزعها كما تشاء وتلوّن بها البساتين بكل ألوان الزهر والثمر والعشب وثمار الأكاسيا.

اعتادت هذه الرتابة الجميلة منذ أن كانت بعدُ في صيفها الأول. ثمة ألفة تامة هنا، بينها وبين كل شيء. العصافير تمرُّ بها قبل أن تذهب إلى أسرّتها على الشجر، الصرارت تستأذنها قبل أن تكفَّ عن

التفريد في عبادة النهار والشمس والفناء، والراعي، الورع اللبّادة، الورع السروال، يختم تحت الشرفة عودته من نايات النهار إلى مبيت الليل، عندما يلوح لها من بعيد بخفر الرعيان، ثم يضع نايه في صدره بخجل، وينهر الأغنام والحملان، مؤدّباً الشاردين، مؤكداً ما لسيدة الشرفة من احترام.

كل شيء لها، هنا، فيء الشجر الكثير لها، والنسيم وهديل الريح، الناس والأشياء، الكبار يعرفونها، الصغار يسحرهم عطرها، الشبّان يلقون التحية ويزيحون عيونهم بسرعة خوفاً من السقوط في الأهداب المتباعدة، كم تجتذب هذه العفوية من أفئدة، هنا ترتاح، ثمة ألفة كاملة مع كل شيء ومع الناس، لا تدافع، لا مزاحمات، لا أمكنة تكتظ فيها النفوس وتتدافع فيها الأكتاف وتتحايل فيه الوجوه، لا شيء، لا شيء سوى الألفة مع الآخرين والطمأنينة مع النفس، ولا سياسة، ولا سياسيون، ولو لم يكن يمر بهم نائب المنطقة من أجل أن يلعب «دق طاولة» مع والدها، لما كانت سمعت كلمة سياسة واحدة إلا من الراديو، مرة واحدة في اليوم، لا أكثر ولا أقل، نشرة السادسة.

إذ تذكرت الراديو تطلعت في صورة عفوية إلى ساعتها فإذا هي السادسة إلا عشر دقائق، طلبت قهوتها وجلست، على غير عادة، إلى كرسي خشبي، وللمرة الأولى في حياتها لم تجلس قبالة الشلال على الشرق بل جلست صوب الغرب، للمرة الأولى أدارت ظهرها إلى ذلك الرفيق المتدفق، المغني مثل صرارت الصنوبر في الصيف، العامل مثل النمل في الشتاء، أدارت ظهرها إليه كأنها تكايد رذاذه البعيد، كأنها

تداعب ولامه القديم، وأخذت تتأمل الشمس في هبوطها اليومي خلف حافة الأفق، وقد راعها أن ترى في قرصها، هذا الغروب، احمراراً أكثر من عادي، لون قان متجرح، هل هي تغيب دائماً هكذا؟ لا تذكر. لقد أصبح كل شيء هنا مألوفاً، جزءاً من العين لا من الرؤية، وصارت الألوان والأصوات والنسائم شيئاً آلياً من الذاكرة، مثل صوت أولادها عندما ينادونها، مثل سقف غرفتها، مثل النافذة المطلة على عرائش اليوغانفيليا، شيء واحد يأتي إليها دائماً كأنها تشعر به للمرة الأولى: رائحة سنابل الصنوبر اليابسة عندما تهبّ عليها الريح، رائحة الصنوبر الأخضر عندما تكسر أغصانه الريح، رائحة الأرض عندما تُفْتَحُ عليها المياه، رائحة الغابة المجاورة عندما يحلو لها أن تغني أو أن تهمس بصوت واحد، رائحة صوف الغنم وهي عائدة في المساء منتشية بخير الأرض وغناء الراعي والحكايات التي تخبرها الريح للصنوبر.

أخافتها ألوان الغضب في الشمس وهي تنزلق، وبدت دائرة الأرجوان الأزلية وكأنها أكبر من حجمها العادي، ومن حولها احمرّت مجموعة الغيوم التي ترافقها في مثل هذا الوقت كمثل وصيفات ملكية، وغاب عنها اللون البنفسجي الداكن، الأقرب إلى لون التوت الذي يغطي الحديقة، وشعرت بشيء من الخوف، ماذا حدث للغيوم المواكبة، وسكتت الصرّارات مبكرة قليلاً، وارتجّت أجنحة العصافير وهي تؤوب، بلا صوت، من دون أن تطلق آخر مقاطع الغناء، شعرت بشيء من الخوف، لكن لماذا تخاف هنا، في هذا المكان الوحيد في العالم الذي لا تشعر فيه بالخوف؟ وخافت أكثر عندما لمست ساعدها

مصادفة فوجدته بارداً مثل قطعة من القطب، وأحسّت بأنها تريد أن تنادي على أمها، لكنها ضحكت من نفسها وتراجعت، لقد تركتها تشرف، برغم رجّة السنين في الساقين واليدين، على تحضير العشاء، إنه عشاء غير عادي، هذا العشاء، يوم غير عادي هذا اليوم، لقد أكملت يمنى، في مثل هذه الساعة، العام الأول من النصف الثاني من القرن، واحد وخمسون عاماً، هل هذا ما يجعلها تشعر بهذا البرد؟ أم هي هذه الريح المفاجئة التي جعلت الغابة تبدو وكأنها تنوح؟ ماذا حل بها فجأة هكذا؟

دقت ساعة «بيغ بن» في الراديو إلى جانبها، فنفّرتها دقة الجرس العميق، طن!! كأنما هو صنّاجة في جنازة ذات أبهة، لا جرساً فوق برلمان، طن!

ثم بدأ المذيع في صوت بعيد، كأنه آت من مكان آخر، يتلو النشرة من دون مقدمتها:

«أيها السادة، تأكد قبل قليل، أن السيد رياض الصلح، رئيس وزراء لبنان، وأحد المجاهدين العرب المعروفين، قد فارق الحياة، وكان رجلان، أو أكثر، قد أطلقا النار على موكبه في الطريق إلى مطار عمان، ويسود العاصمة الأردنية وجوم شديد، وقد تبلغت بيروت النبأ بإعلان الحداد الرسمي وعلت أصوات المآذن وبدأت الأجراس تقرع حزناً».

أفاقت يمنى، بعد ساعتين، وهي على سريرها، ومن حولها طبيبان، الأول جاء من البلدة المجاورة على فرسه، والثاني جاء في سيارة الشرطة، وعندما فتحت عينيها خرج أحدهما إلى العائلة التي تنتظر في البهو باسماً وقال: «الحمد لله، كل شيء بخير، كل ما تحتاجه، الراحة والنوم».

أغلقت أمها الغرفة الوسيعة دون الجميع، وجلست إلى جانب سريرها، وعندما أرادت أن تقول شيئاً ما، رفعت يمنى يدها بكل حنو وأطبقت شفتيها قائلة: «لا حاجة إلى أي كلام، ما أنا سوى امرأة من الخارج، لقد رمَّل سيدة كريمة ويتَّم فتيات صغيرات، إنهن أحق مني بكل حزن!».

على الشرفة، في الخارج، جلس المتفقِّدون من أهالي القرية في قلق وهمس، بعضهم يتفقد يمنى وبعضهم يتساءل ماذا حدث في عمان، حقاً ماذا حدث في عمان؟



دخلت يمنى في نوم أشبه بالغيبوبة، من دون حبوب منوِّمة أو مخدِّرة، فقد بقي لها من الطاقات والقوة في تلك اللحظة مقدرة واحدة: أن تغرق في النوم حتى قاعه الأخير، حتى حافته الأخيرة ما قبل النوم الأخير، لم ترد أن تسمع شيئاً من التفاصيل، ولا من الأسئلة، وإذ هي تسمع صوت جرس القرية يقرع حزناً ضرباته المنفردة، المتباعدة، الثقيلة، الطويلة التي يبدو صداها بلا نهاية، يذهب

هو الآخر إلى الوادي ولا يعود، كل ضربة تنتظر أن تلحق بها أخرى، كل حزن ينادي على حزن آخر، إنها القرية تنعي، على طريقتها، الرجل الذي أقرَّ الجميع بفقده. هي وحدها لا تستطيع أن تفعل ذلك، هي وحدها لا تستطيع أن تبوح لأحد مَن فقدت وكم فقدت، لقد جرّدها موته ليس فقط من وجوده، ليس فقط الطربوش الذي كان يلويه إلى اليمين كلما خطر له أن يضحك من الناس والأشياء والحياة، بل جرَّدها أيضاً من حقها في أن تحزن بقدر ما تريد، أن تحزن ما تشاء.

ظهر اليوم التالي جاء ساعي البريد يوسف، على فرسه الجميلة الهرمة كالمعتاد، وسلَّمَ أمّها رزمة البريد بصحفها ورسائلها كما يفعل مرتين في الأسبوع منذ ثلاثين عاماً، وخلع قبعته الكاكية الميرية في شكل شبه طقوسي ثم مسح العرق عن مقدمة رأسه بمنديله الأبيض، ووضع قبعته إلى جانبه، الشيء الوحيد الذي غاب عن حضور يوسف كان ابتسامته، لقد كان وجهه الرضي، البسيط، الخالي من الهموم، خالياً هذه المرة من الابتسامة أيضاً، وكان في غمٍّ واضح، وعندما جلس على الشرفة في انتظار كوب الليموناضة الذي يقدم إليه مثلجاً في دورته الأسبوعية كل اثنين وخميس، لاحظ أن سيدتي يمنى لم تقوَ على رد التحية، ولاحظ أنها المرة الأولى لا تجلس على الكنبة بل على كرسي هزاز وتدير ظهرها إلى الشلال وصدر الوادي وعرض الجبل والرائحة القادمة أبداً من البساتين، شَعَرَ يوسف بضيق مضاعف، ولم يستطع أن يميز أو أن يحدد سبب الكآبة التي استقبل بها هذه المرة، منذ اللحظة التي ربط بها فرسه «ميلَة» عند باب القبو تحت الشرفة،

لقد اعتاد، في مثل هذا الوقت، عندما تكون سيدتي يمنى هنا، أن تسأله دائماً عن «ميلة» وأن تداعبه حول أخبارها، إنها له في هذه الجبال ما هي الناقة لأهل الصحراء، تنقله من قرية إلى قرية وهو يحمل في كتفه تلك الحقيبة الجلدية التي أصبحت من لونه أو أصبح من لونها، وهو يدلّلها ويغني لها في الطرقات الخالية ويدعوها إلى التأني بين الصخور وعند الحفافي الصعبة ولا تدري «ميلة» أن حياته أحياناً من حياتها وأن قوته من قوتها، لذلك يقدم لها الجوز واللوز والتين المجفف في المواسم، وفي الشتاء ينقلها من المربط إلى الغرفة المجاورة ويوزع عليها البطانيات كما يوزعها على أولاده، ويغني لها، ويروي لها دائماً ملاحظاته عن الناس الذين يتوقف عندهم في القرى، كم له من ملاحظات، وكم يسرُّ «ميلة» أن تصغي إلى يوسف، كلها ملاحظات مضحكة وغير مؤذية، في النهاية، تتماشى مع طبيعتها كفرس رؤوم، وقد نشأت وحدة الحال هذه منذ أن أطلق يوسف على فرسه اسم «ميلة» بكل سخرية وتذمر، بادئ الأمر، وقبل أن يعرف ما معنى رفقة الأحصنة، فقد كانت عندما اشتراها من صاحبها الأول في «سوق الخان» في صيدا، مهرةً تسمى «عبلة» بسبب بياضها الشديد، وقرر يوسف وهو يعود بها في رحلة استغرقت يوماً كاملاً أن يسميها «ثلجة» أولاً لبياضها، وثانياً على اسم جدته التي سميت «ثلجة» لأنها ولدت مع هبوط أول ثلج على القرية بعد انحباس طويل، وكان يوسف يحب جدته كثيراً مع أنها كانت غارقة في السمرة والبثور أكثر مما يجب، وفي البداية كان الناس يسخرون من الفارق بين الاسم وحاملته،

لكنهم ما لبثوا أن اعتادوا مناداة «ثلجة» بلا استذكار للفارق، وكذلك شقيقتها «نفنافة»، التي، إضافة إلى سمرتها الحالكة، كان لها أيضاً شاربان، ولم يكن ذلك مهماً في أي حال. فقد كان يوسف يحب جدته ويريد أن يطلق اسمها على الفرس التي جمع كل ما يستطيع من مال من أجل شرائها، لكنه لاحظ طوال الطريق صعوداً أن «عبلة» تميل بصورة دائمة نحو اليسار، حاول أن يعدل السرج وظلت تميل، حاول أن يضع ثقله على الجانب الأيمن وظلت تجنح إلى اليسار، وما إن وصل متعباً إلى البيت وترجل ودعا زوجته وأولاده إلى التفرج على اللقية الجديدة، حتى كان قد اختار اسماً لها: «ميلة». عبثاً حاولت زوجته أن تسمّيها «منصورة»، على اسم جدتها هي، هو اشترى وهو سمّى، عاشت الأسماء.

قدمّت له والدة يمنى كوب الليموناضة بنفسها، ووضعت كوباً آخر أمام يمنى، وحاول أن يخترق هذا الوجوم الذي لم يعتده على هذه الشرفة، فقال موجهاً الكلام إلى والد يمنى:

- لقد كنت في صيدا هذا الصباح، ذهبت أشتري للأولاد ألبسة صيفية، ورأيت المدينة حزينة وغاضبة والناس تموج في الشوارع ولا تدري ماذا تفعل، وعندما مررت أمام الملعب البلدي ورأيت كل هذه الجماهير شعرت بالخوف وقررت العودة من دون أن أشتري شيئاً.

وقال له الأب كمن يكمل حديثاً سابقاً:

ـ لا يهم، تذهب غداً.

ـ غداً ماذا؟ غداً الإضراب، الله يستر من الإضراب، لا، لا، لن أذهب إلى صيدا قبل أن ينتهي كل شيء وتهدأ الناس.

أكمل الكوب ثم وقف قائلاً: «لقد أحضرت معي «النهار»، بالإضافة إلى صحف البريد العادي»، قامت أمّ يمنى لتوها وأعطته 15 قرشاً ثمن الجريدة التي التقطها الأب على الفور وجلس عند طرف الشرفة يقرأ وينتقل بين الأسطر بسرعة، كأنه مصباح يبحث في الليل عن مطلوب.

لم تمدّ يمنى يدها إلى الكوب، وصلت شمس الظهيرة إلى الشرفة ولم ينتبه أحد، خلت الطريق وجاءت أصوات الراديو من كل النوافذ القريبة وجميعها على نشرة الأخبار، إنه «غنطوس الرامي» يقرأ نشرة الواحدة، ولا أخبار اليوم، فقط برقيات التعزية: من الملك عبد العزيز، من الملك عبد الله، من ملك اليمن، من الرئيس هاشم الأتاسي، ومن الوصي العراقي، ثم برقية مطولة من مصطفى النحاس باشا يقول فيها: «فقدت العروبة جمعاء صديقاً وفياً بها طالما سعى جاهداً لوحدتها فالمصاب فيه ليس مصاب الأمة اللبنانية وحدها ولا مصر وحدها بل مصاب العروبة جمعاء»، ثم برقية النحاس إلى فايزة الصلح، ثم إعلان الجامعة العربية عن الأعلام المنكّسة.

لم يكن في النشرة مكان لشيء آخر، حتى اجتماع أفريل هاريمان بالدكتور محمد مصدق في طهران وأنباء الثورة المصدقية في إيران بدا أن لا مكان لها في هذه النشرة التي استمرت حتى الثانية

و«غنطوس الرامي» ما زال يقرأ صفحة بعد أخرى بلا لهاث، رابط الجأش، لا ارتجاج في صوته الهادئ كأنما هو يذيع أخبار بلد آخر، وحدثاً وقع في عالم آخر.

لم تمدّ يمنى يدها إلى الكوب، واشتد صوت الصرّارات في الغابة القريبة، وظل صوت غنطوس يأتي من كل النوافذ والشرفات، يقرأ البرقيات، يقرأ الردود، يقرأ مراسم الدفن غداً، تفاصيل الموكب الأخير،، وإذ انتهى عادت الإذاعة إلى الذكر الحكيم، لا غالب إلا الله، لا غالب إلا الله.

أمضت يمنى قيلولتها في الشمس، وقد غطت أمها رأسها بقبعة واسعة من القش وجلست إلى جانبها تنتظر أن تتحرك رموشها المتباعدة، لكن الرموش المتباعدة بقيت مفتوحة كأنها مطبقة، وبقي الراديو مفتوحاً في وداع رياض، وعندما بدأت الصرارت تتباطأ في الغناء عرفت يمنى أن الساعة السادسة قد اقتربت فأومأت لأمها بأن تدير قرص الراديو قليلاً صوب اليمين، وأخذت تلاحق بعينيها الإبرة وهي تنتقل على اللوحة الخضراء المضاءة، لقد كانت هي التي أهدت الراديو هذه المرة إلى أمّها، في مثل هذه الأيام تماماً قبل عام، كانت تفكر في أن تقدم لها شيئاً ما، شيئاً جديداً، وما إن قرأت بالصدفة عن إعلانات «باي» حتى نزلت بنفسها إلى «ساحة الدباس» وأرسلته مع السائق إلى هنا، إنها تعرف كم تحب أمها الأغاني القديمة وصوت عبد الوهاب، وأي مكان أجمل من هذا المكان تسمع فيه «عندما يأتي

المساء». هنا يأتي المساء مثل أمير. مثل الفجر، كل شيء متساو في جمالياته، المساء والفجر والضحى والقمر وهو يتوقف قليلاً فوق الشلال كأنه يتأمله، أو ربما كأنه يمرّيه، ثم ينزلق فرحاً خلف الجبل، وخلفه نجمة الصبح، دائماً نجمة الصبح، كأنها «بانشو» وحماره خلف دون كيشوت، الحمير تتحول إلى أحصنة وعربات في تواضع هذه القرى وندرة مداخيلها، تنقل الفلاحين ويداعبها الصبية وتحمل الأحمال الثقيلة والمضنية وتغبط السيارات القليلة كلما مرّت بها، تغبطها لأنها لا تتعب، ولأنها إذا لم تُعطَ علفها لا تمشي ولا تتحرك، وإذا لم تعط ماءها دخنت ونفّخت ونفثت وتوقفت في عرض الطريق.

حركت يمنى عينيها لكي تتأكد من أن إبرة الراديو وضعت على نشرة الساعة السادسة، بكل سذاجة، بل بتصديق وتأمّل، كانت تنتظر أن تبث تلك الإذاعة الأخرى نفياً لما حدث، لعل هذه الإذاعة تقول إن كل ما شغل العرب منذ الأمس ليس صحيحاً، لم يحدث شيء في عمّان، لم يقتل أحد في عمّان، لم يهو الطربوش الأحمر، الوقور، الباسم مبللاً بالدماء، لم يحدث في عمان، لكن نشرة الساعة السادسة بدأت ببرقيات التعزية، حتى الإمام أحمد أبرق من صنعاء مستخدماً الجهاز البرقي الوحيد الذي لا يستخدمه أحد سواه، فقط من أجل البرقيات المرسلة، أما البرقيات والأخبار الآتية فإنها ترد من الراديو، أيضاً الراديو الوحيد، ممنوع بث العصيان في البلاد، ممنوع نشر الفتنة ممنوع، الإمام وحده يسمع والإمام وحده يتكلم، وإلا كيف نصون البلاد، كيف نحمي الشعب؟ كيف!

بدأ زوار المساء يتوافدون فدخلت يمنى إلى غرفتها، إلى النوم، إلى الوادي الأسود الكالح، وكان أول القادمين نائب المنطقة، لا «دق طاولة» هذا المساء، فالناس تريد أن تعرف، أن تتحدث، أن تحكي لعلَّ الكلام يريح المتكلمين، لعلَّ فيه ما يريح السامعين، لعلَّ فيه شيئاً ما، «لا يقدِّم ولا يؤخِّر»؟ صح، لكنه يريح، حقاً يريح.

خلع النائب طربوشه ووضعه على الطاولة أمامه، لكن ليس قبل أن يتفقد كمية العرق في دائرته الداخلية، تفقّدها، كالعادة، برسم دائرة كاملة بإصبعه حول الطربوش، ثم ضبط الخيوط التي تعقدت من «شرابته»، ثم نفخ الغبار الوهمي عن صحنه الأعلى، وبعدها نفضه برؤوس أصابعه، ثم تأمله مرة أخيرة قبل أن يضعه أمامه على قاعدته الدائرية، وعندها فقط اطمأن، وشعر أن في الإمكان أن يبدأ، لا، لكن ليس قبل أن يسحب منديله الأبيض من جيب سترته البيضاء، الجيب الصدري الأعلى، ثم يمسح به عرق جبينه، ثم عرق عنقه تحت قبة القميص، ثم طواه وأعاده إلى الجيب، زينة صالحة لكل الفصول والجيوب والاستعمالات، وعندما انتهى حقاً من ترتيب أمور ذاته وتأكد من طيّة البنطلون وشكلها الهندسي وألقى نظرة تفقدية أخيرة على حذائه البنيّ والأبيض، المنقوش كأفضل الأحذية الإنكليزية وأعرقها، بعدها بادر والد يمنى بالسؤال، ما إذا كان ذاهباً إلى المأتم غداً.

ـ لا أستطيع إلا أن أذهب.

ـ سوف نذهب معاً من هنا، لقد أعددنا وفداً من وجهاء المنطقة يمثل كل الناس، أنت تعرف أن رياض بك كان نائباً عنا أيضاً.

ـ رياض كان نائباً عن لبنان، كان نائباً عن العرب في لبنان ونائباً عن لبنان عند العرب، إن مقتله يحزننا.

ـ إن مقتله يخيفني.

ـ لماذا؟ هل تعتقد أن في الأمر مؤامرة ما؟

المؤامرة لا تتبرع بالكشف عن نفسها، لكن ليس من الضروري أبداً أن يكون في الأمر مؤامرة، القتل الثأري يقوم على المشاعر، أما التخطيط له فليس أكثر من ضرورة تفصيلية، الرجلان اللذان أطلقا الرصاص على رياض الصلح كانا يعتقدان أنهما بذلك يعيدان أنطوان سعادة إلى الحياة، لم يخطر لهما لحظة واحدة ماذا يعني موت رياض الصلح للبنان أو للعرب أو حتى لعائلتيهما، الثأر لا يقرّ بالحسابات وإلا تردد وتراجع، إنه تعبئة تترك كل الاعتبارات خلفها ولا يقوم به إلا انتحاري أو منتحر.

ـ هل تعتقد أن اغتيال رياض بك سوف يترك أثره في البلد؟

ـ اسمع، إنني أتحدث الآن كتائب في المجلس وكرجل عرف رياض الصلح: الأثر الأول هو أنه لن يعود لدينا رياض الصلح، هذا أمر لا يعوَّض، لن تعود هناك مظلة فوق رأس لبنان في هذا الحجم، إنه يبدو الآن والنفوس فائرة وكأنه جرح للمسلمين، لكن غداً

سوف يكتشف المسيحيون أن الزعيم المسلم القوي هو الوحيد القادر على التضحية، رياض كان هو الذي يأسر الجماعات، الآخرون تأسرهم جماعاتهم، لماذا؟ لأن ما تأتّى لرياض الصلح لن يتأتّى لأحد بعد اليوم، إنه بالنسبة إلى المسلمين الرجل الذي جاء بالاستقلال من فرنسا، وبالتالي فهو ليس عندهم زعيماً بيروتياً أو زعامة لبنانية بل هو القطب الذي يباهى به أمام جميع العرب ومسلمي العالم أجمع.

ـ أتعرف يا سليم بك، أنني لم أكن قبل الآن آخذ الأمور في هذا الإطار؟

ـ لا تؤخذ الأمور يا أبا يمنى إلا في هذا الإطار، سوف تسألني من علّمك ذلك؟ وأجيب: إن السياسة علّمتني، الحزب الدستوري علّمني، المناقشات البرلمانية علّمتني، وهل تدري في أي مكان أسمع الأخبار السياسية أكثر من أي مكان آخر؟ دعني أعترف لك: إنني أسمع كل السياسات والنقاشات وأنا أهزم السياسيين بطاولة الزهر، الواحد بعد الآخر في سباق الخيل، من هنري فرعون إلى المركيز دو فريج، جميعهم يقولون رأيهم الحقيقي وموقفهم الحقيقي ومشاعرهم الحقيقية، عندما يربحون في طاولة الزهر أو عندما يهزمون، مع كل «شاش باش دوبارة»، هناك خبرية جديدة، مَن مع مَن ومَن ضد مَن، مَن هو الوزير المقبل ومن هو الوزير الذي «لن يراها في حياته بعد اليوم».

ـ هل كان رياض مهماً حقاً إلى هذا الحد؟

ـ رياض جاء في ظروف لن تتكرر، ثلاث مرات حكمه الأتراك بالإعدام، ثم مضى الاستعمار التركي، مئة مرة حاول الفرنسيون أن يستميلوه أو أن يخيفوه، فلم يملّ ولم يخف، ثم ذهب الانتداب الفرنسي، وبقي في هذا البلد الصغير رجل كبير يدعى رياض الصلح، العرب جميعاً يرونه ممثلهم في لبنان والأجانب يرون فيه الصلابة التي لا تلوى لكنها قابلة للحوار، كان هناك رجل وكانت هناك ظروف تاريخية، أسهمت في صنعه وأسهم في صنعها، لا هو سوف يتكرر ولا الظروف يمكن أن تتكرر، وكل من يقول لك إن التاريخ يعيد نفسه توسَّله أن يحمل تحياتك إلى الإمبراطورية الرومانية ومملكة آشور، والآن إلى الإمبراطورية البريطانية، فليسلِّم عليهم جميعاً، بحرارة.

ـ هل تدري شيئاً آخر يا سليم بك؟ إنك تحدثني وكأنني لا أعرفك، دائماً نتحدث هنا في شؤون الطرق والمياه وخلافات الأهالي، هذه أول مرة نحكي فيها حقاً عن لبنان بلداً.

ـ هذه أول مرة يتعرض فيها لبنان المستقل لإعصار، الإعصار الأول دائماً مخيف: لأنه يدل الأعاصير الأخرى على الطريق، الرجلان اللذان قتلا رياض الصلح في عمان لا يعرفان ما معنى أن يقتل زعيم في عاصمة غير عاصمته وبلد غير بلده، لقد فتحا الباب أمام الاغتيالات السياسية في العالم العربي، كل من له ثأر غداً

يأخـذه في أي مكان، اللذان قتـلا رياض من أجل الثـأر منه لا يعرفـان أنهمـا وضعا «قـانوناً» جديداً ليس فيـه محـاكمات ولا مرافعات ولا دفاع.

ـ وهل كنت ضد إعدام أنطوان سعادة؟

ـ طبعاً كنت ضد إعدام سعادة، صحيح أنني أجبنت عن الإدلاء برأيي، لكن هل يجوز أن تعدم إنساناً بسبب رأيه؟ بسبب أفكاره؟

ـ لكن رياض الصلح لم يكن الرجل الذي أُعدم، القضـاء هو الذي فعل.

ـ صحيح، لكن سعادة حوكم وأدين في قضية سياسية، لقد وضع أهل القانون الأحكام المؤبدة من أجل أن يتمكنوا من إعلان العفو في وقت لاحق، لأن كل شيء يتغير حتى المذنب الموصوف، فكيف بالمعترض السياسي، الإعدام السياسي لا يجوز، معاقبة الناس على أفكارها ليس عملاً حضارياً، لقد كان في إمكان الحكومة أن تطلب من القضاء معاملة المسألة كقضية سياسية، لكنها لم تفعل، لماذا؟ لأن سعادة ليس مسألة لبنانية فقط، إنه مسألة عربية كانت تقلق الجميع، هذا الخطاب السياسي لا يريح أحداً.

امتلأت الشرفة بالمزيد من الزوار وضيوف المساء اليوميين، لكن الحوار الثنائي بين الرجلين لم يأبه للحضور المتكاثر، بل وجد سليم في ذلك فرصة يؤكد فيها أمام ناخبيه ومؤيديه براعته السياسية، ونادراً ما يتحدث الناس في حضوره في أي حال، حتى الكلام يُترك له، وإذا

ما تكلم أحد إما ليطرح سؤالاً عليه أو ليجيب عن سؤال منه حول عدد الأولاد أو حجم المواسم أو أسماء المغلوبين في لعب الورق، فالحقيقة أن لا خدمات هنا من غير سليم بك، هو الذي يؤمّن كل شيء، من أساتذة المدرسة الوحيدة في ساحة القرية إلى تعيين الشباب في الشرطة أو في الجيش، إلى تعمير الطرقات التي تنهار على جانبيها مع أول هطول، فلماذا الكلام في حضرته؟ لماذا التفلسف عليه؟

هذا المساء لم يأت الرجال وحدهم، فقد جاءت الزوجات أيضاً وقد سمعن عن توعك يمنى، وهنَّ أيضاً لا يتكلمن شيئاً سوى تحية المساء والإجابة عن الأسئلة حول صحة الأولاد، وبعد ذلك لا شيء، تلفُّ كل امرأة منديلها حول رأسها وتضع حقيبتها في حضنها ويديها فوق حقيبتها وتصغي لما يقال، وعندما تدور أمّ يمنى بحبوب الشوكولا تأخذ كل سيدة حبة متظاهرة بأنها انتقت الأصغر حجماً، أو تعتذر بحجة أن صحتها لا تسمح، يجب ألا يبدو أحد وكأنه في حاجة إلى شيء، يجب أن تبدو المرأة بلا عواطف وبلا رغبات وبلا مشاعر، سوى مشاعر الطاعة لذلك الزوج الذي يخرج كل يوم إلى الحقول فيحفر في الأرض أو يتسلق الصنوبر أو الحور من أجل العودة بالرغيف في آخر النهار، لا، لن تغامر سيدة بصورتها كزوجة طائعة وامرأة مدبِّرة، وهكذا بدت جميع النساء ذلك المساء بالثوب الكحلي المنقّط والمنديل الأسود المطرز والحقيبة الجلدية السوداء، كأنهن سيدة واحدة أو فتيات في صف دراسي.

أراد والد يمنى أن يعرف من سليم بك تأثير مقتل رياض، في صديقه، الشيخ بشارة.

- قد تظن الناس ويعتقد السياسيون أن الشيخ بشارة سوف يشعر بالارتياح لغياب رياض، لقد مات الرجل القوي الذي يستطيع أن يقول له لا. لكن الشيخ بشارة أكثر ذكاء من ذلك، إنه يدرك تماماً أن رياض هو حمايته الحقيقية في الأزمات. الشريك القوي يخيفه لكنه أيضاً يحميه، وغياب رياض الآن سوف يفتح الأبواب أمام الرياح من كل مكان. للوهلة الأولى يبدو أن بشارة الخوري فقد ندّه السياسي الوحيد، لكن الحقيقة أنه فقد جناحه الآخر. لقد فقد حمايته الكبرى، وهذا التوأم السيامي الذي جاء إلى السلطة باسم الاستقلال سقط نصفه الآن. إنه لنذير ملعون.

- ما بالك يا سليم بك تتحدث وكأن الأرض أقفرت وكأن لبنان أصبح على حافة الهاوية!

- نحن بلد صغير ويافع يا أبا يمنى، الفرنسيون والبريطانيون لم يخرجوا تماماً بعد، والأميركيون لم يصلوا تماماً بعد، وخلف هذا الجبل أمامك في المقلب الآخر منها تقوم دولة أجنبية مكان بلد عربي، بلد يبنيه الألمان والبولونيون والروس، فهل تعرف ماذا يعني ذلك؟ ألم تلاحظ أننا كنا أول المتضررين في جزين، هنا قبالتك، حيث يقوم «فندق فلسطين» و«فندق الأهرام» و«فندق النيل»؟ ماذا يحدث الآن؟ إن الفلسطينيين الذين كانوا يجيئوننا

كمصطافين وأثرياء، يملأون البلد كفازعين وهاربين، والمصريون لن يأتوا بعد اليوم؛ لأن الطريق البرية قد أغلقت، ربما إلى قرون، وفي مثل هذه الظروف إلى من تحتاج؟ إلى رجال ذوي أبعاد عربية ودولية، إلى رجال يعرفون كيف تطبخ القرارات وأين، لقد فقدنا في رياض الصلح السياسي الوحيد الذي له صداقات شخصية في العالم العربي، الرجل الوحيد الذي ينادي زعماء سورية ومصر بالأسماء الأولى، وفقدنا معه واحداً من الذين رافقوا صناعة القرار في أوروبا، خذها مني الآن، لن يبقى بشارة الخوري طويلاً بعد اليوم، لم يعد هناك من يستطيع أن يحمي عهده في الجناح الإسلامي.

تضايق الجميع من هذا الكلام، حتى النسوة اللواتي لم يعرفن تماماً معاني الكلام وحديث الدول، شعرن بشيء من الضيق الغامض لدى ذكر بشارة الخوري بالخوف والعزل، صحيح أن أحداً لم يكن يعرف الشيخ بشارة، لكنهم جميعاً يعرفون أن له قرابة بهذا البيت، ولن ينسى أحد زيارته للقرية قبل سنوات، في سيارة مكشوفة يتقدمها الشرطة ويقف لها المستقبلون وتقام لموكبها أقواس النصر التي اقتطعت من أشجار الحرج وزينت بأزهار الأودية، فلماذا يترك الآن؟ ومن الذي سيعزل هذا الصديق الذي جاء إلى هنا وسلّم علينا ووقف على هذه الشرفة بالذات يلقي خطاباً فصيحاً بليغاً مسجّعاً محرِّكاً مضبوط المخارج مليئاً بمأثور القول، نثراً وشعراً، حتى لا تعود تعرف إن كان لدى الشيخ حقاً ما يقول أم أن الحفظ هو القائل والآخرون هم الخطاب.

شعر الجميع بشيء من الكدر الشخصي، فقد كان كل منهم يعتقد ان شيئاً من الألفة أو القربى قد قام مع رئيس الدولة عندما جاء إلى هنا ووقف على الشلال وتأمل تلك القمم وخدّرته رائحة الأودية، وخصوصاً السيدات اللاتي لوّحن له ونثرن على موكبه ورود الحدائق وأطلقن الزغاريد عند أقواس النصر، حيث توزعن، وفقاً لإستراتيجيات رئيس البلدية وتوصيات كاهن الرعية. حناجر حناجر، وأبياتاً أبياتاً، كتبها كلها، بكل فخر واعتزاز وعاطفة، شاعر واحد، لا تعرف القرية قيمة إبداعه إلا في هذه المناسبات القليلة، فهو باقي الوقت والشهور، بين الحقل والبيدر، يفلح الأرض أو يذر الحبوب، ولا وقت للصناعة الشعرية، النوم يأتي باكراً في القرى، وكذلك اليقظة، ولا يعود للشعر مكان، إنه ترف الحالمين وقصور المشردين.

كاد حضرة النائب ينهض مودّعاً، فبعد طبقة من العرق التي مسحها عن جبينه وطربوشه بدأ الليل يحمل معه طبقة من الندى البارد، واختفى القمر خلف غيمة طويلة عابرة طبعاً، وبيضاء بالتأكيد، فيما أخذ الضباب يتصاعد من الوادي دفعة بعد أخرى، مثل قطيع مهاجر، إلا أنه تريّث وأعاد طربوشه إلى مكانه، عندما وصل، متأخراً هذه المرة، «أخوت» القرية.

القرى تسمي المشردين والخاملين والكسالى، «مجانين»، و«جرجور» الذي أمضى العمر يغني مثل صرارات الحرج، وإنما في الشتاء أيضاً، يعتقد أنه العبقري الوحيد بين هؤلاء الرجال الذين يفيقون عند الفجر وينامون مع المغيب، يعملون في كل شيء، في الزيتون، في الصنوبر، في

القمح، في التفاح، في الخيار والقثاء والبندورة والبطاطا وفي مساكب النعناع والبقدونس وفي تجفيف التين واللوبياء واللحم والدهون وفي حفظ الجوز والزبيب والمشمش والخوخ وفي جمع الزيت والحطب والفحم وفي تربية دجاجة تبيض وبقرة تُحلَب وحَمل يُعلف وفي اقتناء حمار يساعد في الأحمال وكلب يردّ الثعالب العاوية من بعيد، وبندقية تصطاد الحجال والأرانب، زينة الموائد، إذا صدف ومرّت الرفوف وخرجت المخلوقات الجبانة من أوكارها، تخرّب مشهد العشب المتكامل، المغطى بالندى، المُختَرَق، هنا وهناك، بأعناق شقائق النعمان، وقد اشرأبت مثل زرافات حمراء في فسحة يخصّبها الربيع، فوق كل حبة تراب، فوق الحصى وعلى وجوه الصخور.

«جرجور» يعتقد أن هذا هو الجنون بعينه، هم يعملون ويشقون، وهو يمر على أبوابهم فيتصدّقون، هم ينامون مع المغيب وهو لا ينام إلا بعد أن يودع آخر شعاع قمري، هم يزرعون الأودية وهو يقطف أزهارها البرية وينتقل في عبيرها ويتأمل، ما شاء، مروج البنفسج والمارغريتا. هم يستقبلون الشمس يتأفف في الحقول لأنها تقصر نهارات العمل وتعرّقهم، وهو يستقبلها على باب كوخه. مدندناً، مصفراً، مرندحاً، متمتماً. لا مسؤولية الصباح ولا همّ المساء. لا أولاد ولا قطعان ولا أرزاق، لا إرث ولا وريث، لا شيء، لا شيء، سوى هذا السقف الذي يدلف في الشتاء ويتساقط ترابه في الصيف، ويغني «جرجور» يغني، هذا كل ما يفعل، لذلك سمّوه «الأخوت»، رجل بلا هدى، بلا هموم، بلا هواجس، بلا حساب، صرار آخر، يدور على

القرى والبيوت ويلقي التحية على الجميع، يحكي من يشاء ويتجاهل من يشاء، ويغني، ويسمونه «الأخوت»، ولا يكلفونه شيئاً أو مهمة سوى أن ينادي، في حزن أو فرح أو مأزق: هو الذي «يدبّ الصوت»، هو صيّاح القرية، هو الناعي، هو الميكروفون، هو الذي يجمع الزهر والزنبق البري في المآتم، وهو الوحيد القادر على عدم الخجل والاستحياء من نقل الأنباء القدرية والمحتمات إلى الآخرين، هو المهرج الذي يضحك منه الآخرون، حكى أم لم يحك، يكفي أن تذكر اسمه أمام أي كان: «جرجور»! فتنتشر في المكان كل المشاعر دفعة واحدة، بعضهم يسخر، بعضهم يخاف على نفسه أو على أولاده من مصير مثل مصيره، بعضهم يشفق، بعضهم يعطف، بعضهم يقسو، كل المشاعر دفعة واحدة، لكن «جرجور» لا يعرف ذلك طبعاً ولا يهمه أن يعرف، لقد رسم عالمه لنفسه من زمان وانتهى الأمر: «البيريه» الفرنسية التي لا تفارق رأسه المعرّى، وعيناه الزرقاوان اللتان لابد أن فيهما أثراً لاتينياً ما، من شعر فيرجيل؟ آه، ربما من شعر فيرجيل، ومن انسحابات روما القديمة، لكن لا دماً فرنسياً في «جرجور» بالتأكيد، فهو متقدم قليلاً على موعد الحملة الأولى مع الجنرال غورو، ولا دماً تركياً أيضاً، فالأتراك والانكشارية السلافيون لم يصلوا إلى هناك، لابد أنها بقايا روما، لابد أنها بقايا روما.

ضحك النائب لمجرد أن دخل «جرجور» وخلع «بيريته» احتراماً ثم لفّها لفاً ودسّها في جيبه، زيادة في الاحترام، وتبسم السيد النائب برضى واحد لهذه الحركة التي يؤديها «جرجور» كلما رآه، وبادره هو

أيضاً بإيماءة تقليدية، عندما تظاهر بأنه يتفقد جيب سترته الداخلي، بحيث يفهم «جرجور» من الإشارة التي تشبه ساعداً خفيفاً في رقصة باليه أن ثمة ما أعد له وأن عادات كرام القوم لا تغيرها الأحداث العظام، لا.

تطلع والد يمنى في «جرجور» مبتسماً في حنوٍّ واضح، وسأله:

ـ أين كنت طوال هذا النهار؟

وضحك «جرجور»، ضحك، تاركاً للحضور أن يحزروا أين يكون «جرجور» طوال النهار، وأحياناً كثيرة طوال الليل أيضاً، وفي أي قرية مجاورة، ومن هي المرأة التي يخفف من وحدتها ومن همومها النفسية أو أي همّ آخر، ضحك «جرجور»، فشعرت النسوة الحاضرات بالخجل وربتن بأصابعهن على «جزادينهن» في عصبية واضحة.

وعاد أبو يمنى يسأله:

ـ هل تعشيت؟

وشكر «جرجور»، لقد تعشى حيث كان، لكنه سوف يمرُّ على المطبخ في أي حال، عندما تنتهي السهرة.

تبدل جو الحزن قليلاً وظلت موجات الضباب تتصاعد من الوادي متلاحقة متسارعة. وأدرك «جرجور» أنه حضر لنفسه مكاناً مختلفاً فقرر أن يروي للمرة الأولى حكايته هو، مع رياض بك.

وقال النائب، «حكايتك، أنت يا جرجور؟ مع رياض بك؟». فأجاب «جرجور» وقد قرر الاعتزاز لمرة واحدة في عمره: «نعم، حكايتي أنا مع رياض بك، لقد ذهبت إليه مرة في صيدا وأوقفت موكبه في عرض الطريق وتقدمت منه وقلت: «دخيلك» يا رياض بك، «دخيلك»، متزوج ولي ثمانية أولاد، جميعهم عميان، كلهم عميان، وليس لدينا ما نأكل! وتوقف رياض بك وسألني: من أين أنت يا عم؟ قلت من هنا يا بك، وأشرت إلى المكان الذي أقف فيه، واغمضت عيني متصنعاً البكاء، فأشفق عليّ وقال: تعال غداً إلى المكتب، قلت: أي مكتب يا دولة الرئيس، ستة أولاد عميان بلا عشاء، فأشار إلى أحد مرافقيه وقال أعطه 200 ليرة، فأخذتها وحاولت أن أقبّل يده لكنه رفض وتطلع فيمن حوله، وقال ضاحكاً في صوت عال: لو كان لدينا الوقت أن ننتظر بعد لخفّض هذا الملعون عدد أولاده إلى ثلاثة ولأبصروا جميعاً النور، فضحكت معه وقبّلت يده وقبّلت المبلغ ومضيت».

وضحك الجميع، وهمّوا بالوقوف، وتطلعوا في والد يمنى فرأوه لا يزال جالساً، راسماً على وجهه الابتسامة الحانية التي أصبحت جزءاً من وجهه، مثل شاربيه، أو مثل تجاعيد الجبين، وقال سليم بك: «سوف أمرُّ بك غداً أبا يمنى»، وظلّ جالساً ويبتسم، وحار الجميع، هبّت زوجته من مكانها مثل لبوة واحتضنت رأسه بين يديها، وبكت، ثم التفتت إلى من حولها وقالت «لا توقظوا يمنى، لن نخبرها قبل الصباح»، ووضع سليم بك طربوشه فوق رأسه وانحنى، قائلاً في

احترام «هل أذهب لإحضار الطبيب»، فأجابت الأرملة الحديثة بكل حنوٍّ وكبر «لا داعي لذلك، كنت أعرف دائماً أنه يوم لا يجيبني لابدّ أن يكون قد عبر إلى عالم بعيد».



زوجة السفير النمساوي

نيسان 1956

الصوت في السلك الهاتفي قريب إلى النفس منذ زمن بعيد، لكنها لم ترَ صاحبه منذ زمن بعيد أيضاً. وكادت لا تعرفه وهو يبدأ الكلام معاتباً:

ـ يمنى، حتى أنت لا تعزّين وحدتي هذه الأيام!

وهتفت معتذرة:

☉ مَن؟ شيخ بشارة؟ يا إلهي كم أنا مقصّرة في حقك!

ـ يمنى، لقد نبت العشب على درج هذا البيت، لا أنا أخرج منه إلى مكان ولا أحد يدخل إليه. ولكن أنت، أنت اشتقت إليك. كلما وضعت الكتاب جانباً واستعدت السنوات الخوالي، تمرّين يا يمنى في هذا الشريط، جميلة، وديعة، قريبة إلى القلب.

لم يبق من هذا العمر كثير. ولم يعد لي أحد سوى رفوف هذه الكتب.

☉ أنا خجلى من نفسي، ولست أعرف ماذا أقول لك، لا اعتذار لي سوى أن أعرب عن أسفي، أنا خجولة يا شيخ بشارة، لكنها الأيام تمرّ بنا وتجرفنا والحياة تنتهي ونحن غارقون في التفاصيل، لم نرَ من نحب كفاية ولم نقل ما نريد ولم نأكل ما نشتهي، الحياة تجرفنا.

ـ كلما كبرت يا يمنى شعرت أن الإنسان ليس سوى حزمة من الاستسلام والتسويات، يوماً بعد آخر، أستسلم أكثر فأكثر، من قبل كنت أمضي الوقت في معاتبة النفس والآن أجد لها العذر بعد الآخر، وكنت أعاتب الناس والآن أجد لهم أعذاراً لا يجدونها لأنفسهم، ولست أدري إن كانت سنوات الوحدة قد علمتني كل هذه الحكمة أم أنها جرّدتني من كل قوة ومقاومة، لست أدري.

⊙ لم تكن الحكمة تنقصك في أي وقت، أما الوحدة التي اخترتها بملء إرادتك فقد ظلمت نفسك بها وظلمتنا، لم يعد أحد يراك، ولم نعد نعرف إن كانت زيارتك اعتداء على وحدتك أم تسلية لك.

ـ عزلة السياسي الخاسر يا يمنى ليست خياراً، إنها قرار يتماشى مع احترام النفس، إنني أدفع ثمن الضعف الذي أظهرته في الماضي بإظهار كل هذه القوة على النفس الآن، كم ندفع غالياً ثمن الاشتهاء، لو خرجت من الرئاسة من دون أن أطلب التجديد لكنت في طريق العودة إليها الآن، ولو أصغيت إلى شكاوى الناس من تجاوزات أشقائي لما كانوا الآن مثل المنبوذين، لو أن الحاكم يعدل مع الآخرين لعدل مع نفسه إلى الأبد.

⊙ الناس تفتقدك وتتندّم على أيام حكمك.

ـ الناس ضد ما هي فيه يا يمنى، وهي تندم على الماضي؛ لأن المستقبل مجهول ولا تستطيع أن تندم عليه، وأين هم الناس؟ أين ذهبت الجماهير؟ في أي أسرّة ينام المصفّقون؟

⊛ كفاك تواضعاً.

- إن لي طلباً لا أستطيع أن أطلبه من أحد سواك ولا أأتمن أحداً غيرك.

⊛ أنت تعرف أنك تأمر.

- منذ خرجت من قصر القنطاري إلى عزلتي هنا لم أذهب إلى أي مكان، لكنني الآن مضطر للقاء الرئيس كميل شمعون، ولا تسمح لي كرامتي أن أطلب موعداً منه، ومع هذا فهناك اضطرار شديد لأن أتحدّث إليه، هل تستطيعين أن تدبري اللقاء عندك؟

⊛ عندي؟ لا أعتقد ذلك، إنه لا يذهب إلا إلى بيوت أصدقائه، وأنت تعرف عناده.

- أعرف عناده، لكن صداقتك مع «زلفا» قد تنفع، أنا أعرف كميل جيداً، إنه يحب جميع النساء لكنه لا يأتمر إلا بأمر زلفا.

أغلقت السماعة وانفتح في خاطرها باب التساؤلات: لماذا يريد الشيخ اللقاء مع شمعون؟ هل يريد العودة إلى السياسة؟ هل يريد أن يفتح الباب أمام ولديه؟ وماذا يمكن أن تقول لصديقتها زلفا التي لم تحادثها منذ أشهر؟ هل تقول لها الحقيقة مباشرة ولو أضعف ذلك موقف الشيخ الضعيف أصلاً؟ هل تخترع ذريعة ما؟

صباح اليوم التالي كانت ترتشف فنجاناً من القهوة مع زلفا في قصر القنطاري، منذ أربع سنوات لم تدخل إلى القصر الذي عرفته طفلة وشابة وأماً، لكن بعكس ما كانت في الماضي، فهي الآن على

لائحة المبعدين لا على لائحة الضيوف، وحتى عندما طلبت الموعد مع زلفا لم تكن تعرف كيف سيكون الرد وهل سيكون هناك موعد أم لا، لكن الجواب جاءها بعد دقائق، إن الموعد في الغد.

كانت زلفا مثيرة للإجماع بقدر ما كان كميل شمعون مثيراً للجدل، وكان هو وسيماً بلا جدال، أما هي فكان جمالها سحر البساطة والطيبة، وكان هو قادراً على الحرب على كل الجبهات، أما هي فكانت قادرة على العمل على جبهة واحدة فقط، جبهة الرضى والارتضاء، وكان هو يعمل ويحلم بما سيعمل حتى بعد الرئاسة أو كيف يمدها إلى الأبد، أما هي فكانت تحلم بالتقاعد ويوم ترتاح من شريط النفوس البشرية الضعيفة الذي تراه أمامها كل يوم، لقد دخل زوجها إلى هذا القصر وهو لا يعرف سوى الأصدقاء وسوف يخرج منه بعد عامين وليس لديه سوى أعداء، السياسة مثل باب ألفرد دوموسيه: إما أعداء وإما خصوم، والباب إما أن يكون مغلقاً وإما مفتوحاً، كما في قصيدة المسيو دوموسيه.

تربط زلفا شمعون شعرها إلى الخلف على طريقة إيفا بيرون منذ أن قامت هي وزوجها بزيارة بوينس أيرس، وثمة شبه واضح في معالم الوجه وفي النحول وفي اللون، لكن المقارنة تتوقف هنا، فصوت زلفا كان يذوب حنيناً وليس قوة كصوت المذيعة الأرجنتينية السابقة، وزلفا تحب الفقراء وتعطف عليهم لكنها لا تقوى على رؤيتهم بعكس إيفيتا التي تخرج إلى الجماهير وتواجه جموعهم من على الشرفات، إلا أنها مذ عادت من الأرجنتين والناس تشبّهها بالمرأة التي سحرت الأرجنتين ولا تزال.

لم يخطر لزلفا شمعون أن تسأل يمنى ما الذي يحملها إلى هذا القصر بعد طول غياب، وعندما سألتها على الهاتف إن كان في الإمكان أن تتناول معها فنجاناً من القهوة، لم يخيل إليها لحظة أنه يمكن أن يكون هناك ما هو أبعد من القهوة بين صديقتين كانتا تتقابلان في الماضي على الدوام، ثم لم تعودا تتقابلان مطلقاً.

بدت زلفا في فستانها البسيط، الكحلي المنقط بالأبيض، وكأنها مديرة القصر لا سيدته، وكانت كأنما تحرص على أن تترك للزائرين فرصة الحضور المتفوق، لكن كان من الصعب لبساطتها أن تهزم، ولم ترد يمنى للغموض أن يطول أمام هذه السيدة الطيبة:

◈ زلفا، جئت أطلب مساعدتك، وقبل أي شيء أطلب أمانتك، الشيخ بشارة يريد رؤية كميل لأمر مهم لم يطلعني عليه، لكنه لا يريد أن يأتي إلى هنا لأسباب تدركينها أكثر مني، فهو لا يعتبر أن هذا البيت ملك للجمهورية بل ملك خاص له ولا يطيق أن يعود إليه زائراً، وقد اقترح لقاء في منزلي، لكني لا أعتقد أن كميل سوف يقبل ذلك، ماذا تقترحين؟

فكرت زلفا قليلاً، ثم قالت:

ـ هل تعرفين جورج أبو عضل؟

◈ لا، سمعت عنه فقط.

- إنه أحد أصدقاء كميل الجدد، وهو «منطقة محايدة» مناسبة جداً، فهو لم يدخل السياسة بعد وإن كان يكتفي بالإغداق على السياسيين! لست أدري ماذا يغري الناس بهذا الجحيم، شاب من أنجح شباب لبنان اليوم يملك تقريباً كل شيء، ومع ذلك يحلم بمقعد نيابي صغير في حين يحلم جميع النواب بمقعد صغير في إمارته الاقتصادية.

قالت يمنى:

☸ لكننا لا نعرف الرجل، ولا يليق بي أن أطلب منه دعوة الشيخ بشارة.

- اتركي الأمر لي، دعيني أتدبر الأمور، لا شيء يسعدني مثل رؤية الشيخ بشارة وكميل معاً، لعنة الله على السياسة.

امتعض كميل شمعون عندما قال له جورج أبو عضل: إنه سوف يدعو الشيخ بشارة إلى الغداء في مزرعته ظهر الأحد، وقال متأففاً: «منذ متى صداقتك مع الشيخ بشارة؟».

وردّ أبو عضل قائلاً: «أصدقاؤك أصدقائي، فخامة الرئيس، وفي أي حال الشيخ بشارة سوف يخرج من عزلته من أجل أن يراك لا من أجل أن يتعرّف إليّ».

رتّب أبو عضل اللقاء في مزرعته في غابة بولونيا بتنفيذ دقيق لنصائح زلفا شمعون، لم يدعُ أحداً إلى «الغداء المفتوح» كل أحد، سوى زلفا وكميل، يمنى والشيخ، واتصل بجميع أصدقائه الذين يحتمل أن

يجيئوا إلى غابة بولونيا ليدعوهم إلى غداء على يخته، سوف يتخلف هو عنه من أجل التضليل.

شعر الشيخ بشارة بالحزن في الطريق بين ساحل الكسليك، في منفاه على البحر، وبين غابة الصنوبر في ضهور الشوير، وحيث توقفت السيارة أو ازدحم السير قليلاً لم يتعرف إليه أحد، ولم ينتبه أحد إلى قبعته، كان همه أن يتخفى لكي لا يدري أحد بالرحلة أو بالخروج الأول من العزلة، لكن أصبح همّه الآن أن يتعرف أحد إلى ملامحه التي كانت تملك جدران المكاتب وحيطان المباني ومداخل الساحات، لكن أحداً لم ينتبه إلى القبعة الرمادية، والفضول الوحيد أثارته السيدة الجالسة إلى اليمين، بقبعتها الصغيرة هذه المرة، التي تكاد لا تزيد عن عروة من الورد، وبلونها الذي تغير إلى الأبيض، وقد غاب البني والأزرق عنها، وحلّت بدلاً من ذلك ثلاث حبات من الكرز الداكن.

تعزّى الشيخ بشارة قليلاً بالاستقبال الذي أعدّه له أبو عضل، الذي لم يكن قد رأى ضيفيه من قبل، وتقدمت الطاهية «هند» التي كانت تعمل في القصر لتصافح الرئيس السابق بيديها الاثنتين وتسأله إن كان «قد عرفها»، وسألها الشيخ مازحاً: «هل تعدّين القريدس الجيّد حتى الآن؟»، فارتجّت هند من الفرح، وأجابت أنها أعدت شيئاً منه لضيوف اليوم، ثم قالت بفرح غالب: «لكنني لم أكن أعرف أن فخامتك ستشرفنا هذا النهار»، لكن هند سوف تزداد ارتباكاً بعد قليل، عندما تكتشف أن رئيسين قد حضرا إلى تناول الغداء، ليس على المائدة الرئيسة في الحديقة الواسعة، بل في ظل السنديانة الكبرى عند

طرفها، وقد حذرت المضيف بلهجتها الشمالية الآمرة من «أن أشعة الشمس تدرك دائرة السنديانة باكراً» وهي لا تريد أن يلحق أي أذى بالرئيس الشيخ: «يا تعتيري إذا صرلوا شي، يا ذلّك يا هند إذا الشيخ تعوّر»، وقد حل المضيف مشكلة ضربة الشمس بنقل المظلة البيضاء من جانب المسبح إلى جانب الرئيسين تحت السنديانة الكبرى.

على مسافة صغيرة أقيمت طاولة أخرى، ضمّت المضيف وزوجته والسيدة التي تعتمر قبعة بثلاث كرزات.

بدأ الشيخ بشارة الحديث مع الرئيس بشيء من الجفاف والأبوة معاً:

ـ أعرف أنه خطرت لك تساؤلات كثيرة حول هذا اللقاء، لكنني أعرف أيضاً أنه لن يخطر لك أبداً الموضوع الذي من أجله طلبت الاجتماع، دعني أقل لك يا فخامة الرئيس إنه لم تعد لي أي طموحات سياسية على الإطلاق، لقد ضعفت همتي في أي حال، والدنيا تتغير، ولم يبق من الكتلة الدستورية أحد.

رد كميل شمعون، بشيء من السخرية:

ـ إذن ما الذي يشغل بال الشيخ بشارة هذه الأيام؟

ـ أنت.

وازداد إيقاع السخرية في لهجة الرئيس:

ـ أنا؟ لا يكن لك بال يا عزيزي الشيخ، أعصاب كالفولاذ وقلب كالحديد.

ـ هذا تماماً ما يقلقني يا فخامة الرئيس.

ـ أعتقد أن عليّ أن انتظر قليلاً، لكي توضح ما لديك.

ـ صحيح أنني في عزلة كاملة منذ مجيئك، وصحيح أنني لا أقابل أحداً ولا أحد يقابلني هذه الأيام، فأنا على مسافة 20 كيلو متراً من بيروت لكنها في الحقيقة أبعد من 20 عاماً، لكن لي في هذه الأرض ثلاثة أرباع القرن، إنني أعرف هذا البلد جيداً يا كميل، ولدي شعور أن هذه الأرض تتشقق.

ـ اعتقد أن شعورك خاطئ يا فخامة الرئيس، انا اعرف هذه الأرض منذ 56 عاماً، وللمناسبة فاليوم ذكرى ولادتي، لا أدري ما الذي يخيفك، ما الذي حدث لأعصابك.

ـ تخيفني هذه الثقة بالنفس، كثرة الشجاعة مثل قلّتها، إنها تحول بيننا وبين مشاعر الناس ومواقفها.

ـ اطمئن، التقارير تصلني كل يوم وأنا لست بعيداً عن العالم.

ـ التقارير اعرفها جيداً يا فخامة الرئيس، إنها تجزّئ لك الحقيقة وتقدم إليك الأشياء الصغيرة، لكن السواقي هي التي تشكل النهر، ويجب أن تحذر.

ـ لم أفهم إلى الآن، ماذا تريدني أن أحذر؟

ـ إنك تدفع البلد غرباً أكثر مما يحتمل.

- وإلى أين تريدني أن أدفعها؟ إلى أحضان الشيوعية؟ ألا ترى هذا الخطر الأحمر القادم إلينا من كل الاتجاهات؟ هناك طريق واحد للازدهار هي طريق الغرب وأنا لن أكتفي بما حققت للبلد من تقدم حتى الآن.

- ما نفع الازدهار إذا لم نحافظ عليه؟

- ما عليك، أنا أعرف تماماً كيف أحافظ عليه. ولا تلقِ بالاً إلى ما يقوله الرعاع.

- أنا لا أتحدث عما يقوله الرعاع، المنطقة تغلي يا كميل، وهي تقف على حافة الحرب، لدي شعور بأن جمال عبد الناصر سوف يحارب في السويس.

- سوف يخسر ويحرق مصر ويحرقنا معها.

- أحياناً ينتصر الخاسرون، عبد الناصر يجابه دولاً إمبراطورية لم يعد لها مكان في هذه المنطقة منذ الحرب الأولى وليس من الآن، الشعوب لا تعرف منطق الموازين ولا يحركها سوى نار المشاعر وبراكين العاطفة.

- لست مستعداً للتنازل أمام الغوغاء.

- ليس من حقك أن تخرج البلد من موقعه الوسطي، نحن جمهورية يافعة ولدت في مرحلة بركانية، ونحن بلد معرض للانقسام في سهولة، ليس من الممكن أن نقف ضد مصر.

ـ أنا لا أقف ضد مصر، أنا أقف مع المشاريع التي تنشر الازدهار والعلم، مع الذين يحفرون آبار المياه ويقيمون البنوك، أنا بلد صغير ولست مصر، فلتفعل مصر ما تشاء وتتركني أفعل ما أشاء، وأنا في غنى عنها في أي حال، بغداد معي، عمان معي، لندن معي، واشنطن معي.

ـ هل البسطة الفوقا معك؟ هل صيدا معك؟ أنا أيضاً أقول فلتفعل مصر ما تشاء، ولكن مصر ليست في مصر فقط، إنها أيضاً هنا في بيروت.

ـ دعك من سياسة الاسترضاء يا شيخ، إنها لا تؤدي إلا إلى الخراب، لم يخلق هتلر سوى سياسة الاسترضاء، ولو لم تحاول إيطاليا استرضاء موسوليني لظل مجرد صحافي يبتز الأغنياء، دع البلد لي، أنا أعرف جيداً ماذا ينبغي أن نفعل.

ـ لقد طلبت هذا اللقاء بالضبط من أجل أن أقول لك إن البلد ليس لك، لقد حدث سقوطي عندما اعتقدت أن البلد لي، وعندما أدركت أنه لي ولغيري كان الأوان قد فات.

ـ شد حيلك، فخامة الرئيس.

ـ المسألة ليست بهذه البساطة يا صاحب الفخامة، لقد جاء قائد الجيش لزيارتي قبل أيام وأطلعني...

ـ قبل أن تقول لي على ماذا أطلعك قائد الجيش دعني أقول لك إن فؤاد شهاب عدوّي، إنه يدعي العفة ويعمل للوصول إلى الرئاسة ليل نهار.

ـ لكنه أيضاً قائد الجيش، وقد قال لي إن لا شأن له في أن يطلعك على الغليان الراكد في البلد، لكن المسألة خطيرة، والتيار الناصري يشتد، وعبد الناصر يرى في بيروت ساحته الإعلامية الأولى، إنها مهمة له مثل الساحة المصرية، لأنها تعطي الانطباع بأن العرب كلهم معه، وصحف مصر تنقل كل يوم ما تقوله صحف بيروت لكي تترك الانطباع بأن الصحافة العربية هي التي تتحدث.

ـ مهمتي ليست أن أقدم لعبد الناصر ما يريد، مهمتي أن أبحث عن مصلحة بلدي.

ـ مصلحة بلدك أن يكون داخل السرب، على صح أم على خطأ.

ـ عن أي سرب تتحدث يا شيخ بشارة؟ العرب أعراب كثيرون وعروبات كثيرة.

ـ هذه مواقف الدول لا الشعوب، الناس مشاعرها ضد الحكم الأجنبي، ضد الامتيازات الغربية، ضد كل ما يذكّرها بأن حريتها لم تكتمل وأنها لم تدرك بعد سن البلوغ، لا تنسَ أننا لم نخرج بعد من تحت القبعات الأجنبية، إنها في كل مكان، مَشرقاً ومَغرباً، والناس أيضاً تتململ في كل مكان، في المشرق وفي المغرب، ولا نستطيع نحن أن نبقى في معزل عن كل ذلك لمجرد أننا نلنا استقلالنا منذ سنوات، الاستقلال غير الحرية يا فخامة الرئيس.

ـ إنني أشكر معرفتك يا صاحب الفخامة، لكنني لم أفهم بعد ماذا تريد مني على وجه الضبط، فإن كنت تنصحني بسياسة معادية للغرب فهذا أمر لن يحدث أبداً، وإذا كنت تريد مني الانضمام إلى سياسة عدم الانحياز التي يتزعمها عبد الناصر فأنا منحاز للازدهار، لا للفقر، ولا للصين، ولا لنهرو، لقد كان ماضي هذا البلد في الانفتاح على المتوسط وسيظل مستقبله في المتوسط، فليذهب المصريون إلى بلغراد ودلهي وجاكرتا، أنا ذاهب إلى نيويورك وباريس ولندن.

ـ ألم تكن انت تُسمّى قبل عشر سنوات في نيويورك «فتى العروبة الأغر»؟ هل تريد الآن أن تدير ظهرك إلى ماضيك؟

ـ انا أريد أن أدير وجهي إلى المستقبل، لقد خلقني الله في هذه البقعة من أجل أن أبحر غرباً، منذ أن أبحر اللبناني الأول أيام فينيقيا إلى الآن. لا أريد أن أغيّر هذا الطريق بسبب مغامر يريد أن يخوض الحرب ضد أقوى دولتين في العالم.

ـ لا تعود هناك دول قوية يا كميل عندما تكون هناك شعوب قوية، انظر ماذا حدث للفرنسيين في الهند الصينية، انظر ماذا حدث للتاج في الهند، لقد بدأ في العالم تيار لن يعود إلى الوراء، وهناك تواطؤ غير معلن بين الأميركيين والروس برغم ما بينهما من عداء، كلاهما يريد الخلاص من العصر الإمبراطوري، وإذا

ما خاض عبد الناصر الحرب غداً، فإن واشنطن وموسكو ستقفان معه ضد الإنكليز والفرنسيين، كل لأهدافها وأغراضها ومصالحها ورؤيتها للوضع السياسي في هذا العالم.

- إنك تقرأ في الكتب أكثر مما يحتمل الإنسان يا فخامة الرئيس، حاول أن تبقى في الواقع قليلاً، وما عليك مما تسمعه في الإذاعات، فأصحاب الحناجر القوية يعرفون أن الراتب يرتفع مع ارتفاع الصوت!

- كنت أعرف سلفاً مدى عنادك فخامة الرئيس، لكنه موقف أردت أن أبلغه بنفسي، لأنه لا يحتمل أن ينقله وسيط.

- لم تقل لي شيئاً عن السياسة المحلية، هل أنت متنسّك إلى هذا الحد؟

- ليست لدينا سياسة محلية يا كميل، أنت تعرف ذلك أكثر مني، نحن بلد في عين العاصفة وعيون الدول علينا، الشيوعيون بدؤوا يطلُّون برؤوسهم دون خوف، والسفير الروسي يتنقل كما كان يتنقل قنصل القيصر، والسفارة الأميركية توسع دوائرها بعدما كانت مجرد قنصلية كبرى، والفرنسيون متعثرون بردائهم الطويل وعثراتهم الماضية، والإنكليز يتحسرون على اليوم الذي طلبوا فيه مساعدة أميركا في الحرب، إنها الآن تحل محل الإمبراطورية في كل مكان، هذا هو التاريخ، ينسخ نفسه في الدول الصغيرة وفي الدول الكبيرة على السواء، تنتقل الإمبراطوريات من مكان

إلى مكان ولا يتّعظ أحد من أحد. الأمثولة تبقى أمثولة لنفسها ولا تعلم أحداً. لكننا دولة صغيرة سريعة العطب يا فخامة الرئيس، وأرجو أن تصغي إليَّ. أنا الآن عائد إلى عزلتي في الكسليك، أما أنت فباق في قصر الحكم، والقرار بين يديك. إنما أتمنّى أن تصغي إليَّ.

ـ يا فخامة الرئيس أنا ممتن لك كل هذا العناء، وممتن لك مشورتك، لكن الدنيا لم تعد كما تراها. لا يغرنّك كثيراً ما ترى. فالحقيقة ليست دائماً ما نرى. وفي الإمكان أن نغير الحقائق كما نشاء لا كما يشاء لنا ولها. وما تسميه عناداً هو صمود في وجه التحولات. لا يمكن أن نتحول مع كل ريح تهب، فالرياح لا بقاء لها. غداً تهب ريح أخرى وينتهي الأمر. لماذا مسموح لعبد الناصر أن يسايس اميركا وليس ذلك مسموحاً لي؟ لماذا له الحق في اختيار صداقاته كما يشاء وأنا عليَّ أن أقبل بالصداقات التي يختارها هو؟ هل من أجل ذلك قاتلت أنت وأنا من أجل الاستقلال؟ من أجل أن نبدل سلطة بسلطة؟

ـ لا استقلال في الفراغ، لكي يكون استقلالنا حقيقياً يجب أن نبني دولة حقيقية. أنا لا أبحث عن استبدال سلطة بأخرى. أنا أبحث عن تجنب مشكلة وأخرى، أكرر لك أن وحدتنا سريعة العطب فلا تغامر بها يا فخامة الرئيس.

ـ لا أستطيع أن أبني سياستي في الداخل والخارج على أساس أن كل شيء سريع العطب، الدول الصغيرة تبقى سريعة العطب إلى الأبد، ولا أستطيع أن أقبل تحريض عبد الناصر للزعماء السياسيين ضد القصر، أنا رئيس الجمهورية، لا هو.

ـ فخامة الرئيس، لا يجوز الخلط بين الكرامة الشخصية والكرامة الوطنية، المبارزة حق الأفراد لا حق الدول، الأمم لا تعيش إلا بالتسويات، لا يعني ذلك أن تعيش بلا كرامة أو أن تحيا بلا حرية، ولكن لا الكرامة نقيضة الحكمة ولا الحرية نقيضها.

ـ أكرر شكري لعنائك فخامة الرئيس، وسوف أُطلعك على الأمور بقدر المستطاع، أما الآن فإن الشمس تكاد تحرق قبعتك وعنقي، وأنا أقترح أن نتناول القهوة على طاولة مضيفنا.

كانت الساعة قد قاربت الثالثة وفيء السنديانة الوارفة ينسحب نحو الجهة المعاكسة، وبدت المعالم الوسيمة في وجه كميل شمعون غاضبة بوضوح فيما مالت تجاعيد الشيخ بشارة إلى الاستسلام، لكن باحتراف السياسيين تظاهرا وهما يتنقلان إلى الطاولة الأخرى أن اللقاء انتهى على اتفاق وليس على المزيد من الافتراق في كل شيء، من العلاقة الشخصية إلى العلاقة السياسية.

تظاهر المضيف هو أيضاً بأن اللقاء الذي جرى في حديقته لم يكن على جانب كبير من الأهمية، وفيما جاءت هند نفسها بالقهوة، لكي تؤكد ماذا يعني لها حضور الشيخ بشارة، كان أبو عضل يحدّث

الرئيسين في مسألة لم يستوعبا حجمها تماماً: النفط! وقال لهما إن عبد الناصر يدرك ما يعرفه الإنكليز والفرنسيون معاً، وهو أنه إذا اضطرت قناة السويس إلى خوض الحرب فلن تخوضها وحيدة هذه المرة، إنها بوابة النفط العربي إلى الغرب، وليس هناك من يحتمل انقطاعه، وفيما يكمل عرض قراءاته الأخيرة عادت هند من الداخل ملتاعة الملامح، وقالت: هاتف لفخامة الرئيس.

وقام كميل شمعون إلى الدار بهدوء شديد فيما شعر الجميع بالقلق، وعاد بعد دقيقتين لكي يستأذن، لا لكي يكمل قهوته، معلناً للحضور: إن حبيب أبو شهلا قد وجد ميتاً في شقته الخاصة في مثلث القصور، ما بين القنطاري ومدام كوري.

وشعرت يمنى بحزن شديد، كم كان حضور ذلك الذئب جميلاً.

وسألت الرئيس:

⊛ كيف كان موته؟

قال:

ـ لا يعرفون تماماً إلى الآن، لقد اتصلت بالمستشفى الحكومي سيدة أجنبية ذات لكنة نمساوية وقالت إنه مصاب بنوبة قلبية، وتركته في الشقة لكنه فارق الحياة قبل وصول الإسعاف.

وقال كميل شمعون بين الأسف والمزاح:

ـ لقد مات حبيب كما عاش.

رحلة ملكية

16 تموز 1957

أبحرت «اسبيريا» من ميناء بيروت مع انتصاف النهار، وأطلقت أبواقها ودخانها كما لو أنها «بيغ بين» بحرية، فيما أخذت تنسحب ببطء بعيداً عن الرصيف وتلفُّ حبالها خلفها على عجل، وأسرعت يمنى تصعد إلى الدفة لكي تلوّح لوحيدتها وترسل إليها آخر القبلات الهوائية وآخر التوصيات: «لا تدعي الأطفال يكثرون من البوظة، قبّلي يارا عني، قبّلي رؤى، قبّلي طارق».

وضاع صوتها مع صفير «الاسبيريا»، ثم صغرت أحجام المودّعين على الرصيف ولم يعد يبين من بيروت سوى بيوتها وسطوحها القرميدية، وحاولت أن تتبين شرفتها التي منها تلقي التحية على هذا البحر كل يوم، لكن الشرفات تخالطت كما تتخالط في لوحة أو كما تتداخل البيوت في أحياء الأندلس القديمة.

لفحتها نسمة حارة مليئة برذاذ الملح، لكنها لم ترد أن تنزل منذ الآن إلى جناحها على السفينة، وبقيت في الشمس تتأمل الجبل الأخضر خلفها يبتعد ويصغر، شيئاً فشيئاً، حتى لم يعد سوى بقعة خضراء خلف هذا المدى الأزرق، الذي يبدأ في الميناء القديم ولا يعود ينتهي في مكان، أصبح كل ما تحب خلفها الآن، التلال وبيوت القرميد القديمة والشرفات، وعالم الازدحام الصغير الذي تمرُّ به أو يمرُّ بها كل يوم.

فقط عندما نزلت إلى جناحها وخلعت قبعتها البنية ورمتها على السرير العريض وبدأت في فتح حقيبتها، تذكرت أنه في مثل هذا اليوم قبل ست سنوات قتل رياض، لم يخطر لها ذلك وهي تقبل الدعوة إلى حفلة «الأسرة البيضاء» في موناكو، هي والأصدقاء والصديقات «والفرقة كلها».

تهادت «الاسبيريا» بكسل فوق المياه الزرقاء، وسرعان ما حلّ الغروب الذي تبتعد ألوانه الليلكية كلما خيّل إليك أنك تقترب منها، أو تمشي صوبها على ظهر هذه السفينة التي أنزلت إلى المتوسط قبل أشهر مثل حورية تزف إلى البحر بدل أن تزف إلى اليابسة، وفي المساء تجمعت «الفرقة» كلها إلى مائدة القبطان مانويللو، بدعوة خاصة منه، فقد أبلغ قبل أسبوعين أن «الكريما» اللبنانية تجمع نفسها لكي تبحر إلى مرسيليا، ميناء باخرته الأخير، وقبل أسبوعين أمر فوراً بأن يهيأ كل شيء ملكي لهذه الزمرة الخاصة من الركاب.

كانت الأجنحة الفخمة في البواخر الإيطالية والفرنسية التي تبدأ رحلتها من بيروت، تخصص عادة للركاب الذين يصعدون السلالم في الإسكندرية، لكن بعد الثورة المصرية بدأ أعداد ركاب الإسكندرية ينخفض شيئاً فشيئاً، إنهم اللبنانيون الآن، والمصريون «السابقون» الذين غادروا موجة التأميم، يملؤون الأجنحة ومقصورات الدرجة الأولى، ولابدّ لكل قبطان من أن يقيم العشاء الأول تكريماً لهم.

أصبحت «الاسبيريا» الآن في عرض المتوسط، الليل من حولها كالبحر من حول اليابسة، الريح تلاطفها وتكاد لا تلامسها، والمياه تهمس إلى جنباتها العالية ما تهمس به المياه عندما تكون هادئة عاشقة مستسلمة لضوء القمر الذي أضاء السطح الأزرق سطراً سطراً، كأنه يكتب شعره فوق هذا المدى، كما يكتبه فوق الأودية ورؤوس الصنوبر، وظل السكون يتغلب على كل شيء إلى أن وصلت "الفرقة" دفعة واحدة إلى قاعة الطعام الذهبية، وأخذت الفرقة الموسيقية تعزف النشيد اللبناني وكأنها تعزف «الكومبارسيتا» أو الفالس النمساوي، ببطء وحداء، ووقف القبطان مانويللو بثيابه البحرية البيضاء، قبعته في يده اليسرى، وصدره مليء بالأوسمة، الصحيح منها وضرورات الزينة، وراح يصافح الضيوف بلغة فرنسية مضحكة وجذابة معاً، كما راح يُقبّل طبعاً أيدي السيدات بطريقة مسرحية، مضحكة وجذابة هي أيضاً، كأنه يقدم عرضاً أو يعطي درساً في أناقة القواعد وفخامة الرغد، وكانت يمنى آخر من وصل، فهي السيدة الوحيدة غير المرافقة، وبعدما طبع مانويللو قبلته على يدها.

كانت مائدة ملكية حقاً، بل كانت عرضاً لفساتين السهرة القادمة من بيروت، يسبق السهرة الكبرى في موناكو، وبدت «مائدة القبطان» ذلك المساء مثل مسابقة متعددة الجوائز: الجمال والأناقة والجواهر، ولم يعد المضيف الإيطالي يعرف إن كانت بيروت تستورد الأناقة والأبهة من باريس أم تصدّرها، وقد أراد في البداية أن يظهر تفوقه

منذ اللحظة الأولى على ضيوفه، لكن صوت الأساور ترتطم في السواعد الجميلة ولمعان الماس المعلق في الصدور وارتخاء الأهداب الفاحمة، جعلته يشعر بشيء من الهزيمة الممتعة، كانت حقاً هزيمة ممتعة وسط هذه الغابة من الأهداب.

أفاقت يمنى في العاشرة من صباح اليوم التالي وتطلعت من النافذة المستديرة فرأت السفينة راسية في ميناء الإسكندرية، وسمعت أصوات طيور النورس تصيح في كل اتجاه، وتذكرت أن لها في الإسكندرية أصدقاء كثيرين، لكن الوقت لن يسمح بالنزول، وفضلت أن تصعد إلى سطح الباخرة لكي تستعيد ذكريات الإسكندرية من بعيد، كم هي كثيرة ذكريات الإسكندرية، عشر سنوات من عمرها أمضتها في هذه المدينة الصغيرة التي لا تبعد عن بيروت أكثر من غيبة قمر أو مشرق شمس، عشر سنوات هي سنوات الذاكرة والخصب: ما بين العاشرة والعشرين، لكنها كم تبدو بعيدة الآن وهي تتطلع إليها من هذا الميناء الذي عرفته في كل الفصول، أبحرت منه وعادت إليه في الشتاء وفي الربيع وفي الصيف، وكلما حنّت إلى أمها أو حنّ والدها إلى أسبوع في بيروت أو صيف في الجبل، لقد قسّمت ذكرى مراهقتها بالتساوي، بين مدينتين على شاطئ المتوسط، ولم تعد تعرف في مرحلة أيهما مدينتها الحقيقية ولم تعد تميز في مرحلة أخرى أيهما أحب إليها ولم تعد تعرف إن كان سيكون في إمكانها أن تعيش طوال عمرها بين مدينتين عندما تكبر وتتزوج وتخرج من عالم الأهل إلى عالم التأهل.

أحبت الإسكندرية وهي بعدُ في عمر يحب الإنسان كل ما حوله، كل ما يلمس، يحب الناس والأشياء والأمكنة ويظن أنها سوف تدوم له ويدوم لها، يحب العصافير والطيور والحجارة والمقاعد والرفاق، وكل شيء في عالمه، ويخيل إليه أن هذا العالم سوف يرافقه في رحلة العمر. لكن الرفاق يبدؤون بالتفرّق من حوله شيئاً فشيئاً، الرفاق والحجارة والطيور والأنسام والأماكن، والسنون، كل شيء يتحول إلى أمس وحنين وضباب.

تأملت الإسكندرية من بعيد كأنها تتأمل في مرآة متكسرة، وشعرت أن هذه المدينة التي كانت ذات يوم نصف حياتها، كما هو الليل أو النهار نصف الشمس أو القمر، أصبحت الآن مدينة غريبة، ها هي تقف على أبوابها لكنها تخشى الدخول، لم تعد تعرف مَنْ من عالمها بقي ومن ذهب ومن تفرق ومن غاب، ولم تعد تذكر من أسماء الشوارع سوى القليل، ولم يبق في ذاكرتها من كل حدائق الإسكندرية سوى شجرة الكستناء أمام المنزل، وأيضاً الشجرة الصغيرة إلى جانبها.

وإذ هي راحلة في الاستعادات اقترب منها ضابط السفينة ورفع قبعته:

ـ هل تفكر سيدتي في زيارة المدينة؟ إننا سنمضي خمس ساعات أخرى قبل الإقلاع!

وشكرته يمنى، إلا أنه حذّرها بلطف:

ـ لن يكون برٌ بعد الآن قبل نوبليا، في اليونان، وفي إمكانك أن تستقلّي عربة خيل في الميناء تجول بك في المدينة، أنت ومن تشائين من مجموعتكم.

فقدت مقاومتها أمام فكرة التجول في الإسكندرية بعد أربعة عقود، وتخيلت نفسها فجأة تقف أمام منزلها في «زيزينيا» وتغمر شجرة الكستناء، لكنها لا تريد لأحد أن يشهدها في لحظات ضعفها وهي تجول في ماضيها من جديد، ولمعت الفكرة فوراً، فتطلعت في الضابط سائلة:

⊙ هل يمكن لك أنت مرافقتي؟

واعتذر الضابط لأنه في الخدمة، لكن لديه اقتراح أفضل، سوف يطلب ذلك من مساعدته، روزا، «إنها أيضاً تعرف الإسكندرية شارعاً شارعاً وسوقاً سوقاً، ولن يكون في إمكان تجار الذهب خداعها».

وطئت أرضاً لها علاقة بجسمها، بالكهرباء التي في عروقها، فشعرت بشيء من قشعريرة غريبة، وقبل أن يرفع العربجي سوطه لكي يضرب الحصان الهرم الدامع العينين أبداً من كثرة العمر والوقوف والأسواط، نادته يمنى قائلة:

⊙ بلاش البلد يا أسطى، خذنا لو سمحت إلى «زيزينيا».

كانت شوراع الإسكندرية شبه فارغة، في حر تموز، وكان العربجي يرفع السوط ويهوي به بشكل آلي، وكأنه يضربها به، وأخيراً نهرته الضابطة روزا وهددته إن هو استمر في ذلك، فتوقف

قليلاً، ثم عاد، كأنه ساعة جدار كانت متوقفة وأصلحت، وبدت يمنى وروزا بثوبها البحري الأبيض وهما تستظلان جلد العربة العتيق، كأنهما في فيلم سينمائي يصور وسط مدينة مهجورة، فالناس هاربة من الحر إلى الظل.

وهما تخوضان غمار الرطوبة والشمس في عربة خيل نصف مكشوفة لا يكف سائقها عن ضرب حصانه، مثل لازمة في أغنية طويلة، كلما قطع مسافة رفع سوطه وهوى به على كتفيه، أو على عنقه الذي زيّنه بكل أنواع الجلود والحياكات و«الشراريب» الملونة، حتى بدا مثل حصان عامل في السيرك لا في الميناء.

بعد ثلاثة أو أربعة أميال، رأت يمنى فجأة فوجاً كبيراً من السياح يرافقهم رجال شرطة، وانحنت روزا على أذنها وقالت هامسة: «روس»! وما إن تقدمت العربة قليلاً حتى أضافت بصوت أعلى: «ألم تري الباخرة أوديسا في الميناء؟ إنها أكبر البواخر الراسية هناك».

وسألتها يمنى، لماذا تتحدث همساً، فضحكت روزا:

- هذه هي القاعدة مع الروس، كل شيء سرّي حتى البواخر المدنية في الميناء، حتى السياح، حتى الجميلات اللواتي مررن بهن الآن، لذلك تعلمنا في ميناء الإسكندرية أمرين: ألا نلتقط الصور وأن نتحدث همساً كلما كان الأمر يتعلق بالروس، إنهم يملؤون المدينة ولا يريدون أحداً أن يعرف أنهم هنا.

لم تُعر يمنى الأمر الكثير من الاهتمام، ولم تعرف، في أي حال، عما تتحدث روزا، وسألت العربجي وهو يهوي بسوطه على عنق الكائن الذي يوفر له الرغيف:

- فاضل كثير يا أسطى عشان نوصل؟

- خطوتين يا هانم.

وراح يكثر من ضربات السوط:

- امشِ يا بجم، امشِ يا بلبل، امشِ يا دبدب.

عرفت يمنى المنزل من بعيد، السور الأبيض الواسع، البوابة الحديدية العريضة التي أصبح لونها بلون الصدأ، النوافذ المطرزة بالجص الذي تساقط الآن، بيت الحارس الملاصق، وأين شجرة الكستناء التي كانت أول ما يطالع القادمين؟ وأين الشجرة الكستنائية الصغيرة إلى جانبها؟

لم تعد هناك شجرة كستناء، وكانت البوابة الحديدية مفتوحة نصف فتحة كأنما نسي صاحبها أن يغلقها منذ زمن بعيد، أو كأن الأمر ليس مهماً.

لم يكن يغامر في تحدي حرّ الظهيرة سوى بعض الأطفال، الذين ما إن رأوا العربة تقترب حتى هرعوا نحوها بفضول وتقدم أحدهم بجلابيته الرمادية وقلنسوته ووجّه كلامه إلى العربجي:

ـ طلاينة؟

وقال العربجي كأن أمر السيدتين لا يعنيه:

ـ ما اعرفش، يمكن «إغريك»، بس بيتكلموا عربي.

وتطلع الولد في يمنى، ورأى العرق يتصبب من كل دائرة في قبعتها البنية الواسعة، فسألها بيت مَن تريد؟

قالت يمنى:

۞ هل هذا البيت مأهول؟

لا يا ستي، البيت الصغير اللي جنبو كان لسه في ناس لغاية ثلاث أربع سنين، البواب وعائلتو، البواب مات ومراتو ماتت وأولادو خشّوا الجيش.

۞ والبيت الكبير؟

ـ البيت الكبير كان لجماعة لبنانيين وسابوه وما رجعوش هنا خالص.

۞ عارف اسمهم كان إيه يا شاطر؟

ـ لا! أناديلك بابا تسأليه؟

وقبل أن يكمل جملته خرج والده من المنزل وخلفه أيضاً والده، يستطلعان أمر العربة الغامضة في هذا الحي الذي لم تعد تأتيه قبعات القش منذ زمن، وتعرفت يمنى فوراً إلى وجه العم حسن

وقلنسوته النظيفة أبداً وجلابيته البيضاء المطرزة عند الصدر، كان حسن مدبّر المنزل يوم كانت عائلتها تمارس كل تجارتها هنا، بين النسيج المصري الذي يخرج من هذا الميناء وبين أسواق أوروبا.

وخاطب العم حسن حفيده قبل أن يلقي التحية:

- فيه إيه يا أحمد؟ عاوزين إيه الهوانم، بيسألوا عن مين؟

صحيح، يسألون عن مَن؟ عمن جاءت تسأل هنا بعد أربعة عقود؟

أرادت يمنى أن تنطلق، الحر أصبح قاتلاً. والموقف باهت لا معنى له. ماذا جاءت تفعل هنا؟ هل جاءت تسدد بقية الذكريات؟

لكنها تطلعت في الجد وسألته:

⊛ هل كانت أمام هذا المنزل شجرة كستناء؟ أو شجرتان؟

فكَّر قليلاً ووضع يده على جبينه كأنه يدفئ ذاكرته:

- شجرتين؟ آه، أيوه، لكن ده يا ستي بقى زمان قوي، وحضرتك بتعرفي الحكاية دي منين؟

لاحظت يمنى فجأة أن العم حسن أصبح ضريراً، فقد كان يكلمها ويوجه عينيه المتعبتين إلى جهة أخرى، وكان يتحدث وهو يسند يديه على كتفي حفيده كأنه يخشى أن يفقد توازنه.

لم يعد أي شيء يُحتَمل، لا الحر ولا احتقان الأحداق بالدمع الذي يريد التساقط ولا المقعد الجلدي الذي أغرقها في التعرق، فأجهشت وهي تترجل وتنادي العملاق العجوز كأنها لم تتأكد حقاً من هويته بعد:

۞ عم حسن؟!

ومدّ الرجل الضرير يديه في الهواء كأنه يتضرع:

- ستي يمنى، ستي يمنى، اللهم صلّي عَ النبي يا ستي يمنى، دانتي من لحظة ما سألتي عن الكستايا بتاعكم والكستايا الصغيرة بتاعك إنتي، قلت أنا دي يمنى هانم، حتشرفينا البيت يا ستي يمنى.

واعتذرت يمنى، الباخرة ستقلع بعد قليل ولا وقت هناك.

۞ شفناك بخير يا عم حسن.

- الحاج حسن يا يمنى هانم، الحمد لله حجّيت من زمان، والحاجة أمّ أحمد كمان، الله يرحمها، كلكم طيبين بإذن الله، الباشا لسه موجود؟ ليندا هانم ازّيها؟

عادت يمنى فصعدت إلى العربة يساعدها الحفيد ذو الجلابية الرمادية، وعرف العربجي أن مشهداً قد انتهى من تصوير نفسه، فرفع سوطه وهوى به:

- امشِ يا دبدب، امشِ يا بَجَم.

لم تعد يمنى تطيق قبعتها، فخلعتها، وسألتها روزا، لماذا كل هذه الرحلة إلى هنا، هل كان ذلك بيت الأهل؟ بيت أصدقاء ما؟

۞ كان هذا بيتنا، أيام كانت مصر موطني، السلحفاة وحدها تظل أسيرة بيتها وسقفها حتى اليوم الأخير، كان هذا بيتنا أيام كان كل شيء له معنى، الناس والأشياء والمقتنيات والرفاق، ثم نبلغ عمراً

نخفف فيه من ذاكرتنا محبة الأشياء ثم الرفاق ثم الناس ثم المقتنيات ونترك لرياح العمر أن تختار لنا المراسي والمرافئ وللصدف أن تختار لنا الأصدقاء، أنت لا تزالين صغيرة يا روزا، أحبي كل ما حولك قبل أن يجرِّدك الملل من مشاعرك.

في المساء كان القبطان مانويللو جالساً على كرسيه، فلم تكن هناك ضرورة لتكرار مظاهر البارحة، وضيوفه اللبنانيون جاؤوا متفرقين وأخف أحمالاً بالذهب والماس من متطلبات العشاء الأول، لكن النساء لم يكنَّ أقل جمالاً بالتأكيد، ولم يترك الكابتن مانويللو المقعد إلى يمينه ليمنى، كما فعل أمس، بل كان كلما وصل مدعو، وقف باحترام وانحنى صوب السيدة الجالسة إلى اليمين وقال بأدب وتفاخر:

ـ يشرِّفني أن أقدِّم الملكة ناريمان.

وعندما أراد أن يقدم السيدة التي إلى يساره إلى يمنى، صرخت وهي لا تصدق:

❊ «سويتي»! مش معقول!

كانت ناريمان، مطلَّقة فاروق، وباميلا ديكسون عبد الحميد، المسافرتين الوحيدتين اللتين انضمتا إلى «الاسبيريا» في الإسكندرية ذلك الخميس، وكانت باميلا، التي نادتها جميع الرفيقات «سويتي» لعذوبتها، من أب أميركي وأمّ مصرية، وخلال السنوات العشر في الإسكندرية التقت هي ويمنى في كل مكان: في المدرسة الفرنسية، في النادي، في العجمي، في كل مكان.

راحت الصديقتان تتأملان بعضهما بعضا في خبث واضح، كل واحدة تريد أن ترى ماذا تركت السنوات من أثر في وجه الأخرى، لكن بدا أن السنين نسيت أن تمرّ بالإسكندرية، كما نسيت أن تمرّ ببيروت.

انتهى عشاء القبطان على عجل، وقام فدعا الملكة ناريمان إلى الرقص بأدب، ثم انسحب، تاركاً مسافريه إلى ما يرتاحون، واقترحت يمنى هدوء جناحها، وقالت «سويتي» بين المزاح والمرارة:

ـ لقد ولى زمن الأجنحة بالنسبة إليّ، بالكاد كابينة صغيرة، وكذلك صديقتي ناريمان، هل تمانعين بأن تنضم إلينا؟

رحبت بهما في جناحها الذي ملأته بصور أحفادها، وقالت ناريمان، أيضاً بين المزاح والمرارة:

ـ أنا أخذت كابينة خاصة، لكن القبطان قدّم لي جناحاً صغيراً، إنما لا يقارن بهذه الفخامة.

جلست ثلاث سيدات من أعمار متقاربة ومتباعدة، يحوّلن أنفسهن حول فناجين القهوة، إلى ثلاث حكايات لا نهاية لها: واحدة حكايتها فصل من حكايات لبنان، وواحدة حكايتها فصل من تاريخ مصر، وواحدة مثل كليوباترة، حكايتها حكاية الإسكندرية، امرأتان اقتربتا من السياسة في سفينة من العطر، وثالثة ولدت في ممالك القطن وعاشت في دلال الإسكندرية الضاجة، المختلطة، المشغولة بالتصدير وصناعة الثروات، وفجأة تحولت الإسكندرية إلى ساحة تعلن منها الحرب على كل ذلك العالم الذي كانت تعتقد أنه باق لها إلى الأبد.

عالم القطن ورحلات الربيع والسهرات الماسية في قصر عابدين، لقد أخذ التأميم كل شيء دفعة واحدة.

⊛ إلى أين تسافران؟

- «سويتي» ذاهبة إلى مرسيليا: لكي تجري عملية في إحدى عينيها:

ثمن التذكرة من والدها، وأجرة الفندق من أمّها، والطبيب الفرنسي تبرّع بالعملية بوساطة من زميلة لها في التدريس!

⊛ سويتي؟ أنت تعملين؟ وفي التدريس؟

- منذ ثلاث سنوات! الأولاد سافروا إلى أميركا يبحثون عن حياة جديدة مع أخوالي، وزوجي يحاول أن يعيد بناء تجارته بأي ثمن، أو أي تجارة أخرى، وكان لابد أن أعمل، على الأقل لأدفع تكاليف المحافظة على البيت.

⊛ وناريمان أيضاً ذاهبة إلى مرسيليا؟

- لا، ناريمان سوف تنزل في نابولي، ومن هناك تأخذ القطار إلى روما حيث الملك فاروق، لقد تركها من دون أي شيء، وسوف تحاول الحصول على ما تستطيع، أو ما يمكن، أو ما بقي من الطاولات الخضراء والحمراء.

كانت ناريمان، المرأة التي أدارت رأس ملك مصر، غارقة في لونها الأبيض الأخّاذ، إلا أنها قلّمت من كل شيء قليلاً في معالمها الأنثوية المثيرة: صدرها هبط قليلاً، حاجباها قصرا قليلاً، كتفاها ضاقا

قليـلاً، شـعـرها قصّ قليـلاً، وبدت، في بقـايا الجـمـال المثـيـر، امـرأة مهزومة، كل شيء صار بعيداً عنهـا، كل شيء أصبح «سـابقـاً»، أثر بلا مـفـعـول: الملكة السـابقـة، الثـراء السـابق، الأبهـة السـابقـة، القـصـور السـابقـة، إلا أن كثـيـراً من الجـمـال كان لا يـزال في مـعـالم المرأة التي تزوجها فاروق في السابعة عشرة وطلّقها في العشرين.

وما إن أصبـحت «سابقة» حتى شعرت كأن الجميع كانوا في انتظار القرار، فقد كانت مصر تشعر أنها اختطفت العرش، ولم تستحقه.

وكانـت الحـاشـيـة والبـلاط والنـاس معاً تشـعـر أنهـا لم تكن سـوى جزء من مـجـون فـاروق ونزواته وانغـمـاسـه في مطاردة النسـاء، محـاولاً أن يعـوض عـمـا قـيل عن ضـعـفـه، وعنـدمـا طلّق فـاروق زوجـتـه فـريدة ليتزوجهـا، خرجت الناس تهتف في شـوارع القاهـرة: «خرجت الطهـارة من قصر الدعارة».

هذا المساء مضت ناريمان تروي تكراراً حكاية كتبتها الصحف على مدى الأيام، كأنهـا لم تصدق بعد أنها طردت ذات يوم من عـالم ظنت أنهـا ستظل ملكة عليـه عندمـا انحنى فـاروق أمـامهـا في المرة الأولى، متوسـلاً أن تمنحـه مـا تخفي، كتوسُّل مـراهق فـي موعـده الأول، يريد لرغبته أن تكتمل ولرجولته الانتصار.

عرفت ناريمان يومها أن انتصارها في التمنع، تخيلت فجأة أمامها صـور نفـرتيـتي وكليوباترة ومدت يـدهـا الجميلة إلى ملك مصـر وقـالت كأنها تطلق عليه رصاصة الرحمة:

ـ أهون عليك يا فاروق، مش يوافق بابايا أوّل؟

وغرق ملك مصر في لعابه، وخرج ينادي على كريم ثابت: تدبّر الأمر حالاً.

تهادت الاسبيريا تحت قمر تموز وهي لا تدري أنها تحمل بحراً من الذكريات وشيئاً من التاريخ، في جناح واحد. وخامر يمنى شعور داخلي فَرِح، إنها الأكثر حظاً بين النساء الثلاث، بيتها لها، وزوجها يعمل، ووحيدتها سعيدة الزواج، ومدينتها حرة تعيش في الوفر، بلا تأميم، وانتبهت فجأة إلى أن «سويتي» ترتدي ثوباً أزرق قديماً حاولت عبثاً أن تحدّثه ببعض الإضافات، ورأت أن ناريمان تكاد تدمع كلما روت حكاية ساخرة من الماضي، فالحاضر أصبح بلا حكايات.

ليس تماماً:

ـ لست أدري تحت أي برج ولدت، لعله برج المتـــزوجين، لم أحب فاروق، ولا أعتقد أنه أحبني أكثر من ليلة واحدة، كان يريد أن يحب نفسه من خلالي، أن ينتصر على نفسه، لعله أفاق في اليوم التـالي وهو يفكر في الطلاق، لكنه أيضـاً لم يرد أن يسـتسلم لشعوره بالندم، أراد أن تشعر مصر كلها معه أنه سعيد، وأنه منتصر، كان يكره الذين يشعرونه بأي ضعف، لذلك يكره الإنكليز ولن ينسى إلى الأبد أن سفيرهم شهر المسدس في وجهه، ولذلك كره النساء، وأعتقد أنه لن يغفر لي أنني تركته يتوسل.

تهادت الاسبيريا كأنها تهدهد الركاب وتدعوهم إلى النوم، لكن ناريمان أرادت أن تتحدث ويمنى أرادت أن تصغي: ألم تكن هذه المرأة التي لم تبلغ بعد الخامسة والعشرين من العمر، ملكة على مصر قبل خمس سنين فقط؟ ألم يكن هذا الشعر الكستنائي هو الذي سحر فاروق عندما رآها في محل للمجوهرات من دون أن تلتفت إليه، ومن أجلها طلّق فريدة وتحمّل خروج التظاهرات واهتزاز العرش الضعيف أصلاً؟

قالت ناريمان كأنها عرفت وقع هذه الثرثرة على مضيفتها وصديقتها:

ـ سوف أروي لكما الآن ما لم أقله لأحد قبل اليوم، لقد كان فاروق في منتهى الشجاعة عندما جاء محمد نجيب ومعه صلاح سالم لإبلاغه بالعزل، قال لهما: أنتم ضباط في جيش مصر وأنا آمركم بأن تتصرفوا كضباط، مهما فعلتم يجب أن يكون تصرفكم خليقاً بمصر، وقال له محمد نجيب معتذراً: «أنا أنفذ أوامر القيادة، لا علاقة لي بالأمر»، فردّ فاروق: «لا، أنت تنفذ أوامر ثورتك، القيادة أنا». لكن ما إن خرج الضابطان حتى انهار، ودخل عليّ الغرفة وأخذ يضربني بشدة وبلا وعي «كل ده بسببك يا وشّ النحس، من يوم دخلتي عابدين ما شفناش يوم خير واحد»، وشَعرت بأنه سوف يكمل قائلاً: أنت طالق، لكنه خشي أن يتحول الأمر إلى فضيحة فقرر الانتظار، وعندما ركبنا «العروسة» ذهب كل منا إلى جهة من اليخت، انتظر عاماً قبل أن يطلقني رسمياً،

لكن تلك الليلة كانت آخر ليلة لنا كزوجين، لم يعد يطيق البقاء تحت سقف واحد مع «وش النحس»، كأنما الزواج من فتاة في السابعة عشرة هو سبب الثورة، كان ملهياً بنفسه لدرجة لم يعد يعرف بأي شيء يدور خارجها أو حولها.

قالت سويتي:

- قبل أن نذهب إلى النوم، يجب أن تخبري يمنى حكاية «برج المتزوجين»!

ضحكت المرأة التي كانت تتحدث عن تجاربها وكأنها في الخمسين، ضحكت من نفسها ومن الأبراج.

- كان فاروق عكس كل ما كنت أحلم به، أو فلنقل، عكس ما تحلم به أي فتاة في السابعة عشرة، وكانت أمي تريدني أن اتزوج بأي ثمن، أما أبي فكان يغار عليّ ويحبني ويعرف أي نوع من الحياة ينتظرني، وكان حفل العرس طبعاً مهرجاناً لكل أنحاء مصر وكل العالم العربي، ومن بين الآلاف الذين تقدموا لتهنئتنا يومها لم تتوقف عيناي إلا على سياسي شاب من لبنان، ومعه طبعاً زوجته!! كانت تلك أول مرة لمحته فيها، لكن ملامحه لم تغب عني، ثم عدت فرأيته مرة بعد خروجنا من القاهرة في أحد مطاعم روما، لكنّه ظلّ بعيداً ورفض أن يسلّم على فاروق أو عليّ، جلس قبالتي ومعه ضيوفه، وكانوا يتحدثون ويضحكون، وخيّل

إليّ أنهم يسخرون من فاروق ومني، وقلت في نفسي لابد أن أنتقم ذات يوم، وبعد الطلاق أخذت أتحين مجيئه إلى القاهرة، واستطعت أن أكون حيث يكون، وبدلاً من أن أنتقم هويت في هواه، كانت حالة من الجنون الذي فاتني وأنا في السابعة عشرة، وعندما بدأت القاهرة كلها تتحدث، انسحب بهدوء وعاد إلى زوجته وعائلته، وبقيت أنا الملكة السابقة! المرأة التي لن تصبح زوجته، المرأة التي ستصبح مطلقة الجميع.

لم يكن قد بقي من الفرح، لهذا الحطام الأبيض الكستنائي الشعر، الذي لم يبلغ الخامسة والعشرين، سوى ذكريات قصر عابدين التي عجلت في المجيء وعجلت في الغياب، عاصفة حملت، عاصفة اقتلعت، ولم يبق لها من الأصدقاء والمعارف والذين واللواتي كانوا يقفون على خاطر «صاحبة الجلالة»، سوى «سويتي»، التي كانت صديقة والدتها، لكنها تحولت إلى رفيقة لها، الباقي انقسم قسمين: واحد كان يكرهها في الأساس وينتظر لحظة سقوطها، وآخر لا يجرؤ على إلقاء التحية، إنها نَصْبٌ من نُصُب الماضي وذكرى من ذكريات فاروق، المرأة التي أزاحت الملكة، الدم الأحمر العادي الذي حلّ محل الدم الأزرق، الجمال الوحشي الذي حلّ محل الوقار الملكي وصورة العائلة المالكة التي غطت أغلفة المجلات وصفحات الصحف حول العالم على مدى السنين.

بكت ناريمان من دون شعور، وكان الليل ينتصف والباخرة كلها تذهب إلى النوم إلا قمرة القيادة، وأصبح القمر في المقلب الآخر تاركاً نجمة الصبح وحدها تضيء حياة الدلافين القافزة فوق سطح المياه كأنها في «باليه» دائم، تقدم العروض المجانية لمن يشاء وترقص للسفن العابرة كأنها تداعب سمّارها.

قبّلت سويتي يمنى في جبينها وهي تستودعها إلى اليوم التالي، وبعدما أغلقت الباب خلفهما لم تدر لماذا شعرت بالحزن فقط من أجل سويتي، ماذا حل لتلك البهجة التي أصبحت الآن مجرد مرشدة حزينة لحملة الأحزان، إلا أنها لم تنقطع تلك الليلة أيضاً عن التفكير في ناريمان: رواية من خمس مئة صفحة لقصة عمرها ثلاث سنوات، امرأة طالعها أن تصبح ملكة وهي في السابعة عشرة وأن تصبح مطلقة ملك معزول وهي في العشرين، مخلوقة تزوجت في السن التي تحبّ فيها المرأة حبها الأول، رجلاً أحب جميع النساء.



مصفاة الذهب الأبيض،
مصفاة الذهب الأسود

16 تموز 1957

نزلت ناريمان في نابولي وهي تلوّح بيدها وتضحك، ولكن عندما لمحت سويتي تدمع وتكاد تلحق بها، انفجرت بالبكاء، وتوقف الحمّال الإيطالي مع الحقائب المتبقية من العز الملكي، كأنه يعطيها المزيد من الوقت لمعالجة الحزن بالبكاء، وأكملت «سويتي» الرحلة إلى مرسيليا، وكانت في غضون الأيام الماضية قد أصبحت صديقة «الفرقة» اللبنانية كلها، ووقفت تودع الجميع ويودعونها فيما الباخرة ترسو رسو الميناء الأخير وكأنها تلقي كل أحمالها، وغمرت يمنى وهي تبكي، تبكي لأنها شعرت بأنها لن تراها بعد اليوم، وتبكي لأنها أدركت أنها قد تترك خلفها في مرسيليا بصر العين اليسرى التي هي واحدة من عينين سحرتا الإسكندرية ذات زمن سعيد، وتبكي بلا حدود، لأن يمنى جاءت إلى كابينتها الليلة الماضية ومعها أربعة فساتين جديدة وقبعتان وحقيبة جلدية ملأتها بالفرنكات الفرنسية وقالت لها: «كنت سأصرف هذه الأموال في الكازينو، أنت أحرى بها»، لكن سويتي كانت تعرف أن يمنى لا تدخل الكازينو وأنها تعطيها نصف ما كان معها تلك الرحلة، من كل شيء.

بكت سويتي أكثر لأنها شعرت بأنها لن ترى يمنى بعد اليوم. فلا يمنى سوف تعود إلى الإسكندرية ولاهي ستكون قادرة على مغادرتها إلى أي مكان، حتى بيروت. الفقر أسوأ أنواع الأسر.

كان صف طويل من السيارات الفارهة الخاصة ينتظر «الفرقة» اللبنانية لكي ينقلها إلى «الأوتيل دو باري» في مونتي كارلو، على بعد ساعتين من هنا، وقد عرض عليها «الشيخ خليل» وزوجته أن ترافقهما لكي لا تظل وحيدة في القافلة. وفيما السيارة تبحث عن طريقها إلى خارج المدينة، أخذ تلاحُق البيوت القرميدية يذكّرها بميناء بيروت وشرفتها ووحيدتها وأحفادها، لم تكن تتوقع أن يغمرها مثل هذا الشوق إلى تلك المخلوقات الصغيرة التي احتلت كل عالم الكبار في حياتها، لم يعد هناك هاجس سواهم، ولم يعد هناك شوق سوى الشوق إليهم، ولم تعد هناك حاجة إلى رفقة سوى رفقتهم، بل لم تعد أي رفقة أخرى تطاق، سوى رفقتهم. يحفر العمر في النفس نفساً أخرى، مختلفة.

جلس «الشيخ خليل» إلى جانب السائق، هائل الحجم، تحوطه هالة من الرفاه، وتختلط رائحة دخان سيجارته المتواصل برائحة عطره الرجالي التي كانت تسبقه إلى السهرات، وقبل هذه الرحلة والعشاوات على «مائدة القبطان» لم تكن قد شاهدته عن مثل هذا القرب من قبل، لقد فاجأتها وسامته، وفاجأها كم تغطي السمنة من تلك الوسامة، إلا أن المفاجأة الحقيقية هي رحلة الساعتين بين ميناء مرسيليا وأجمل تلال المتوسط، لم تكن وسامة «الشيخ» بل معرفته وثقافته اللتان ضاعتا هما أيضاً في سمعة النساء والليل والمصابيح الخافتة.

لم يتوقف «الشيخ» عن الحديث طوال الرحلة، كأنه ينتظر أول شخص يلتقيه بعد أن يطمئن أن قدميه وطئتا الأرض وأن السفينة لن تتعطل وتعاد إلى بيروت!

ـ كم أشعر بالسعادة لأنني ابتعدت قليلاً عن أجواء بيروت.

واعترضت يمنى ضاحكة وجادة معاً:

❊ سعيد؟ إنني ذائبة شوقاً، حتى قبل أن أغادرها.

لم يثنه هذا الموقف:

ـ من الأفضل أن يكون المرء بعيداً عن لبنان هذه المرحلة، لست أدري ماذا يحاك؟ ولا ماذا ينتظرنا؟ لكنني واثق من أن حريقاً كبيراً سوف يقع، لا يمكن لكل هذا الجمر إلا أن يؤدي إلى حريق.

❊ لا تكمِّد قلبنا بهذه الأخبار. إنني أعدّ نفسي لسهرة جميلة غداً، هل تعرف منذ متى لم أسافر؟

وأجاب باقتضاب، كأنها تتحدث عن قصة يعرفها الجميع:

ـ أعرف.

وقالت له زوجته كأنها تأمره:

ـ خليل أليس لديك ما يفرح نتسى به هذا الحرّ؟ افتح نافذتك قليلاً إننا نختنق.

ـ ليس أسهل من الكلام المسلّي، أستطيع أن أغفو إذا شئتما، أو أن أحدث عن صداقتي مع الأمير رينيه، أو أن أخبر السيدة ضيفتنا بأن بريجيت باردو تنتظرنا للانضمام إلينا هذا الصيف وسوف تكون على مائدتنا خلال الحفل، لكن هذا كلام سوف نسمعه كل لحظة في الأيام المقبلة، الآن، ليس هناك سوى هذا السائق الفرنسي الذي لا يعرف العربية ونحن، دعوني أقل لكما ماذا سيحدث.

وتدخّل السائق بتهذيب:

ـ إذا كان السيد يريد أن يقول شيئاً يجب الا أعرفه، فالأفضل الا يقوله أمامي، فأنا من مصر.

وربت الشيخ على كتفه:

ـ ليس مهماً. اسمع ما تشاء!

تخطتهما سيارة من القافلة فيما كان ريف جنوب فرنسا قد بدأ يمنح نفسه لعشاق اللوحات الانطباعية، وقال «الشيخ» مشيراً إلى ركاب السيارة المسرعة:

ـ ما الذي يحمل هذا الرجل إلى هنا؟ المفترض أن يكون في بيروت في انتظار شحنات الأسلحة التي يطلبها.

وزجرته زوجته بحدة:

ـ خليل، ما هذا الكلام عن الناس؟

ـ هذا ليس كلاماً عن الناس، تلك هي الناس، هذا الرجل يشتغل بالسياسة من أجل السلاح ثم يغسل سمعته كل يوم بالتبرع للمشاريع الخيرية وحضور «الأسرّة البيضاء» كل سنة والتقاط الصور إلى جانب المشاهير والأوادم، لكنه من الذين يحفرون للبنان.

تدخلت الزوجة من جديد:

ـ ما هذا الكلام الذي لم أسمعه منك قبل الآن؟ من يحفر للبنان؟ ماذا يحفرون للبنان؟

ـ الخراب، هذا ما يحفرون للبنان، وسوف يتم ذلك تحت عناوين كثيرة وشعارات جذابة وتقوم الناس بعضها على بعض مثل الثيران في حلبات اللون الأحمر، لكن النتيجة واحدة، الخراب، خراب من الجميع على الجميع.

قالت يمنى:

۞ لعلك تقول كل ذلك لأنك لا تحب كميل شمعون.

ـ لا، لا أحب كميل شمعون، لكنني أحب لبنان، لبنان ليس كميل شمعون ولم يكن بشارة الخوري، لقد بقي الشيخ بشارة تسع سنوات في القنطاري، دخل بطلاً وخرج مطروداً، مهاناً، لأنه لم يعرف أن لكل شيء موعداً في دورة الحياة، لكنه في النهاية خرج قبل أن يسمح للخراب بالدخول، كميل شمعون لن يفعل ذلك، إنه لا يعرف الفارق بين شجاعة المضي وشجاعة الاستسلام.

- بسبب عناده؟

- لا، بل لأنه يقرأ الأشياء فقط كما يريد، يقرأ كل شيء لمصلحته، ويرفض أن يرى أي شيء آخر. هناك بحر اسمه جمال عبد الناصر وهو يريد الوقوف في وجهه.

وقالت زوجته:

- هل تلومه إذا وقف ضد تدخل عبد الناصر في لبنان؟ هل نلومه إذا أراد أن يحمي بلده؟

- أحياناً تحمي الدول استقلالها بالتضحية به. عبد الناصر لا يتدخل في لبنان وحده، مؤيدوه يملؤون سورية والعراق، وإذاعته تثير الناس في اليمن وهو الآن يتجه صوب إفريقيا. الناصرية ليست حالة لبنانية يمكن لكميل شمعون أن يعزلها أو أن يبعدها. نصف سياسيي لبنان معه على الأقل، ومن ليس معه قلباً فهو معه قالباً، وكميل شمعون معزول، والبلد منقسم، نحن بلد سريع العطب، موتور العصب.

۞ سوف تسانده بريطانيا. الدول الكبرى معه.

- بريطانيا انتهت في اليوم الأخير من حرب السويس، هذا القرن يغيّر وجهه الآن، شمعون يعيش في القرن الماضي ومعطيات الحرب الأولى ونتائج الحرب الثانية، يرفض أن يصدق أن حرباً أخرى قد وقعت في السويس تغير بعدها وجه بريطانيا ووجه فرنسا ولن تخرج أساطيلها إلى مكان بعد اليوم، لقد خرجت الإمبراطورية مع خروج أنطوني إيدن من داوننغ ستريت.

۞ ألا يؤيده الأميركيون؟

ـ لماذا يؤيد الأميركيون المشكلة؟ إنهم يفضلون أن يؤيدوا الحل، وهم لن يدخلوا إلى لبنان كفريق بل كوسطاء، من قال إنهم ليسوا مع معارضي شمعون مقدار ما هم معه؟ نحن بالنسبة إلى أميركا باب تدخل منه إلى العالم العربي أو تخرج منه. هكذا كنا بالنسبة إلى بريطانيا، فرنسا وحدها تعلقت بنا بصفتنا دولة: لأننا مطلّها الثقافي على الشرق، فرنسا خائفة على وجودها الاقتصادي والثقافي، لكن الأميركين يقرضون ألمانيا واليابان ويدعمون الاقتصاد البريطاني، كميل شمعون يرفض أن يقتنع بأن الدنيا تغيرت، إنه يواجه المعارضين كأن لا وجود لهم. يريد أن يلغي كمال جنبلاط كما ألغى بشارة الخوري وصائب سلام وعبد الله اليافي، ماذا يعني ذلك؟ يعني إلغاء نصف لبنان، هل سيقبل عبد الناصر بذلك؟ هل سيدعمه الأميركيون في عداء الزعامات الشعبية؟ هل سيقف معه المسيحيون المعتدلون؟

وأكمل كأنه يحادث نفسه:

ـ ماذا سيحدث في هذه الحال؟ الثورة! هذا ما سيحدث، الثورة التي لم تقع ضد بشارة الخوري سوف تقوم ضد كميل شمعون، هذا ما سيحدث.

وكاد «الشيخ» يجهش كأن الثورة ستقع غداً، فيما كانت السيارة قد بدأت تتسلق طريق الجبل المتعرج من نيس إلى مونتي كارلو، وبدأت النسائم تأتي لطيفة من النوافذ المفتوحة، وتوقف «الشيخ» قليلاً عن

إحراق اللفائف، فلم يعد الرماد يتطاير إلى الوراء، في العيون الجميلة التي في الخلف وعلى ضفاف القبعتين الواسعتين. إحداهما البنية اللون، الزرقاء الشريطة، بل تطاير الرماد إلى الرموش المتباعدة والعينين الساهمتين «آلا غاربو»، ومن يدري. فقد يخطئ المصورون عندما تترجل السيدة الجالسة إلى اليسار من باب السيارة الخلفي وتضع يدها على حافة القبعة كأنها تمنعها من الطيران مع الهواء، فيندفع المصورون صوب العينين الواسعتين والرموش المتباعدة تسبقهم أضواؤهم: «أليست هذه غاربو؟»، ثم لا تلبث الخيبة أن تسحقهم وتتراخى الكاميرات في أيديهم: «تكاد تكون غاربو». فقط تكاد.

نادته زوجته من المقعد الخلفي:

- خليل، انظر إلى يمينك، انظر كيف اختصّ الله هذه المنطقة بكل هذا الاعتناء، انظر كيف يختلط الصنوبر بالبحر. انس لبنان قليلاً الآن، اترك السياسة خلفك، ماذا يهمك إن أخفق كميل شمعون، هذا يعني أن بشارة الخوري سيعود.

قالت يمنى مازحة:

⊛ أنا أعرف عنك أنك تحب الحياة والمرح والدعابات، لكن ها نحن نقترب من مرسيليا، وأنت لم تبتسم حتى الآن. إنك تتحدث كأن الثورة اشتعلت منذ أن أبحرت «الاسبيريا».

- إنني أعتذر عن ذلك، لكنني أعرف أنك ستعودين إلى بيروت قريباً، أما أنا فباق حتى نهاية الصيف، ولو لم أكن أخشى هبوب البحر في الشتاء لبقيت حتى الشتاء. أنا أعرف كم من

السياسيين يدخلون إلى صالونك، وأعرف أنهم من جميع الفئات والاتجاهات، وأعرف شيئاً آخر بعدُ من خبرتي السياسية التي تفوق سنوات عمري بكثير، وهو أن المرأة هي أفضل وأدق من ينقل التحذير.

۞ عن أي تحذير تتحدث يا عزيزي «الشيخ»؟ أنا كنت سأطلب منك أن تنقل تحياتي وتمنياتي إلى الأمير رينيه وأنت تريد أن تحمّلني تحذيراً، اي تحذير هذا؟

ـ أعدك بأنني لن أتحدث في أمر سياسي معك بعد اليوم، لكن أرجو أن تسمعي كلامي جيداً، لقد كان الملحق السياسي السويسري لدينا على العشاء قبل أيام، وقال كلاماً خطيراً.

واعترضت يمنى مازحة مرة أخرى:

۞ منذ متى يقول السويسريون كلاماً خطيراً؟ لقد كنت أعتقد أنهم دولة محايدة تتعاطى البنوك لا السياسة.

ـ لكي تعرف الدول كيف تحافظ على البنوك يجب أن تعرف كيف تحافظ على السياسة، ولكي تحافظ على السياسة يجب أن تحافظ على المعلومات، وبسبب حيادهم يعرف السويسريون أكثر من غيرهم.

۞ لكن ما شأنهم بلبنان؟ ماذا يهمهم من أمر لبنان؟

ـ كل فرنك يهرب من لبنان يفطّ في سويسرا، يبدو أنك لم تسمعي بعدُ بشيء يدعى النفط.

☸ وما علاقتنا بالنفط؟

ـ نحن المصفاة يا سيدتي العزيزة، مصفاة الذهب الأسود والذهب الأبيض، نحن نحسد سويسرا على أبقارها، وهي تحسدنا على موقعنا.

كان السائق يحاول أن يمسح العرق من تحت قبعته الكحلية من دون أن يخلعها أو أن يزعج مسافريه، كان يأمل أن يصمد الرحلة كلها من دون أن يخالف أوامر الفندق، لكن الحرّ كان أقوى منه ومن الهواء الذي جاء من كل الجبال إلى نوافذ «الستروين» الكحلية اللماعة التي بطنت مقاعدها بالمخمل الرمادي، وبكل تهذيب، لكن بشيء من الإلحاح، كان يتفقد يمنى في المرآة بين حين وآخر، وكان لا يبدو عليه أنه يصغي إلى ما يقال إلا عندما تتحدث هي، فتشعر أن أذنيه توقفتا وأن شعوراً ما قد اعتراه، ولم تستطع أن تفسر ذلك بأنه أكثر من فضول شاب أمام عينيه مرآة وخلفه امرأة وقبعة بنية لها شريطة زرقاء.

تأكدت من أن فستانها البسيط يغطي ثلاثة أرباع الساقين، وعدلت قبعتها، ووضعت جزدانها الجلدي في حضنها كأنها تحتمي به، لكنها ظلت تشعر أن السائق ذا القبعة الكحلية لا يزال يلقي على المرآة تطلعاته الحائرة كأنه يبحث فيها عن جواب ما، لسؤال ما.

أرادت أن تلغي هذا الشعور بالحرج، فسألت «الشيخ» من جديد:

☸ لم تقل لنا: ماذا قال الملحق السويسري!

ـ قال لنا ما نعرفه جميعاً ولا نجرؤ على قوله: إننا ننزلق إلى الكارثة، آخر أيام الشيخ بشارة انقسمت الناس موالاة ومعارضة، مع وضد. الآن تقسمها رئاسة الجمهورية مسلمين ومسيحيين، طوائف ومذاهب، المسيحيون يدارون مخاوفهم بالمزيد من الاتجاه غرباً. والمسلمون يدارون مطالبهم بالاتجاه شرقاً. والهوة تكبر، الخائف مضطرب والمغبون مهان، والدول تتفرج، كلما فتح باب دخلت منه، وكلما رأت نافذة أدخلت إليها الريح التي تناسبها.

۞ وهل يعرف شيئاً عن مواقف الدول منا؟

ـ يعرف كل شيء، لقد قال الأميركيون: سيكتفون بأن تظلوا برج مراقبة للعالم العربي، والسوفيت سيجربون حظوظهم بكل الوسائل، لديهم الحزب الشيوعي الذي يحبهم ولديهم من يكره الإنكليز والفرنسيين، وأما البريطانيون والفرنسيون فسوف يكتفون من الأمجاد الماضية بمحاربة الفريق الذي ينوي غسل كل آثارهم في الشرق: الأميركيين.

۞ وأين ذنبنا في كل ذلك؟

ـ ذنبنا هو السقوط في الإغراءات، كل الإغراءات، كميل شمعون قلبه مع الإنكليز وعقله مع الأميركيين، ومعارضوه ضد الشيوعية وليسوا مع أميركا، إنهم ينتظرون راي مصر، ومصر لم تتخذ موقفاً نهائياً بعد. إنها تريد دعم أميركا واشتراكية الاتحاد السوفيتي، إنها تبحث بكل صدق عن طريق ثالث، لكن هل في هذه الدنيا طريق ثالث؟

تحولت ساحة الأوتيل دو باري إلى مرآب في لحظات، فقد وصلت سيارات «الستروين» التي تنقل «الفرقة» اللبنانية ووصلت في الوقت نفسه الشاحنة التي تحمل الحقائب، وتطلع عمال الفندق وحمالوه في المشهد بشيء من الفرح وشيء من المباغتة، وشعرت يمنى وهي تنزل من الباب الخلفي أنها خرجت من حمّام البخار السياسي الذي أطلق مضيفها دخانه طوال الطريق، وأنها انتهت من الحرج الذي حاصرها عبر مرآة السيارة، لكن ليس تماماً، ليس بعد، فما إن فتح السائق الشاب بابها ورفع قبعته، تاركاً مضيفتها تفتح بابها بنفسها، حتى سأل في كثير من الاعتذار:

ـ هل كانت سيدتي في الإسكندرية ذات يوم؟

تطلعت يمنى فيه ملياً قبل أن تجيب، لكن ملامحه لم تذكّرها بأي وجه من الوجوه التي لم ترها منذ 35 عاماً ولا صوته ذكّرها بأي حنجرة من حناجر الإسكندرية.

وقبل أن تجيب بأي شيء وسط الضجيج وأبواب السيارات التي تفتح وتغلق والحمالين الذين ينادون على بعضهم البعض كأنهم في حالة استغاثة، قال الرجل:

ـ أنا يا ستي فاروق، ابن حارس البيت عندكم، كنت صغيراً عندما تركتم الإسكندرية.

وقفت متجمدة، ما بها الإسكندرية تلاحقها مرة واحدة؟ لكن الرجل أكمل:

ـ والدي مات من عشر سنين، وبعدين أمي، وبعدين سافرت إنكلترا أشتغل، ثم هنا.

☉ مبسوط هنا يا فاروق؟

ـ الحمد لله يا ستي، إنما واحشاني الإسكندرية، والبيت، والكستناية الكبيرة، والكستناية الصغيرة.

وصعدت درج الفندق من دون أن تخبره بما حدث، لا للكستناية الكبيرة ولا للكستناية الصغيرة.



لماذا هي بيروت خالية؟

4 حزيران 1967

كان هذا العشاء مقرراً منذ أكثر من شهر، وربما شعرت صاحبة الدعوة في هذا الجو القاتم أنه من الأفضل إلغاؤه، وكذلك شعر جميع المدعوين، لكن أحداً لم يرد أن يفسد المناسبة للآخر، هذه أول مرة تخرج فيها يمنى من المنزل منذ عام، وأكثر قليلاً، وهذه أول مرة تخلع فيها ثوب الحداد وتعود إلى الثوب البني، داكناً، محافظاً. وناقلاً من الأسود بعضاً من الحزن في أي حال.

لقد غاب، منذ أكثر من عام، الرجل الذي أعطاها وحيدتها، ووحيدتها أعطتها سرباً من المفرّدين، بعضه آهلٌ وبعضه متوحش جميل، يملأ عليها حياتها زهواً وطرباً، غاب، في الحقيقة، الرجل الذي أعطاها كل شيء، وغاب كما عاش، في هدوء ولطف وأدب جمّ، وكعادته، لم يلقِ تحية الوداع.

ذهب إلى سريره لقيلولة بعد الظهر، وعندما غربت الشمس ولم يطلب قهوته من الإسطى يوسف، قرع الطباخ باب غرفة النوم مرة، مرتين. ولما لم يأته الجواب، صرخ باكياً يلطم وجهه: «الله أكبر! الله أكبر»! وهرعت يمنى من غرفتها، مدركة أن يوسف لن يهتف «الله أكبر» إلا في خطب، وفتحت باب الغرفة ودخلت فرأت الرجل العجوز مطبقاً الإطباقة الأخيرة، فرفعت الغطاء، وغطت صدره ويديه، ثم

ركعت عند سريره، ووضعت رأسها على قدميه، وتطلعت فرأت يوسف في الباب يبكي، والخادمة الجديدة تقف مذهولة وقد غطت فمها بطرف مريولها. فالتفتت إلى الأسطى، وهي لا تزال راكعة، وقالت له: «أعطني عطر الخواجا من حمّامه».

هذه أول مرة تخرج من الأسر الأسود، لقد ترك خلفه حزناً هادئاً مثله، لم يكن يخفف منه حتى اقتحام الحفيدات للمنزل وهنّ في المرايل المدرسية، ولم تكن حتى «يارا» تطرد الحزن عن الشرفة، وهي تدخل مثل عاصفة، فترمي حقيبتها وكتبها وتهرع إلى معانقة «تيتا» وتكاد تخنقها، أو تكاد «تيتا» في نحولها ووهنها وأسود الحزن، تهوي عن كرسيها، وهي تحتضن هذه الزهرة التي أنستها ورود الحديقة.

عندما ترى يارا نفسها في المرآة المعاكسة "تفتقد كائناً واحداً، فإذا العالم قفر". لم تكن تدرك أن هذا الرجل الذي استبدل مبكراً دور الزوج بدور الأب، قد أحبها وأحبته إلى هذا المدى، فقد كان حضوره خفيفاً، بعيداً، نائياً أحياناً، لكنه كان دائماً هناك، يستبدل الحب القليل بالعطف العارم، ويعوض عن المزاج غير الباسم بالعمل بلا حدود، ودائماً، دائماً، يغرق البيت بكل شيء، أغرقها بأجمل الهدايا وأغرق وحيدتها بالعز، وعندما أطلت الحفيدات، جميلة بعد أخرى، وزنبقة بعد فلّة، أصبح يعود مبكراً إلى المنزل، ومعه لكل منهن، كل مساء، ليرة ذهباً، كل مساء، ولم يكن على الحفيدات سوى أن يعددن ذهبيات «جدو».

كان يفترض أن ينصرف هو إلى السياسة، أو أن تغريه أضواؤها، فقد كان واحداً من كبار محامي لبنان، وربما من محامي فرنسا، وكان يكفي أن يعلن عن استعداده لكي تقدم إليه العروض، لكنه كان يزدري العمل السياسي، ولم يمانع أن تنخرط زوجته في سياسات بيروت، فقد أراد لها لعبة تلهي نفسها بها فيما هو غارق في العمل، فلتكن السياسة.

لم يكن يفرق بين أن تكون السياسة هي السلوى أو منزل أهلها قبالة الشلال أو شراء الفساتين البنية من رحلة باريس السنوية، كان يهمه شيئان في ذلك البيت: الهدوء والسعادة، وكانا في كل الأرجاء.

كان إذا عاد من مكتبه في شارع «اللنبي» بعد يوم طويل، دخل فوراً إلى مكتبته، ووضع «الروب دوشامبر» المخملي، النصفي الذي لم يتغير في السنوات العشر الأخيرة، وقبل وفاته بثلاثة أيام، ذهبت يمنى إلى باب إدريس واشترت روباً أزرق اللون ووضعته عند وسادته وقالت، مؤنبة، مازحة: «جورج، لقد ملّ الخدم مظهرك بهذا الروب الأحمر الذي لم يعد لونه الحقيقي معروفاً».

تقبّل الهدية بلا مزاح، تقبّلها بحب وامتنان، ولكن خالية من المزاح الذي لُفّت به، فقد كان يشعر دائماً، وكانت تعرف ذلك، انه أخطأ في حق نفسه وفي حقها، عندما تغاضى عن فارق العمر بالنسبة إلى فتاة في السابعة عشرة، ولم يهمها هذا الأمر في يوم، وقد حاولت عبثاً أن تنسيه أن ثمة هوة ما، لكنه كان كلما تقدمت به السن عاماً تقدمت به

العزلة عقداً، ومنذ سنوات انقطع عن الظهور معها لدى الأصدقاء، وكان يفضل على السلوى الاجتماعية، رفقة الكتب التي حاورها وعاملها كأنها شلة من الأصدقاء، وأحياناً كأنها شلة من الأبناء، الكتب كانت وحدها تقبله وحيداً، ومن دون همس أو ملاحظات.

هي أيضاً لم تغفر لنفسها أنه لم يغفر لنفسه، كانت تشعر أن صباها عبء عليه وأن جمالها عذاب له بدل أن يكون بهجة حياته، وكانت تريده أن يقاتل معها ذلك الشعور، لكنه فضّل أن يستسلم كأنما وجد في ذلك حلاً لا مشكلة، هو يتمتع بعزلته وعمله وشغفه بأن يعمل من أجل غيره، وهي تضيء في عالمها، مثل نجمة تخلى عنها قمرها، وحدها تضيء.

حتى علاقته مع وحيدته طغت عليها طبيعة العزلة، وقد شعرت مذ كانت طفلة أنه يعاملها كجدٍّ لا كأب، كانت تريده أن يلاعبها وأن يحملها على كتفيه وأن يتظاهر بأنه يرميها من الشرفة، مثل جميع رفيقاتها، لكنه كان يقدم إليها كل شيء من بعيد، وكانت، على صغرها، تقرأ في عينيه حزناً ما، عندما تندفع إليه، آملة أن تضيع في صدره الأبوي، لكنه يتلقاها مثل طفلة في مهرجان، تقدم باقة من الزهر إلى راعي الحفل.

كان هو كل شيء، مع أنه عاش حياته وكأنه لم يكن شيئاً، وكان حارساً لها ولابنتها وحفيداتها مثل ظل، لكنه كان يتصرف وكأنه رجل بعيد يقطن في بيت آخر، زوج في المهجر وأب في المهجر وجد في

المهجر! لن تغفر لنفسها أنه كان حزيناً إلى هذا الحدّ، ولم تستطع أن تعبّر له عن مشاعرها التي تآكلتها طوال نصف قرن تماماً، إلا بعد غيابه، ففي وجوده كان ممنوعاً عليها أن تحزن وكان ممنوعاً عليها أن تفتقر إلى شيء وكان ممنوعاً عليها أي شيء سوى الابتهاج وتلقّف فرح اللحظة ومسرّة العمر. لم يكن يريد أن يفوتها ما فاته هو. يوم لُقّن أن الحياة عمل كلها ومال كلها، فإذا هي أيضاً فرح واكتشاف وشيء من النجوى.

منذ عام أو أكثر لم تقبل دعوة أحد. ولم تترك جدران المنزل الداخلية إلا إلى الشرفة، وأصبحت تعد البواخر الداخلة والخارجة من المرفأ، وتعرف أسماء الرايات التي ترفعها، وتعرف أنواعها، وتعرف أيّها صفارة الإبحار وأيّها صفارة الرسو. لقد عادت طفلة لا عالم لها سوى هذه الشرفة والبحر قبالتها، ومنذ أن فقدت أمّها لم يعد صيف القرية في الوجود، حتى صديقها الشلال، فقد نغمته ولم تعد هي تفتقدها أو تحنّ إليها، العمر يسوّي المشاعر.

هذا المساء قبلت الدعوة إلى «البَاناش» بعد إلحاح من جميع الصديقات، إنه ميلاد «الشيطانة» مود، وعندما رفضت بادئ الأمر، قالت لها مود بأسلوب لا يمكن أن يرد: «ألا تريدين أن تشمتي بي قليلاً؟ ألا يغريك أن تري الشيطانة تطفئ 68 شمعة؟ وهل تعتقدين أن في إمكاني أن أطفئها وحدي؟ لقد مضى منذ سنين زمن إطفاء الشموع، سوف ألغي الدعوة إذا لم تأتي».

كان الطريق خالياً تقريباً إلى فندق فينيسيا عند الثامنة تقريباً، وسألت يوسف، الذي يقوم الآن بدور السائق أيضاً من أجل حماية سيدته، لماذا هي بيروت خالية في هذا الوقت على غير عادتها؟ فلم يعرف، وقال لسيدته: إنه لا يعرف الفرق؛ لأنه لا يخرج في هذه الساعة في أي حال، وعندما ترجلت ودخلت بهو الفندق وجدته شبه خال أيضاً، وظنت أنها أخطأت العنوان أو أخطأت الموعد، ومشى يوسف خلفها حتى باب «الباناش» في الطابق الثامن، فوجدته مهجوراً كما تكون المطاعم ساعة إغلاقها لا ساعة افتتاحها. لم يكن هناك سوى الفرقة الموسيقية وطاولة مود، عند النافذة الأخيرة المطلة على البحر و«السان جورج».

بعكس «الفينيسيا» كانت غرف «السان جورج» مضاءة كلها، لكن مطعم المسبح كان خالياً، اندفعت مود صوبها معانقة: «أخيراً، هناك من أقنعك بالخروج من البيت»، ولم تكن في حاجة لأن تقدمها إلى أحد، جميع الوجوه مألوفة من الماضي، وإذ صافحت الجميع تنبهت فجأة أنها هذه المرة الأولى التي ترى فيها كميل شمعون عن هذه المسافة، هذه أول مرة تعانق الرجل الذي خاصمته منذ 1943، والرجل الذي قاتلت ضده بكل ما تستطيع العام 1958، وعندما وقف مسلّماً يقبّل يدها بكل أناقة، شعرت أن مصالحة كاملة قد تمت، ثمة زمن بكامله ينقضي، بأشيائه الصغيرة وأشيائه الكبيرة، وثمة جيل كامل بلغ السابعة والستين هذا المساء، قد يكون هذا يوم ولادة مود، لكنه عام ولادة الجميع، إنه القرن كله، يدخل عامه الثامن والستين، على نافذة «الباناش»، وهذه الوجوه الجميلة، أشهر وجوه لبنان، بدأت تتجعد.

قالت مود، تحاول أن تضفي شيئاً من المرح على الجو القاتم الذي يلفّ المدينة: «لقد حجزنا الباناش لي وحدي، لذلك لا ترون أحداً غيرنا»! لكنها لم تكمل دعابتها حتى كان رجلان يدخلان ويلقيان التحية من بعيد على كميل شمعون، وبعد أن جلسا، قال شمعون لرفاق الطاولة في صوت مسموع: «اللعنة، ثمة شيء كبير ينتظر هذا البلد». وسألته مود بفضول معهود: «كميل، ما الذي يجعلك تقول ذلك الآن؟».

والتفت شمعون إلى من حوله كأنه يبلغهم نبأ ما: «لقد كانت لدي شكوك حتى اللحظة أن الحرب سوف تقع، أما الآن فقد تأكدت أنّ أحد هذين الرجلين هو المراسل العسكري «للنيويورك تايمز» والآخر مصور «اللايف»، لماذا هما في بيروت اليوم؟ ولماذا يتخفيان في الفينيسيا بدلاً من الانضمام إلى عشرات الصحافيين الذين وصلوا إلى السان جورج خلال الأيام الماضية؟ لقد تعودت أن أخاف كلما رأيت هذا العدد الضخم من الصحافيين الأجانب».

لم تدرك يمنى تماماً ماذا يقول؟ لكنها عرفت من خطورة لهجته لماذا ذهبت بيروت، تلك الساهرة الأبدية، مبكرة ذلك المساء إلى خلف الجدران؟ ماذا يجري حقاً؟ كل فرح مود لم يستطع أن يغير شيئاً في قتوم المطعم الخالي إلا من الرجلين اللذين أخاف حضورهما كميل شمعون، الرجل الذي قيل: إنه لا يخاف، وإنه قاتل بنفسه من وراء أكياس الرمل في القنطاري عندما أعلنت الثورة عليه.

تبادل الجميع بعض التعابير الشخصية في صعوبة واضحة، وظل كميل شمعون طوال الوقت يلقي النظر على السان جورج كأنه ينتظر حدوث شيء ما في الفندق نفسه، وكعادتها كان لمود وحدها أن تتجرأ عليه: «أين أنت هذا المساء؟ إنك ترفض الانضمام إلينا، فهل نسيت أنه يوم ميلادي؟ ما بالك لا تكفّ عن التطلع إلى السان جورج كأنما امرأة سبقتك إلى هناك؟».

«عندما يكون هذا الفندق مليئاً إلى هذه الدرجة، يجب أن نضع أيدينا على قلوبنا، هذان الرجلان جاءا إلى الفينيسيا؛ لأنهما لم يستطيعا العثور على غرفة في السان جورج، تصوروا ماذا يعني ألا يعثر مراسل «النيويورك تايمز» ومصور «اللايف» على غرفة خالية؟ إنهما عادة يدفعان المبالغ الخيالية ويسيلان لعاب جميع موظفي الاستقبال حول العالم، هذا الحشد من المراسلين يعني أننا مقبلون على حرب»، قال شمعون.

«حرب؟ أية حرب؟» اعترضت مود.

«كل ما حولنا ينذر بالحرب، زيارة الملك حسين إلى مصر دليل خطر، السوفيت يتحركون في كل اتجاه، وليفي أشكول، الذي كان حتى الآن يتحدث في صوت منخفض بدأ يستخدم تعابير الحرب، ورئيس أركانه إسحق رابين يعرف جيداً أنه من السهل استفزاز العرب، ولذا فهو يستفزهم إلى أبعد الحدود، صدقوني، الحرب على الأبواب».

شعرت مود أن الدنيا تتآمر لتعكير حفلتها وأن شيئاً لن يقنع الحاضرين بشيء من السلوى، وكانت الفرقة الموسيقية تعزف ألحاناً خفيفة مثيرة، لكنها في ذلك الإطار بدت ألحاناً محزنة لا تجتذب مشاعر أحد. واستسلمت مود إلى القلق الذي ساد الجميع وإلى الخوف الذي بدأ يتسرب من أوتار الفرقة، وقالت لكميل شمعون: «وماذا يقول صديقك الملك حسين؟ هل تحدثت إليه مؤخراً؟».

«لا»، قال شمعون «لكنني أسمع الإذاعة الأردنية باستمرار وأعرف تماماً ماذا يفكر؟ إنه رجل خاسر إذا انضم إلى الحرب ودولة خاسرة إذا لم تنضم، والخيار سهل».

ثم نظر إلى السان جورج في الأسفل، فرأى الطريق خالياً ومطعم المسبح شبه مطفأ والغرف كلها مضاءة، وقال: «قرار الحرب قد اتخذ. مصر جرّت إلى مناخ الحرب وإسرائيل اتخذت القرار والأردن لن يبقى خارجاً. إنه يفضل أن يخوض حرباً خاسرة على أن يبقى في سلم خاسر».

وسألته مود: «أين نحن في كل ذلك؟».

قال: «نحن نبدو على هامش الحرب لكننا في قلبها. في أي قتال جوّي؟ نحن نقطة المواجهة بين سورية وإسرائيل، وفي الحرب السياسية نحن مقر نصف مليون فلسطيني بدؤوا التسلح وعبور الخطوط العربية، ليس ما يمنعهم غداً من أن يعبروا من لبنان. جميع قياداتهم أصبحت في بيروت. إننا ندخل نفقاً طويلاً».

لم يطب ليمنى أن تصغي إلى كل هذا الكلام المقلق ليلة قرارها بالخروج من سواد الحياة، لكنها راحت تدرك قليلاً قليلاً أن ثمة عالماً يتغير من حولها، وأن الأشياء، مثل الناس، لا تبقى كما هي، وكلما أفاض كميل شمعون في الشرح كانت تشعر أن الخوف يكبر على الطاولة. وخشي كثيرون في هذا الجو أن يشربوا نخب مود، وكأنهم بذلك يرتكبون إثماً، لقد سقط احتفال مود بالرصاصة الأولى التي لم تطلق بعد، ولم يكن أحد يعرف متى تطلق.

فجأة قام مراسل «النيويورك تايمز» عن طاولته وجاء يسلّم على كميل شمعون: «هل يسمح لي الرئيس بالانضمام إليكم لبضع دقائق؟ لم أستطع أن أقاوم أكثر من ذلك في طرح بعض الأسئلة عليك».

كان المستر روبن طومسون قد عاش نحو سبع سنوات في بيروت، جاءها العام 1957 وتركها العام 1964، ولم يكن هناك أحد لا يعرفه من روّاد بار السان جورج، لأنه لم يسجل غياباً واحداً في أي مساء، وكان من الصعب على من رآه مرة أن ينسى وجهه الأحمر الطافح أبداً ببقايا «البورتو» ولونه، وكان أنفه الأكثر احمراراً، ولذا سماه المراسلون الآخرون «أنف البروتو»، إلا أن السبب في أنه لا ينسى أنه كان يشبه، في قامته وفي ملامحه، الممثل جون واين، وكان كثيرون من اللبنانيين وحتى السياح يخطئون به عندما يرونه في المطاعم والأماكن العامة، وقد زاد من احتمال الخطأ وجود زوجته إلى جانبه.

كانت ريتا، بدورها، تشبه ممثلات هوليوود، امرأة خارقة الجمال، وحشية العينين، خضراء العينين، فاحمة الشعر، مسحوبة القامة، مقلوبة الشفتين، زرافية العنق، مليئة الصدر، مفرغة الخصر، برازيلية الساقين، وكانت من أصل برازيلي أيضاً، تعرّف إليها روبن خلال رحلة إلى هافانا وكان حب فوري، ثم كانت علاقة متوترة صاخبة تصعد وتهبط مثل صدر ريتا في حال غضب أو فرح، فقد كان يبدو عليها التأثر وغلوّ المشاعر فتروح تشد ثيابها إلى خصرها كأنما تخشى على صدرها الا يطير، غضباً أو فرحاً.

وكانت علاقتها مع روبن وعلاقتها مع الآخرين، حديث بيروت الساحلية التي تمضي نهارها وليلها ما بين السان جورج وبيوت عين المريسة القديمة، تلك كانت بيروت المراسلين والمستشرقين والأساتذة، الذين اكتفوا من كل لبنان بذلك المربّع الساحر، الساهر، الذي تتكوم فيه أجمل الوجوه الشقراء التي جعلت من بيروت فصلاً من ألف ليلة وليلة، إلا أن ريتا كانت بالتأكيد الوجه الذي لن ينسى في ذلك العالم الصغير، مع انه لم يكن وجهاً أشقر ولم يكن قادماً من ضفاف السين أو مراعي الدانمارك، الحقيقة أن أحداً لم يستطع أن يحدد ما هو لون وجه ريتا، فقد كان يبدو دائماً أبيض حرقته الشمس، لكن عندما كانت الشمس تغيب في الشتاء ويغلق السان جورج باب المسبح ولا يعود، في إمكان ريتا؟ أن تعرض قامتها على الشرفة للناس وللأشعة، حتى آنذاك كان يبدو وجه ريتا، يبدو محروقاً مثل البن البرازيلي الأحمر، وفي أي حال لم يكن لون وجه ريتا هو ما يلوي الأعناق خلفها، أو ما

يجعل عين المريسة كلها تقف خلف النوافذ والستائر طالما هي مستلقية على الشرفة، فلقد كان كل شيء فيها هو أبرز شيء فيها، كانت ريتا مثل مهرجان الريو، كل ما فيها جميل، وكل جمال للجميع.

لم تكن جرأتها أو حريتها هي التي تحيِّر مجتمع السان جورج، بل كان يحيِّرهم استسلام روبن لهذا النوع من الحياة، من دون إبداء أي شعور بالغيرة، وربما كان قد توصل إلى تسوية عميقة مع نفسه، وهي القبول بالثمن ما دامت هذه هي الجوهرة المعروفة، بل كان يتصرف أحياناً، وكأن من حق هذا الجمال الوحشي ألا يسجن في قفص بل يبقى طليق الغابة، وكانت الغابة دغلاً في بيروت.

تلك هي السنوات التي جاء فيها الجميع إلى المدينة، كل من أجل غرض ما، كان فيها شيء من كل شيء من تلك المدن التي حولتها الحرب إلى ركام، كان فيها شيء من ليالي فيينا على الدانوب، وشيء من شمس روما، وشيء من بساطة مدريد، وشيء من أنغام باريس وعطرها، وبعدما ذهبت القاهرة الجمهورية إلى التقشف وأخذ النيل يردد أناشيد الثورة، لم يبق في الشرق ملتقى سوى هذه المدينة على المتوسط، تستقبل وتودِّع، سفن الشحن وسفن الركاب وسفن الأحلام، جميع أنواع السفن التي تعرف يمنى أعلامها الآن من على شرفتها.

تلسكوب الشرق، المدينة الوحيدة المفتوحة للجميع، في عالم عربي خارج لتوِّه، أو هو لم يخرج تماماً بعد، من معركة طويلة مع الاستعمار وذكرياته المليئة بالصدأ، المدينة الوحيدة التي تستقبل

عيوناً زرقاء من دون أن تخشاها وشعراً أشقر من دون أن تعاتبه، ولأن الغرب قد عاد، فقد حضر الشرق أيضاً، وقد كانت الأصول الإيديولوجية تحول دون ظهور مراسل تاس أو نوفوستي في بار السان جورج، لكن ذلك لم يكن يحول دون أن ينهل كيم فيلبي نصف زجاجات الكحول في البار كل مساء، وأن يخرج متعتعاً لكي يكمل على الزجاجات المتبقية في بار «النورماندي» القريب، لم يكن يسمح للصباح بأن يطلع، وهو صاح إلى نفسه.

عندما قيل: إن كيم فرَّ في غواصة إلى الاتحاد السوفيتي، هزت ريتا الصدمة، هي التي كانت تظن أن شيئاً لن يهزها في هذا العالم، لم يفاجئها أن فيلبي كان جاسوساً للسوفيت، ففي هذه الغابة من الناس والجنسيات، لم يعد هناك مكان للمفاجآت، لكن الذي تركها متضايقة طوال أشهر، أن فيلبي كان يأتي إلى زيارتهم على الدوام، وكان يتعمد أن يظل ملتصقاً بروبن، وآلمها أكثر، ليس أن يخدع فيلبي وطنه وصحيفته، بل أن يخدع زوجته، التي كانت صديقتها الوحيدة في هذه المدينة، لكن ريتا نفضت المسألة عن ذاكرتها في نهاية المطاف كما تنفض شعرها الفاحم عن جبينها.

كان أول سؤال طرحه كميل شمعون على روبن، وهو يزيح كرسيه لكي يجلسه إلى جانبه «كيف ريتا؟»! لكن الرجل تظاهر بأنه لم يسمع السؤال، فأدرك السائل أن ريتا قد عادت إلى الريو، أو إلى هافانا، أو سافرت إلى أي مكان يتسع لها.

كان هناك نوع من الاحترام يربط شمعون والمراسل الأميركي، لكنه احترام خالٍ من الود لدى الفريقين، فقد كان شمعون يعتبر أن روبن مراسل معادٍ ومتحامل ولا يطيق وجوده في العمل السياسي، وكان روبن يعتقد أن شمعون على حق في ذلك، إلا أنه كان أيضاً يحترم ذكاءه وصراحته وتمسكه بمواقفه، وكان روبن يعتقد أن شمعون سياسي ماهر، لكنه بلا عواطف، أما شمعون فكان يعتبر أن روبن صحافي جيد، ولكن بلا عواطف أيضاً.

لم يُضع روبن الكثير من الوقت: «سيدي الرئيس، إننا نعيش زمناً خطراً، أليس كذلك؟».

ـ إننا في أي حال أمام لحظة دقيقة، هبة ريح واحدة في هذا الاتجاه أو ذاك، ونعرف إلى أين ستذهب هذه المنطقة.

ـ أعتقد، سيدي الرئيس، أن العاصفة سوف تهب، وليس الريح.

ـ إلى هذا الحد أنت متشائم؟

ـ إلى هذا الحد أنا عارف.

ـ لكن لماذا بيروت؟ ما الذي يحملك إلى بيروت بدلاً من القاهرة، مثلاً؟

ـ هناك من ذهب إلى القاهرة أيضاً، ومن ذهب إلى السويس وسيناء، ومن ذهب إلى القدس الشرقية وعمان، لقد صدر أمران في وقت واحد: رسمي يدعو الأميركيين إلى الخروج،

وصحافي يدعو المراسلين إلى الحضور، هل تعتقد أن الحرب سوف تشق اللبنانيين؟

ـ تشق اللبنانيين؟ لماذا تشق اللبنانيين؟ ما هي علاقتنا بالأمر؟ نحن على اتفاق هدنة مع إسرائيل، لا علاقة لنا بالحرب.

ـ إنك لا تزال على عنادك الأبدي يا سيدي الرئيس، أنتم في بلد حدوده مع سورية والأخرى مع إسرائيل وعاصمته مطوقة بالفلسطينيين وجمال عبد الناصر يملك على نصف شعبه على الأقل، ثم تحدثني عن الهدنة!!

ـ بماذا تريدني أن أحدّثك؟ أنت تطرح عليّ الأسئلة بصفتي رئيس جمهورية سابق، وأنا أردّ عليك بهذه الصفة، فعمّا تريد أن أحدثك إذا لم أحدثك عن الهدنة والاتفاقات المعقودة؟

ـ هل تعتقد أن الحرب سوف تنهي دور لبنان؟

ـ أولاً، الحرب لم تقع بعد، ثانياً عن أي دور تتحدث؟

ـ سيدي الرئيس، أنت أدرى مني بكل هذه الأشياء، لقد كان لبنان بلداً مناسباً وملائماً للجميع حتى الآن، إنه مذياع العرب وصحفهم ومقاهيهم وساحة الصراع الصوتي بينهم، وهو لا يضر إسرائيل لأنه لا يؤذيها، وهو يرضي الغرب: لأنه من هنا يراقب الجميع، ويرضي السوفيت: لأن في إمكانهم أن يرضوا الجميع، لكن هل سيستمر هذا الموقع إذا اندلعت الحرب غداً؟ هل سيترك لكم المقاتلون الفلسطينيون لعبة التوازن والجبهات

المسودة؟ وهل سيقبل العرب غداً أن يخوضوا الحرب جميعاً فيما ترفعون أنتم أعلام الهدنة البيضاء؟

ـ كل بلد عربي يقدم ما يستطيع، نحن بلد صغير لا قوة له، وقد قدمنا منذ نصف قرن ما نقدر عليه، فتحنا أبوابنا للأرمن الفازعين من تركيا، وفتحناها للأكراد القادمين من العراق، وبسطنا أرضنا ومدننا للفلسطينيين عام 1948، ونحن لسنا دولة عسكرية.

ـ هذا منطق زمن السلم سيدي الرئيس، منطق زمن الحرب مسألة مختلفة تماماً، في الحروب يعلو صوت المدفع على كل شيء آخر، ليس في إمكانك أن تقول للذي يقاتل على بعد أميال منك: إن الحرب لا تفيد الدول الصغيرة.

ـ ما الفائدة من أن ندخل الحرب نحن أو الأردن أو أي دولة صغيرة أخرى؟

ـ لا تحسب الحرب حساباً للفوائد والمضار، إنها تقسم الناس إلى قسمين لا ثالث لهما: مقاتلين وغير مقاتلين، أعداء وحلفاء، لا مكان للمهادنين! لقد جئت إلى هنا من عمان، وقد قابلت الملك الذي تعرف الصداقة التي تربطني به، إنه يشعر بمرارة فاجعة، لكنه ذاهب إلى الحرب في أي حال، وإذاعته لا تكفّ عن إثارة مصر لأسباب لا أفهمها، هي التي تتساءل كل يوم، إذا كانت مصر عربية حقاً، فلماذا القوات الدولية في شرم الشيخ؟

وأعتقد أن عبد الناصر طرد القوات الدولية؛ خوفاً من التهكم، وليس لأنه كان يريد ذلك فعلاً، لكن الملك ذاهب إلى الحرب في أي حال، وسوف يقود الجبهة بنفسه وإلى جانبه ضابط مصري، إنه يعرف سلفاً أنه خاسر لكنه قال لي: بين أن أنادى «حسين ابن زين» وبين أن أعتبر خاسراً، أفضل الثانية بالتأكيد.

- أنا أيضاً أعرف الملك حسين، وأعتقد أنك تسيء قراءة أفكاره، لا أعتقد أنه يمكن أن يخوض حرباً خاسرة تفقده الأرض، أي أرض، لقد خسر الهاشميون العراق ولم يبق لهم سوى هذه الرقعة، وبقيت لهم القدس، من هو العربي الذي يمكن أن يضحي بالقدس إذا كان يملكها؟ أنت تعرف أن القدس أكثر أهمية من فلسطين في العقل العربي، وقد قتل جد الملك بين يديه، وهما يخرجان من مسجد القدس، كبِّر عقلك، القدس هي التاج.

- حتى أنت سيدي الرئيس تعود عربياً رومانسياً في لحظة واحدة، إني أقول لك: إن الملك سوف يذهب إلى الحرب، قدس أو لا قدس، خسارة أو لا خسارة، إذا لم يذهب إلى الحرب فسوف تأكل الناس حجارة القصر، وسوف تشعل إذاعة «صوت العرب» النار في هشيم الضفة الغربية، هذا الرجل كوابيسه كثيرة، وكلما خرج عبد الناصر إلى الشرفة خشي أن يطلق عليه لقباً جديداً، لقد أصبح يفضل أن يكون بطلاً مهزوماً وخاسراً، لذلك قاد طائرته الكارافيل وذهب إلى القاهرة قبل أيام بثيابه العسكرية بعدما أعطى نفسه مرتبة مشير؛ لكي يستطيع إصدار الأوامر

إلى ضباطه، وقد قال لي: إنه عندما صافحه عبد الناصر قال له مازحاً: «بما أن هذه الزيارة سرية، فإننا سوف نعتقلك، ولن يدري بذلك أحد».

تحولت الفرقة الموسيقية من الألحان الفرحة إلى الأنغام المؤثرة، وكان مدعوو الطاولة الوحيدة يلتقطون بصعوبة الحوار بالإنكليزية بين الرجلين، إلا مود، التي ساورها غضب واضح، فقد حرمت من أن تقاطع المُتحدثَين، وأرغمت على أن تصغي مثل غيرها، والتفتت إلى يمنى متبرمة: «ما هذه الليلة الكئيبة؟ كل شيء كئيب حتى الموسيقا». وقامت فجأة إلى فسحة الرقص الخشبية، وخلعت نظارتيها السوداوين فبانت بقايا الجمال من تحت الأحداق المتجعدة، وأمرت الفرقة أن تعزف الموسيقا الإسبانية الصاخبة، وأخذت ترقص، وحيدة، بلا شريك.

قام مصور «اللايف» الذي كان لا يزال جالساً بمفرده إلى الطاولة الأخرى، وسحب كاميرته الضخمة وأخذ يلتقط الصور: صورة مود تضع قدمها على الكرسي مثل راقصات الفلامنكو، صورة «الباناش» خالياً وكئيباً، صورة كميل شمعون تحيط به بقايا الإريستقراطية البيروتية، صورة الدونا ماريا سرسق، على رأس الطاولة، وقد رفعت شعرها إلى فوق مثل براجة في حي من أحياء إسطنبول القديمة، صورة الأوكسترا الأكثر عدداً من الزبائن، صورة الكراسي لا تعرف هل يجب أن تنتظر بعد اليوم أفواج السياح أم منع التجول، صورة بيروت من خلف النافذة كأنها تودع الحقبة الجميلة على أنغام شارل ترينه.

انتهى المصور وانضم بدوره إلى الطاولة الوحيدة، وعند الحادية عشرة تقريباً دخل المطعم شاب وزوجته، فقال شمعون لروبن ضاحكاً: «ها هما سائحان يدخلان غير عابئين بأخبار المنطقة»، فأجاب روبن كأنه يرفض أن يضحك: «غداً تبلغهما السفارة الأميركية أن عليهما السفر».

فامتعض شمعون من هذه الحدة، وقال غاضباً: «ما بالك تتحدث بهذه اللهجة يا روبن، هل هناك شيء تعرفه ولا نعرفه نحن؟ إنك تتحدث كمن يتوقع الحرب بعد لحظات».

- سيدي الرئيس، أنا أعرف ما يعرفه الجميع، لست أملك كلمة السر، لكنني أعرف ما يعرفه تجار الكاوتشوك والفولاذ والأسلحة، وما يكتبه الصحافيون وما يقوله المسؤولون في مصر وإسرائيل، الجميع يعرف أن الحرب مقبلة، الكل يقول: إنها حتمية، جميع الدول تعبئ مواطنيها أو تعدّهم، العائلات تجمع المؤن لزمن طويل، إنها حرب لا نعرف متى تبدأ ولا متى تنتهي ولا كم تطول؟ ويبدو أنك وحدك لا تريد أن تصدق.

تساءل شمعون في سره إن كان حقاً لا يريد أن يصدق: هل هي فعلاً الحرب؟ لقد بدأ هذا الرجل حياته بمشاهدة الحروب، وما يمكن أن تفعله بالأمم والشعوب، كان في الرابعة عشرة عندما بدأت الحرب الأولى، وكان في التاسعة والثلاثين عندما اندلعت الحرب الثانية، وكان في الثامنة والأربعين عندما سقطت فلسطين، وها هو

الآن يشارف السبعين وحرب أخرى تنتظر المنطقة، ليس على جبهة السويس هذه المرة، لكن على الجبهة الشرقية كلها. ولبنان جزء من هذه الجبهة.

استأذن المراسل معتذراً عن تطفله ومضى، وهبَّ شمعون واقفاً هو أيضاً، وقالت له مود معترضة: «كميل، ماذا تفعل؟ إلى أين أنت ذاهب؟»، وقال باقتضاب: «سأفعل ما يجب أن يفعله أي رئيس سابق للجمهورية، لابدَّ أن أذهب لإبلاغ الرئيس شارل حلو بما سمعت».

ـ في هذه الساعة من الليل؟

☸ الأفضل أن أوقظه أنا من أن يوقظه غيري.

شعرت يمنى بحزن مضاعف، وهي تتجه صوب المصعد. شعرت كأنها شيء ما للمرة الأخيرة، الباناش أو الموسيقا أو حفلات مود، أو ربما اللقاءات مع كميل شمعون، وعند الباب كان يوسف ينتظر، باسماً، مرتفع الراس، وقد حياه الجميع قبل أن يدلفوا إلى سياراتهم، فتح الباب لسيدته وتأكد أنها أصبحت في الداخل، وعادت السيارة في هدوء إلى حديقة البوغانفيليا. كانت الشوارع أكثر خلواً من الناس، وأضواء النوافذ أكثر عتماً، وسألت يوسف، هل هناك من اتصل؟

ـ يارا، اتصلت سيدتي، وقد زغردت عندما عرفت أنك خرجت إلى السهرة.

☸ ما من أحد آخر؟

ـ مـا من أحـد آخر سـيـدتي، فقط خـيـاطة السـتـائر، قـالت: إنهـا أصلحت الأطراف، وسوف تحملها غداً.

۞ يوسف!

ـ سيدتي.

۞ هل تعرف ماذا يمكن أن يحدث لي إذا حدث شيء للبنان؟

ـ سلامة قلبك سيدتي.

۞ يوسف، هل أنت خائف؟

ـ أنا في خدمة سيدتي.

۞ يوسف، هل ذقت الحرب؟

ـ سـيـدتي أنت حـزينة لسـبب آخـر، أنت حـزينة لأنك خلعت الثوب الأسود وخرجت إلى السهرة.

۞ يوسـف، ذكّـرني غـداً بأن نشـتـري فـسـتـاناً ليـارا من «سـوق الطويلة».

❖

ضعي وردتك في كتاب الشعر

21 كانون الأوّل 1968

عام آخر، مجرد عام آخر، لكن الشرفة قد تغيرت الآن، منذ ثلاثة اشهر انتقلت من شرفتها الموحدة على البحر: لكي تعيش مع ابنتها وأحفادها هنا، في اليرزة، هذه الشرفة التي تطل على بر بيروت ومبانيها وأسطحها المتزايدة، قبل أن تطل على رفيقها الذي جاورته كل تلك السنين: البحر، ومن شرفتها الماضية كانت تعد السفن الآتية والمغادرة، أما هنا فهي تعد الطائرات التي تهبط بعيداً أمامها، ويوقظها هديرها في الصباح أو يعكر هدير آخر قيلولتها بعد الظهر.

لكنها أكثر سعادة هنا من شرفة البحر، لم يعد عليها أن تنتظر كي يأتي أحفادها إليها، فهي معهم الآن، توزع عليهم القبل في الصباح والنصائح في المساء والحنان كل الوقت، وكانت تعرف أن أمهم تغار منها وتتضايق أحياناً: لأنها غير قادرة على كل هذا الدفق، لكنها لم تهتم لذلك كثيراً، هذا هو دورها كجدّة، كأم مضاعفة.

يارا هي التي أصرت على أن تترك جدتها وحدتها في بيروت: لكي تعيش معهم، وفكرت طويلاً قبل أن تختار. فكرت في مخاوفها من أن تبقى وحيدة في نهار الكهولة وفي ليلها، وفكرت في أنها قد تفقد استقلالها وحريتها هنا، وفكرت في أنها قد تثقل على أحب الناس لديها.

حسم الأمر، في النهاية، موت يوسف، آخر سند لها في بيت الشرفة، لقد توسلته أن يعود إلى «النوبة» للتقاعد بين أهله وفي قريته، لكنه كان أصبح جزءاً من الجدران والبوغانفيليا ودورة الليل والنهار، وفي أواخر الأيام تباطأت حركته وخفّ سمعه وكثر يأسه، لكنه لم يترك «سيدتي يمنى» إلى أي مكان، وكان يكتفي من حبه للنوبة بالزيارات السنوية التي يقوم بها أولاده، وفي النهاية توقفوا هم أيضاً عن الحضور، فازداد اتحاداً بعالمه الصغير الذي أخذ بدوره يتضاءل، فخسر أولاً قيادة السيارة والرحلات القصيرة مع سيدتي يمنى، ثم خسر الخروج إلى الحديقة، ثم غرفة الطعام ثم المطبخ، وفي النهاية لم يبق من ذلك العالم سوى غرفته في محاذاة الحديقة، يلازمها، ويؤدي فيها صلواته الخمس، وفيها ينتظر، في ظل سيدته يمنى، الرحلة الأخيرة إلى عالم الأتقياء.

أنهى ذهاب يوسف علاقتها بمنزل البوغانفيليا، وحسم لها فكرة أن تكون قرب يارا، وفي البداية شعرت في اليرزة، وكأنها تسير عارية أمام الناس، وشعرت بافتقاد شديد إلى كل ما تركته خلفها من حميميات العمر، بل شعرت أنها تكاد تعزل نفسها خلف سور السنين، كما فعل يوسف، لكن يارا كانت تقطع عليها هذا الشعور الغامض بالحزن، وتملأ حياتها فرحاً، بكلمة ذكية، بقبلة في الهواء، بعناق، بنداء، بسؤال حميم حول ما يجب أن تفعل عندما يقدم لها رفيقها في الصف وردة يدسّها في كتاب الفيزياء: «تيتا، هل هو أبله أم ثقيل، ذلك الذي يضع وردة في كتاب الفيزياء؟ ألم يسمع بكتب الشعر؟».

وتجيب تيتا وهي مُطْرَبة بأخبار الزهر المتفتح في طيات الكتب: «لا ثقيل ولا أبله، إنه خجول، ضعي وردتك أنت في كتاب الشعر، لكن غير حمراء، اتركيه قليلاً، عذبيه قليلاً قبل أن يدرك ضعفك له».

كانت يارا هي صورتها قبل 50 عاماً، وكانت تغار عليها وتخاف عليها من تجارب الدروب التي مرت هي بها، وكانت تخاف عليها من أي حزن، من أي خيبة، ما أقسى الريح على الزنبق! ما أقسى البرد على البنفسج! وقد ساعدها خوفها على يارا في أن تنسى خوفها على نفسها، وساعدها اهتمامها بيارا على أن تهتم بنفسها، وأن تبدو دائماً لائقة وسعيدة، وكانت وحيدتها تفهم معنى هذه العلاقة بين الماضي وبين الاستمرار: لا تدري أين قرأت مرة أن بعض قبائل الفيتنام يسمون الماضي المستقبل، والمستقبل الماضي، لأن الماضي معروف، واضح، والمستقبل غامض، مجهول؟

لكن ها هو يوم قدري آخر، البيت الذي انتقلت إليه: لكي تعد السنين في ضوء صبا يارا ودّع يارا هذا النهار وهو يهزج، وعندما عادت من عرس يارا إلى جناحها، شعرت أنها لم تعد سوى صورة أخرى معلّقة على الجدار، لقد ذهبت يارا إلى عالمها، خرجت من طيات كتاب الشعر، وصارت علاقتها بجدتها مثل المستقبل في الغابات الفيتنامية، صار لها عالمان، العالم الذي خلفها، والعالم الذي يبدأ في التكون هذه الليلة، عندما تلتقي الحياة بالحياة، الفكرة بالجسد، اللقاح بالزهرة.

شعرت بوحدة مطلقة، ملاصقة، وهي تتأمل المساء يهبط على بيروت من خلف الزجاج. وكان كل من في البيت يستعد لسهرة رأس السنة، وبيروت تشعل أنوارها ضوءاً بعد ضوء، وفي الفسحة البعيدة قبل البحر رأت المطار ينير أضواءه الزرقاء والحمراء والبيضاء مرة واحدة، هذه أول مرة تنتبه إلى أن هذا المطار الذي يوقظها في الصباح، يتحول في الليل إلى لوحة سريالية مكملة للنجوم المرصعة التي تجعل بيروت تبدو كل ليلة مثل قطعة سقطت سهواً من المجرات المعلقة. كانت هناك علاقة حسية غريبة بينها وبين بيروت، وعندما انتقلت إلى اليرزة بعيداً عن رطوبة البحر ومشهد الفجر يطلع على الميناء، شعرت أنها أبعدت إلى منفى بعيد كتلك المنافي التي كان يرسل إليها في الماضي الناس الذين أحبتهم.

قرعت عليها ابنتها الباب، كان الجميع يعرفون إلى أي مدى سوف تفتقد يارا بعد اليوم. وكانوا يعرفون أن أحداً منهم لن يأخذ مكانها، وقد تحول الشعور بالفرح ليارا إلى شعور بالكآبة للمرأة التي بدت في الحفل بعد ظهر ذلك اليوم عروساً أخرى لا تكبر يارا إلا بخصلة من الشعر الأبيض، تركتها تتدلى بغنج على صدغها الأيمن من تحت القبعة المخملية البنية المزينة بباقة صغيرة من الورد الأزرق، وماذا ارتدت لعرس يارا، ماذا؟ ارتدت الفستان البني الطويل الذي طرّزته لها أمها نفسها من أجل أول حفلة للاستقلال، في مثل هذا المساء، في مثل هذا اليوم الذي بدأت فيه تلك الحقبة الجميلة قبل ربع قرن.

سألتها ابنتها إن كانت سوف ترافقهم إلى السهرة. لكنها كانت تعرف الجواب مسبقاً، «سوف أنام باكراً الليلة، لقد تعبنا كثيراً هذا النهار». لم ترد أن تضايقها بسؤال آخر، تركتها إلى نفسها ونافذتها وأضواء بيروت التي بقيت سماؤها زرقاء برغم نهاية كانون وبداية آخر.

رنّ الهاتف في غرفتها، وجاء صوت «مود» ملعلعاً معترضاً صارخاً:

ـ كيف لا أدعى إلى عرس يارا؟ لقد دعيت بيروت كلها إلى عرسها إلا أنا، هل تخجلون بي؟

قالت يمنى معتذرة:

۞ لابد أن خطأ كبيراً قد وقع، وأنت تعرفين انه لا دخل لي في أي حال، لقد حضرت مثلي مثل أي مدعو آخر.

ـ بل قيل لي: إن عريس يارا هو الذي رفض دعوتنا، إنه «شهابي» حتى العظم، فهل يستحي بنا؟ هل يضيره أن يحضر كميل شمعون؟

قاطعتها يمنى في حدة:

۞ اسمعي، اسمعي يا مود، اهدئي قليلاً، من أين تتكلمين؟ إنني أرى مطار بيروت يشتعل، كل شيء يشتعل، حرائق، حرائق، ماذا يحدث؟ هل يمكنك أن تري المطار من حيث أنت؟

ـ لا، أنا هنا في الطابق الثاني، كيف لي أن أرى المطار، ماذا يحدث يمنى؟ هل أنت متأكدة أنه المطار؟ لماذا يحترق المطار؟

۞ لا أدري لماذا، لكنه المطار، الطائرات تشتعل وتنفجر، يا إلهي ماذا يحدث؟ إنها الحرب يا مود، إنها الحرب،؟ لابد أنها الحرب، لكن من الذي يهاجم بيروت؟

ـ إنك تتخيلين يا يمنى، كل هذا بسبب زواج يارا، من يمكن أن يهاجم المطار، لعلها مفرقعات راس السنة قد بدأت مبكراً.

۞ أتعتقدين أنني لا أعرف الفارق بين الزينة والحريق؟ يا إلهي يا مود، الحرائق في كل مكان، سوف أتركك الآن. سوف أتركك.

خرجت إلى الدار فرأت ابنتها وصهرها وولديهما يقفون حائرين خائفين أمام مشهد الحرائق المتزايدة، وفجأة تحولت من امرأة حزينة إلى قطة تخاف على أولادها، وأمسكت بالهاتف وطلبت على الفور صديقاً قديماً، وقالت لعامل السنترال في القصر الجمهوري بعنف:

«الرئيس، أعطني الرئيس على الفور، الآن».

وقال الرجل:

ـ سيدتي الرئيس في اجتماع طارئ لا يمكنني أن أعطيه أي مكالمة.

۞ قلت لك أعطني الرئيس، حوّلني إلى الاجتماع.

زادها صوت الرئيس فزعاً:

ـ لقد ضرب الإسرائيليون مطار بيروت وانسحبوا، إنها أفدح هدية يتلقاها بلد في عامه الجديد.

۞ لكن شارل، شارل، لماذا المطار؟ لماذا نحن؟

ـ لأننا الأضعف يمنى، لقد بقينا خارج الحرب حتى اللحظة، وها هي تبدأ الآن.

۞ ماذا ستفعل يا شارل؟ ماذا ستفعل؟

ـ سوف أصلّي يا يمنى، سوف أصلّي. لقد أحرقوا لوناً من ألوان العلم بإحراق المطار، إنه الحريق الأول.

أغلقت الهاتف، وتطلعت إلى ابنتها، وهي لا تزال غاضبة هائجة مجنونة حزينة:

۞ هل اتصلت يارا من باريس؟ هل وصلت إلى الفندق؟

ـ اهدئي، اهدئي، سوف تتصل بعد قليل، لعلها في الطريق إلى الفندق.

دخلت إلى غرفتها وارتمت على السرير، وبدت الوسادة الحريرية الزرقاء سوداء معتمة، بكت ثم غرقت بثيابها تحت الوسادات، وعند منتصف الليل رنّ الهاتف في غرفتها، مرة، مرتين، مرات، ثم رنّ في الصالون، هرعت الخادمة ترفع السماعة:

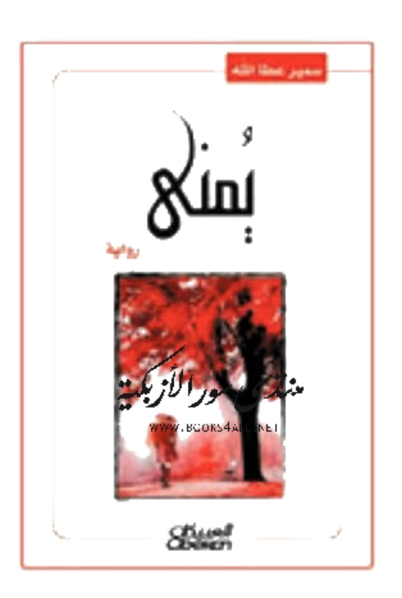
ـ آه، ستي يارا، الحمد لله على السلامة، ستي يمنى نائمة في غرفتها.

۞ اذهبي وأيقظيها، قولي لها: أريد أن أتمنّى لها عاماً سعيداً.

ذهبت الخادمة وعادت بعد دقائق طويلة:

- ستي يارا، جدتك نائمة مثلما كنت تنامين في طفولتك، وقد أطبقت بيدي رموشها الطويلة، وشبكت يديها فوق صدرها كما كانت تفعل عندما تعاتبني، ويداها باردتان، وقد وضعت إلى جانبها قبعتها البنية.





(**يمنى**) لا تشبه بطلة بيار بنوا، بل هي بالأحرى نقيضها، إنها ليست امرأة تمثّل الانتداب الفرنسي وفرنسا، بل تمثّل لبنان والاستقلال. وفي ذلك الإطار الزمني الجميل تبحث الرواية من خلال (**يمنى**) عن المشهد السياسي والمشهد الوطني، وتحاول أن تقدِّم للذين ولدوا في الاستقلال، أو للذين ولدوا في أي عام من جمالات لبنان وعذاباته شيئاً من تلك الحقبة الجميلة التي حلّت عليها النهاية الدرامية السوداء يوم أحرقت إسرائيل الطائرات المدنية الرابضة في المطار فيما لبنان يستعد للاحتفال بوصول العام الجديد.

ليست (**يمنى**) محاولة (تاريخية)، إنها تكرارٌ، محاولة روائية تعتمد على لعبة النصّ فيما سمّاه عبد الله العلايلي: «المألفة»، أي دمج المراحل والأسماء والأدوار من أجل جمالية النص، فنأمل أن تُقرأ وتُعامل في هذا الإطار.

ISBN:978-9960-54-395-6



ORD:000309-1

موضوع الكتاب: القصص القصيرة العربية - لبنان
موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com